
حول التفسير
الإسلامي للتاريخ
:: للشيخ ::
محمد قطب
:: حفظه الله ::
منبر التوحيد والجهاد
WWW.TAWHED.WS

حول
التفسير الإسلامي
للتاريخ

للشيخ
محمد قطب
حفظه الله



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون، فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ، فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ**﴾ (غافر: 82-85).

﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ، وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ (هود: 117-119).

صدق الله العظيم

مقدمة

ليس التفسير الإسلامي للتاريخ قضية ثقافية ولا فكرية بحتة، ولكنه قضية تربوية كذلك.

وقد لا توجد في الحقيقة قضية ثقافية أو فكرية منقطعة الصلة بقضايا التربية. فكل قضية تتعلق "بالإنسان" هي قضية تربوية في النهاية، إذا اعتبرنا التربية هي فن تشكيل "الإنسان" على نمط معين، تحدده العقيدة أو المبدأ الذي يدين به مجتمع معين، أو جماعة معينة.

ولكن دراسة التاريخ بالذات هي من القضايا التربوية المباشرة، إذا وضعنا في اعتبارنا أن التاريخ ليس مجرد سرد للأحداث التاريخية، إنما هو إلى جانب ذلك تفسير لتلك الأحداث، وتقويم لها. والتفسير والتقويم يشملان ذات القيم والمبادئ والأفكار التي تقوم عليها التربية وتسعى إلى تحقيقها. ومن ثم فصلته بها صلة مباشرة، بحيث نستطيع أن نقول مطمئنين إن درس التاريخ في حقيقته درس في التربية، وإن تفسير التاريخ أمر ذو أهمية بالغة في تكوين الأمة التي يراد لها أن تتربى بدراسة التاريخ.

ومن ثم فإن التعرف على التفسير الإسلامي ليس نافلة بالنسبة للأمة المسلمة، بل هو من صميم احتياجاتها التي ينبغي أن تسعى لتوفيتها وتحقيقها. وهو بالذات من صميم اهتمامات الصحوة الإسلامية، إذ هو ركيزة من ركائزها في التربية، كما أنه مقوم من المقومات الرئيسية لاسترداد الوعي الإسلامي، واسترداد الشخصية الإسلامية المفقودة في ركام الغزو الفكري الذي غشى الحياة الإسلامية في العصر الحديث.

وقبل سنوات ليست طويلة كانت فكرة التفسير الإسلامي للتاريخ تقابل من قبل كثير من "المثقفين" بالإنكار الشديد الذي يصل إلى حد الاستهجان! وكان يقال: ما للإسلام والتاريخ؟! أتريدون أن تحشروا الإسلام في كل شيء؟؟ إن التاريخ هو تسجيل الأحداث التاريخية، فهل يختلف التسجيل إذا كان المؤرخ مسلما أو غير مسلم؟

و"المثقف" الذي يقول هذه القولة شخص قد غفل عن حقيقة أساسية أشرنا إليها في السطور السابقة، هي أن التاريخ ليس مجرد سرد للحوادث التاريخية، إنما هو إلى جانب ذلك تفسير لتلك الحوادث وتقويم لها، وأن التفسير والتقويم في الحقيقة هما الجانب المهم في دراسة التاريخ، الذي بدونه يصبح التاريخ مجموعة من الأقاصيص لا هدف لها ولا غاية.

وقد لا يختلف المؤرخون في سرد الحوادث إذا اتحدت المصادر التي يرجعون إليها، وخلصت نياتهم فلم يتدخل الهوى في إثبات بعض الأمور وإسقاط بعضها الآخر[1]. ولكن التفسير والتقويم يختلفان حتما من مؤرخ لمؤرخ حسب موقفه من قضايا "الإنسان"، بل حسب تصوره للإنسان ذاته: ما طبيعته؟ ما تكوينه؟ ما قدراته؟ ما مدى فاعليته؟ ما دوره في الأرض؟ ما السنن التي تحكم حياته؟ ما المعيار الذي يقوّم به إنجازه؟ ما موقفه من الضغوط المادية والاقتصادية والسياسية والنفسية الواقعة عليه؟ ما طبيعة الصراع الدائر في الأرض؟.. الخ.. الخ.

وثمة شيء آخر وقع فيه ذلك "المثقف" الذي يقول تلك القولة، هو أنه أخذ التقديم الأوروبي للتاريخ على أنه هو التاريخ!! وهو الحقائق النهائية التي لا تقبل الجدل ولا تقبل المراجعة.. ومن ثم لم يعد يتصور أن هناك صورة أخرى يمكن أن يقدم بها التاريخ غير تلك الصورة!! بل رأى أن مجرد التفكير في تقديم التاريخ على صورة أخرى وعلى قاعدة أخرى أمر مستنكر لأنه يخالف "حقائق العلم"!! هذا مع كون الواقع الغربي يشهد تفسيرين اثنين للتاريخ لا تفسيراً واحداً –بصرف النظر مؤقتا عن مدى الفارق الجوهري بين التفسيرين– أحدهما هو التفسير الغربي "الليبرالي" للتاريخ، والثاني هو التفسير المادي للتاريخ!! ولكن ذلك "المثقف" الذي صيغ صياغة غربية، قد ينظر إلى التفسير المادي للتاريخ على أنه بدعة مستحدثة قام بها ماركس وأتباعه، قد يكون فيها شيء من الحق لأنها أوروبية على أي حال! أما التفسير الإسلامي للتاريخ فهو في نظره بدعة منكرة لا أساس لها من "البحث العلمي" على الإطلاق!! وحسبها نكارة أنها لم ترد في أي مرجع أوروبي من المراجع "العلمية" المعتمدة التي استقى منها أفكاره وتصوراته!

ولا شك أن مثل هذا الإنكار الشديد لم يعد اليوم على صورته التي كانت من قبل، فقد أصبحت الفكرة مألوفة عند كثير من الناس بتأثير الصحوة الإسلامية التي قلنا في غير هذا الكتاب إنها قدر الله الغالب، وإنها العودة إلى النبض الطبيعي لهذه الأمة، العودة التي لا تستغرب، ولا يبحث لها عن أسباب، لأنها عودة إلى المجرى الطبيعي الذي سارت عليه أمور هذه الأمة ما يقرب من ثلاثة عشر قرنا بلا انقطاع. إنما الذي كان يستغرب، ويبحث له عن أسباب هو الانحراف عن هذا المجرى خلال القرن الرابع عشر من حياة الأمة إلى مجرى مغاير لا يتفق مع عقيدة الأمة ولا مقوماتها الرئيسية[2].

([1]) ووقليلا ما يحدث ذلك!

([2]) انظر كتاب "واقعنا المعاصر" فصل "الصحوة الإسلامية".

ولكننا –وإن خف الإنكار، أو اختفى من ألسنة بعض "المثقفين" استحياء منهم من الظهور بمظهر المتخلف عن مجرى الصحوة الإسلامية– ما زلنا في حاجة إلى دراسات مستفيضة للتفسير الإسلامي للتاريخ، حتى يتعرف الناس على حقائقه التفصيلية، بعد أن عرفوا شيئاً عن عمومياته، وشيئاً عن اتجاهه العام.

وهذا الكتيب لا يمكن بطبيعة الحال أن يتسع لدراسة مستوعبة للموضوع، إنما هو بالأحرى دعوة للمختصين لكي يقوموا بهذه الدراسة.

إنما قصاراه أن يكون إشارة إلى القضايا الرئيسية التي أحسب أن الدراسة المستوعبة ينبغي أن تتناولها بالبحث لكي تتم للتفسير الإسلامي مقوماته المتميزة، التي يتميز بها تميزا واضحا عن كلا التفسيرين الغربيين القائمين اليوم في الساحة.

وبهذه المناسبة نقول إن التفسيرين الغربيين قد لا يختلفان كثيرا في الجوهر، فكلاهما في الحقيقة تفسير "مادي" للتاريخ!! كلاهما يتناول من حياة الإنسان الجوانب الأقرب إلى عالم المادة وعالم الحس، ويهمل الإنسان الكُلَّ الذي يشمل الجسد والروح؛ يشمل عالم الضرورة وعالم القيم الطليقة من قيد الضرورة.

لذلك لا نستغرب حين نجد كاتبا غربيا مثل "ول ديورانت" يتخذ موقف التفسير المادي للتاريخ في قضايا "الدين الذي أخلى مكانه للعلم" و"المرأة التي استقلت اقتصاديا فتحررت من قيود الدين والأخلاق" و"العلاقات الجنسية الحرة بعد انقضاء العصر الزراعي والدخول في العصر الصناعي المتطور"[1].. إلى آخر القضايا التي يثيرها في الأصل التفسير المادي للتاريخ، ولكن الغربي "الليبرالي" يتقبلها لأنها لا تتعارض تعارضا جوهريا مع تصوراته عن "الإنسان" ودوافعه وطريقة استجابته للمؤثرات الواقعية عليه!

إن هناك عاملين رئيسيين يشكلان الفكر الغربي جملة، ويؤثران تأثيرا عميقا فيه، بوعى من أصحابه أو غير وعي، هما الداروينية من جهة، والنفور من الدين بسبب طغيان الكنيسة وتجبرها وحجرها على الفكر من جهة أخرى[2].

هذان العاملان يؤثران في الفكر الأوروبي كله –شرقيه وغربيه– بدرجات متفاوتة، فيجعلانه يميل إلى إسقاط الدين من الحساب عند الحديث عن "الإنسان": حياته، أو فكره،

([1]) انظر كتاب "قصة الحضارة" وكتابه "مباهج الفلسفة" في مواضع متعددة.

([2]) انظر إن شئت كتاب "مذاهب فكرية معاصرة" فصل "الدين والكنيسة".

أو تاريخه، ويجعلانه ينظر إلى الإنسان على أنه نهاية خط التطور الحيواني، أي أنه يركز على قاعدته الحيوانية أكثر مما يركز على قاعدته الإنسانية الأصيلة.

وتفسير التاريخ الإنساني الذي يقدمه شرق أوروبا أو غربها متأثر لا محالة بهذين العاملين —سواء وعى أصحابه ذلك وتعمدوه، أم كانوا على غير وعي منهم ولا تعمد– لأنهم حتى هذه اللحظة لا يريدون أن يصححوا قاعدة حياتهم ولا قاعدة تفكيرهم التي خربتها الكنيسة من جهة، والداروينية من جهة أخرى.

ومهما يكن من أمر أوروبا، ونظرتها إلى الدين ونظرتها إلى الإنسان، فالتفسير الإسلامي للتاريخ شيء قائم بذاته، لا علاقة له بالظروف الخاصة التي مرت بها أوربا فحرفت نظرتها إلى كل أمور الحياة.

إنما يستمد التفسير الإسلامي للتاريخ من الإسلام: من المقررات الإسلامية عن الوجود كله، سواء الوجود الإلهي، أو الوجود الإنساني، أو الوجود المادي، وعلاقة الخالق بمخلوقاته، وعلاقة الخلق بخالقهم، والسنن التي يجري بها الله أمر البشر وأمر الكون المادي سواء.

هذه المقررات ربانية من جهة أن مصدرها هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولكن التطبيقات المبنية عليها بشرية، لأنها تعتمد على مدى فهم البشر لهذه المقررات، وطريقة استنباطهم لما يستنبطون منها من تفسيرات. أي أن ما نطلق عليه "التفسير الإسلامي للتاريخ" اجتهاد بشري، يخطئ ويصيب، شأنه شأن اجتهاد البشر في استنباط نظرية تربوية، أو نظرية نفسية، أو نظرية اقتصادية، أو نظرية اجتماعية، من المقررات الثابتة الواردة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهي عرضة دائماً للمناقشة والتصويب ككل فكر يصدر عن "الإنسان"، ولكنها تظل في جملتها ذات خصائص مميزة، لأنها تدور في فلك هذه المقررات الربانية ولا تخرج عنها ولا تصادمها، ومن ثم فهي أقرب إلى الدقة وأقرب إلى الصواب من الاجتهادات البشرية غير المنضبطة بهذه الضوابط، التي نرى نماذج منها في التفسيرات الأوروبية المعاصرة لقضايا الكون والحياة والإنسان.

* * *

يختلف التفسير الإسلامي للتاريخ عن كلا التفسيرين الغربيين في نظرته المبدئية إلى "الإنسان"، ومن ثم يختلف عنهما في القضايا التي تتعلق بذلك الإنسان، والتي تكوّن في مجموعها تاريخه.

وليس الخلاف الجوهري بطبيعة الحال هو الخلاف في تحديد الوقائع التاريخية. فهذه عرضة لأن يقع الخلاف عليها دائما حتى لو اتحدت مناهج المؤرخين واتجاهاتهم، ما دام الكثير من مرويات التاريخ ليس قطعي الثبوت ولا قطعي الدلالة.

إنما الخلاف الرئيسي —حتى في حالة الاتفاق على الوقائع– هو في أمرين رئيسيين: تفسير الوقائع من ناحية، وتقويمها[1] من ناحية أخرى. التفسير يتناول الدوافع، والعوامل المؤثرة، وطريقة تأثير هذه العوامل في مجرى الحياة الإنسانية، والتقويم يتناول الحكم على الإنجاز البشري في أية مرحلة من مراحله بأنه خطأ أو صواب، منحرف أو مستقيم، رفيع أو هابط.

فحينما يقول التفسير المادي للتاريخ إن تاريخ الإنسان يبدأ من بحث الإنسان عن الطعام، وإن الأوضاع المادية والاقتصادية هي التي تشكل فكر الإنسان وعقائده وأنماط سلوكه، وتحدد المؤسسات التي تقوم عليها حياته، وأن هذا كله يجري من خلال "الطبقة" ومن خلال الصراع الطبقي، في أطوار حتمية لا اختيار للإنسان فيها ولا قبل له بالخروج من محتواها.

وحينما يقول التفسير الليبرالي للتاريخ إن حب الإنسان للاستمتاع بطيبات الحياة، ورغبته في السيطرة والاستحواذ، والصراع الدائر بين البشر على السيطرة والاستحواذ هو الذي يكتب التاريخ الإنساني، وينشأ عنه ما ينشأ من أفكار وعقائد وأنماط سلوك ومؤسسات، من خلال الفرد، أو من خلال الوجود الفردي في المجتمع..

فإن التفسير الإسلامي للتاريخ يقرر أن التاريخ البشري هو تحقيق المشيئة الربانية من خلال الفاعلية المتاحة للإنسان في الأرض بقدر من الله، وبحسب سنن معينة يجري الله بها قدره في الحياة الدنيا. والتاريخ من جهة أخرى هو سعي الإنسان لتحقيق ذاته كلها، لا البحث عن الطعام فحسب، ولا المتاع والسيطرة والاستحواذ فحسب، إنما تحقيق كل ما يشتمل عليه الإنسان من طاقات وقدرات، وتطلعات وأشواق، إلى جانب الضرورات القاهرة والرغبات القريبة.. وهو تاريخ الفرد والجماعة في ذات الوقت من خلال تشابكهما الذي لا ينتهي، وتدافعهما الذي لا يقف عند حد.

([1]) يستخدم بعض الكتاب كلمة "تقييم" بدلا من "تقويم" في معنى الحكم على الشيء لبيان قيمته، ويستخدمون كلمة "تقويم" فقط بمعنى إزالة العوج، والحقيقة أن كلا الفعلين واوي الأصل.

وبهذا يكون التفسير الإسلامي هو الأوسع والأشمل، ويكون من ثم هو الأقرب إلى الصواب.

كذلك في قضية التقويم.

فحينما يقول التفسير المادي للتاريخ إن مبرر وجود أي شيء في حياة الإنسان هو وجوده ذاته! لأن وجود كل شيء يتم بموجب الحتمية التاريخية والحتمية المادية، لا يسبقها، ولا يتأخر عنها، ولا يخالفها، ومن ثم لا يحكم على شيء بأنه خطأ أو صواب، أو منحرف أو مستقيم، إنما وجوده في طوره التاريخي وطوره المادي والاقتصادي هو الشيء الوحيد الممكن، ومن ثم فهو الصواب عندئذ بصرف النظر عما فيه من عدل أو ظلم، ولكن وجوده بعد طوره التاريخي والمادي والاقتصادي هو الخطأ الذي ينبغي تقويمه، بصرف النظر عن أي "قيمة" من القيم، لأن القيم لا ثبات لها، إنما هي دائما انعكاس للواضع المادي والاقتصادي.

وحينما يقول التفسير الليبرالي للتاريخ من جانبه إن مبرر وجود أي شيء في حياة الإنسان هو وجوده ذاته! لأن الإنسان هو المرجع، والإنسان هكذا! محكوم أبداً بضروراته، خاضع لها، فالجبرية النفسية هي التي تحكمه، ومن ثم لا يحكم على شيء من أحداث التاريخ بأنه خطأ أو صواب، أو منحرف أو مستقيم، إنما ينظر إليه على أنه واقع، ويؤخذ على أنه واقع! فيتقبل بخيره وشره على أنه أمر لا محيص عنه، وليس في الإمكان أن يقع غيره.. فتضيع القيم كلها، ويضيع معها "الإنسان"..

فإن التفسير الإسلامي يقول إن هناك غاية ربانية من خلق الإنسان هي أن يكون خليفة في الأرض.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: 31].

وإن هناك شرطا ربانيا للاستخلاف:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة البقرة: 38-39].

ومن ثم فإن أعمال الإنسان كلها لها معيار رباني توزن به، بحسب تحقيقها لهدف الوجود الإنساني وشرطه أو عدم تحقيقها له، ومن ثم يحكم عليها دائما في أي وضع من الأوضاع بأنها خطأ أو صواب، منحرفة أو مستقيمة.. ولا تكون قط خارجة عن ذلك

التقويم بحجة من الحجج، ذلك أن المعايير الربانية التي تستخدم في التقويم، منظور فيها إلى كيان الإنسان كله، بما يشتمل عليه من طاقات وقدرات، وضرورات وأشواق، وأن التكاليف الربانية –التي هي مناط الحكم بالخطأ والصواب، والاستقامة والانحراف –منظور فيها إلى القدرة البشرية، وما منح الإنسان من وعي وإرادة وفاعلية:

(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) [سورة البقرة: 286].

وبذلك كله يصبح للوجود الإنساني معناه، وللتاريخ الإنساني معناه.. وهو معنى في الحقيقة لا ينقطع بانقطاع الحياة الدنيا، إنما يمتد إلى يوم البعث والجزاء:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) [سورة المؤمنون: 115].

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) [سورة ص: 27].

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى) [سورة القيامة: 36-40].

* * *

التفسير الإسلامي للتاريخ في الحقيقة هو المقابل للتفسير الجاهلي للتاريخ، سواء منه التفسير المادي، أو التفسير الليبرالي، الذي يسقط من حسابه الله واليوم الآخر، ويقتطع من حياة الإنسان فترة يدرسها بعيدا عن الله، بينما هي في الحقيقة غير منقطعة عن الله لا في واقعها الحاضر، ولا في منشئها الذي خرجت منه، ولا في مصيرها الذي تئول إليه.. ومن ثم تختل بين يديه كل القيم والمعايير، ويصبح تفسيرا ناقصا لا يقدر على التفسير..

وأشد ما يعجز التفسير الجاهلي للتاريخ عن تفسيره هو الإسلام!

كيف ظهر؟ كيف غير من حياة الناس ما غير؟ كيف أنشأ مجتمعا جديدا كل الجدة في قيمه ومفاهيمه وإنجازاته؟ كيف امتد بهذه السرعة الخاطفة فشمل هذه المساحة الواسعة من الأرض، وهذه الألوف المؤلفة من القلوب؟ كيف أقام العدل الرباني واقعا مشهودا في الأرض؟ كيف قضى بهذه السرعة على الشرك والخرافة من حياة الناس ورفعهم إلى عبادة الله

الحق؟ كيف منح الله المستعبدين وجودا إنسانيا متحررا، وكيف أطلق العقول المستعبدة ترتاد الكون لتعرف الحق، وتتعلم، وتعلم؟

كل محاولة لتفسير هذه الظاهرة تسقط من حسابها قدر الله ومشيئته، وتفسر الأمر من زاويته البشرية وحدها لا تفسر الحقيقة، إذ الحقيقة أنه وحي من عند الله ورسواله أرسل بها رسول، فعلت فعلها في نفوس البشر حين استجابوا لها هذه الاستجابة الفذة بقدر من الله.

وكل محاولة لتفسيرها على أساس الحتمية التاريخية أو الحتمية المادية لا تفسر شيئاً على الإطلاق.. فإن شيئاً لم يتغير في الجزيرة العربية –ولا في الدنيا كلها يومئذ– يمكن أن يفسر كل ما جاء به الإسلام من إزالة القداسة عن البشر جميعا حكامهم ومحكوميهم، ونزع حق التشريع منهم ورده إلى الله، ومن تحرير الناس من عبودية بعضهم لبعض برد العبودية كلها لله، ومن تحرير المرأة ورد إنسانيتها المسلوبة إليها دون طلب منها ولا استقلال اقتصادي يؤدي إلى التحرر، ومن وضع مبدأ مسؤولية الحاكم عن كل فرد في الدولة، ومبدأ التكافل في المجتمع، ومبدأ التحاكم إلى شريعة واحدة للأغنياء والفقراء، ليست من صنع الأغنياء ولا من صنع الفقراء.. ومبدأ.. ومبدأ.. ومبدأ.. مما أتى به الإسلام غير مسبوق، ولم تعرف البشرية بعضه إلا بعد قرون!

إنما الذي يفسر هذه الظاهرة بسهولة هو التفسير الإسلامي للتاريخ! لأنه يفسر أحوال البشر جميعا في رفعتهم وهبوطهم، وإقبالهم وإدبارهم، وإيمانهم وكفرهم، واستقامتهم وانحرافهم، بحسب ما بيّن الله في كتابه المنزل، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما يدخل في حسابه عالم الغيب وعالم الشهادة سواء.

* * *

ويحتفل التفسير الإسلامي للتاريخ احتفالا خاصا بفترات الهدى في الحياة البشرية – وبخاصة فترة الرسالة الخاتمة– بقدر ما يغفل التفسير الجاهلي عن عمد هذه الفترات.

يحتفل بها لأنها تمثل الإنسان في أرفع حالاته، وأكثر حالاته استقامة مع هدف وجوده وشرط استخلافه، ومن ثم فهي أروع إنجازاته في الأرض.

أما الجاهليات –وما أكثرها في التاريخ– فإن التفسير الإسلامي للتاريخ يسجلها كما هي في واقعها، لا ينقص شيئاً من إنجازاتها المادية، ولا إنجازاتها العلمية، ولا إنجازاتها الإدارية،

ولا إنجازاتها الحربية.. ولكنه يسجلها على أنها جاهليات.. وتلك حقيقتها في ميزان الله، بكل إنجازاتها الأرضية التي لا تبتغي بها وجه الله، ولا تلتزم فيها بما أنزل الله:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون) [سورة الروم: 9-10].

فكونهم أثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمرها غيرهم ليس هو الذي يرفعهم في ميزان الله ما دام مقرونا بتكذيب الرسل وعدم التصديق بآيات الله. وهم جاهليون مهما أثاروا الأرض ومهما عمروها، حتى يؤمنوا بالله وحده، ويحكموا شريعته وحدها، عندئذ فقط تزول عنهم صفة الجاهلية حين يدخلون في حكم الله:

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [سورة المائدة: 50].

* * *

من أجل ذلك لا يقسم التفسير الإسلامي للتاريخ الأمم تقسيما مبدئيا إلى أمم متقدمة وأمم متخلفة بحسب الإنجاز المادي والعلمي، ولا إلى أمم قوية وأمم ضعيفة بحسب الإنجاز الحربي والسياسي، إنما يقسمها مبدئيا إلى فريقين رئيسيين: أمم كافرة وأمم مؤمنة، بحسب التقسيم الرباني:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [سورة التغابن: 2].

ثم تجيء بعد ذلك كل التقسيمات الأخرى، من تقدم وتخلف بحسب الإنجاز المادي والعلمي، وقوة وضعف بحسب الإنجاز الحربي والسياسي.. الخ.

وكلها داخلة في الحساب، ولكن مع مراعاة أمرين رئيسيين: الأول: أن القيمة الأولى والكبرى في ميزان الله -وهو الميزان الذي يزن به التفسير الإسلامي للتاريخ -هي للإيمان والكفر، قبل كل معيار آخر.

والثاني: أن الإيمان الصحيح –بحسب المفهوم الإسلامي الصحيح–[1] يستتبع حتما أن تسعى الأمة إلى حيازة كل وسائل القوة والتمكن، المتعلقة بالإنجاز المادي والعلمي، والحربي والسياسي.. إلخ، وإلا فهي مقصرة في دينها ذاته. فليس الوضع الصحيح للأمور أن يكون الإيمان بديلا من وسائل القوة ولا أن تكون وسائل القوة بديلا من الإيمان. إنما تكون الأمة في وضعها الأمثل حين تكون مؤمنة قوية في ذات الوقت، لا مؤمنة ضعيفة، ولا قوية منكرة، فكلاهما اختلال لا يرضى به الله.

ومن الممكن –في التاريخ– أن توجد أمة مؤمنة في دور التكوين لم تستكمل بعد كل أدوات القوة والتمكن، فهذا ظرف خاص لا يقاس به وضعها النهائي، إنما يقاس وضعها النهائي حين تتاح لها الفرصة الزمنية اللازمة لاستكمال التكوين.. ولكن حتى في مثل هذه الحالة –التي كانت عليها الأمة الإسلامية مثلها في سنواتها الأولى– فالمقياس هو المقياس: الإيمان أولا، ثم بقية المعايير بعد ذلك. والذي يحسم هذه القضية هو المقارنة بين جيل الصحابة رضوان الله عليهم، والجيل المعاصر الذي يملأ وجه الأرض.. جيل بلغ القمة في عالم القيم –المستمدة من الإيمان الصحيح– مع أدنى حد من الإنجازات المادية عرف في التاريخ، وجيل بلغ القمة في الإنجاز المادي والعلمي والتقني، مع أدنى حد من القيم عرف في التاريخ.. فأي الجيلين هو الذي حق حقيقة "الإنسان" وأي الجيلين هو الذي تصبو البشرية إلى مثله!

وعلى أي حال فإن الإنجاز المادي متاح "للإنسان" عامة بقدر ما يجتهد في طلبه، ولكن العبرة بما يملأ قلب هذا الإنسان.

فأما إن كان مؤمنا فإنتاجه هو الحضارة..

وأما إن كافرا فقصاراه أن ينشئ "حضارة جاهلية" إن صح التعبير. حضارة لا تحقق هدف الوجود الإنساني تحقيقا كاملا، وليست كذلك مقبولة عند الله..

* * *

ولقد قصدت بهذا الكتيب أن يكون مدخلا لدراسة التفسير الإسلامي للتاريخ، وأن يكون في الوقت ذاته دعوة للمؤرخين المسلمين أن يعيدوا كتابة التاريخ البشري من زاوية الرصد الإسلامية المتميزة، لإزالة التناقض القائم اليوم بين عقيدة الأمة وبين دراستها للتاريخ،

(1) انظر مفهوم لا إله إلا الله ومفهوم العبادة من كتاب مفاهيم ينبغي أن تصحح.

وهو تناقض يحدث ازدواجا في الشخصية يؤدي في النهاية –كما هو معلوم في علم النفس– إلى اختلال الشخصية وفقدان ترابطها.

ففي درس الدين يتعلم الدارس أن الشرك والوثنية تخلف في الفكر، وتخلف في الإنسانية، وانحراف عن الهدف الذي خلق الإنسان من أجله، وهو عبادة الله وحده دون شريك:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [سورة الذاريات: 56].

وفي درس التاريخ يجد الدارس إشادة ضخمة بالوثنية الرومانية، والوثنية الإغريقية، والوثنية الفرعونية، والوثنية العربية، على أنها حضارات ملأت ساحة التاريخ بالأمجاد، ورفعت الإنسان إلى قمم من الفكر والإنسانية لا تعدلها قمم.

ومن هنا ينشأ ازدواج الشخصية، وازدواج النظرة إلى الأمور، ويتحير الدارس: أيهما أصدق؟ أي المعيارين هو الصحيح؟ وقد يتابع التفكير، وقد يكف عنه وينشغل بقضايا أخرى.. ولكن يظل ازدواج الرؤية قائما في نفسه، وقد ينتهي به كما انتهى عند كثير من "المثقفين" إلى أن نظرة الدين خاصة بالدين، ولا علاقة لها بالعلم، ولا علاقة لها بواقع الحياة، وأن العلم والحياة الواقعية يحكمهما معيار آخر.. والمعياران لا يلتقيان! وهذا هو ذات الموقف الذي وقفه "المثقف" الأوروبي من قبل، وانتهى به إلى هجر الدين، وإخراجه نهائيا من الساحة، أو حصره في نطاق المشاعر الوجدانية التي تذهب جفاء ولا تمكث في الأرض!

وإذا كان هذا قد وقع في دين الكنيسة بسبب المواقف الخاطئة التي وقفتها الكنيسة الأوروبية، فهو غير جائز في دين الله.. والمزية الكبرى للمسلم هي توحد اتجاهه، وتوحد أنماط سلوكه العقلي والعملي والروحي، لأن مرجعها جميعا هو المنهج الرباني الشامل، الذي يشمل جوانب الحياة كلها ويربطها برباط واحد.

وحين يصحح منهاج دراسة التاريخ فلن تتغير الوقائع التاريخية –كما سبق أن بينا– فالمسلم أحرص الناس على ذكر الحق وتحريه، وإنما سيتغير التفسير، ويتغير التقويم، فتصبح كلها منبثقة من أصل واحد، ومتجهة وجهة واحدة، ويعود للدارس المسلم توحد شخصيته وترابطها، الذي فقده بتأثير الغزو الفكري خلال قرنه الأخير.

* * *

وقد تناوت بالدراسة الموجزة في هذا البحث مجموعة من المقومات التي يقوم عليها التفسير الإسلامي للتاريخ:

* ما الإنسان؟ ما طبيعته؟ ما تكوينه؟ ما الذي تفرد به عن غيره من الكائنات؟ ما دوره في الأرض؟

* ما العلاقة بين قدر الله الذي له الفاعلية في الكون والحياة والإنسان، وبين فاعلية الإنسان في الأرض؟

* ما السنن الربانية التي تحكم الحياة البشرية؟

* ما موقف الإنسان من الضغوط المادية والاقتصادية والنفسية التي يتعرض لها؟

* ما طبيعة الصراعات القائمة في الأرض؟ ولمن تكون الغلبة فيها؟

* ما المعيار الذي يقوّم به الإنجاز البشري؟

* ما العلاقة بين دور الفرد ودور المجتمع؟ وأيهما الذي يكتب التاريخ؟

* ما الثابت وما المتطور في الحياة البشرية؟

فإذا أدى البحث مهمته في بيان موقف التفسير الإسلامي من هذه القضايا، وفي دعوة المختصين أن يقوموا بالدراسة المستوعبة المطلوبة، فهذا حسبي منه، وبالله التوفيق.

محمد قطب

ما الإنسان؟

لعل أهم ما يبحث فيه التفسير الإسلامي للتاريخ –بل أي تفسير للتاريخ– هو "الإنسان": ما طبيعته؟ ما تكوينه؟ ما مميزاته؟ ما دوره على الأرض؟

بل إن هذه هي نقطة البدء في أية دراسة ذات مغزى لتاريخ الإنسان. ذلك أننا إذا لم نتعرف على حقيقة الإنسان، فلن يتسنى لنا أن نفهم تاريخه، ولن نعرف كيف نفسر تصرفاته، ولا كيف نحكم عليها. وهذا التفسير، وهذا الحكم هو العمل الحقيقي الذي يهدف إليه المؤرخ من كتابة التاريخ، وإلا فسيظل عمله مجرد سرد لمجموعة من الأقاصيص لا رابط بينها، ولا هدف لها إلا تزجية الفراغ!

إن التاريخ يدرس للعبرة.. ليضيف إلى تجارب الإنسان الذاتية تجارب غيره من البشر خلال القرون. ومن خلال رؤية حركة البشر عبر التاريخ، ومحاولة تفسيرها والحكم عليها، يشعر الإنسان أنه صار أكثر خبرة، وأوسع قاعدة، وأعمق فكرا، وأكثر أصالة، وأوضح انتماء مما كان من قبل وهو محصور في تجربته الذاتية الفردية.

والإنسان –بعد– هو الكائن الوحيد الذي له تاريخ، والذي تنمو مداركه وتتسع من خلال دراسته للتاريخ.

إن الكائنات الأخرى لا "تعقل" تجربتها على الأرض، وبالتالي لا ينقلها جيل منها إلى جيل نقلا واعيا تتسع به مداركها في مواجهة ما يعترضها من الظروف. بالإضافة إلى حقيقة أخرى، هي أن تجربة تلك الكائنات –إن صح أن لها تجربة على الإطلاق، إذ التجربة قرينة الوعي– هي هي، أو تكاد تكون هي هي خلال القرون المتعاقبة، ليس فيها جديد يؤبه له، وينتفع فيه بعبرة التاريخ.

فالحمار الأول لا يفترق كثيرا عن الحمار الأخير، لا في طعامه، ولا عاداته، ولا درجة ذكائه، ولا في تصرفاته المختلفة، فضلا عن كون الفروق الفردية بين أفراد نوعه ضئيلة إلى أكبر حد، وفضلا عن كونه تصرفاته تمليها الغريزة ولا مجال فيها للاختيار. وإن بدا لنا أحيانا أنه يختار، فخياراته –المحدودة النطاق– محكومة بالغريزة في النهاية، ليس فيها إرادة حقيقية ولا وعي.

ومن ثم فإن الحمار ليس له تاريخ! ومثله بقية الكائنات حتى القردة العليا التي يقول دارون إن واحد منها هو الجد الأعلى للإنسان[1].

أما الإنسان فهو من مبدأ حياته كائن له تاريخ...

ليس ذلك فقط لأنه دون تاريخه بالفعل بصورة من صور التدوين.. بالرسم على جدران الكهوف أو بالكتابة على الجدران أو الأوراق، ولكن قبل ذلك، لأنه الكائن ذو الوعي الذي يعقل تجربته على الأرض، ويضيف إليها على الدوام من خلال احتكاكه بالكون المادي، أو احتكاكه مع غيره من أبناء جنسه. ومن خلال تراكم التجربة تنشأ له مواقف جديدة، فيتكون له تاريخ..

ومن جهة أخرى فإن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي له "إنتاج".. سواء كان إنتاجه في عالم المادة، أو في عالم الفكر، أو في عالم الروح.. ومن خلال تنوع إنتاجه وتعاقبه يتكون له تاريخ..

* * *

نقطة البدء إذن هي الإجابة عن هذا السؤال: ما الإنسان؟

وعلى بساطة السؤال، وكونه يبدو لأول وهلة بدهية لا تحتاج إلى سؤال، فإن شيئا كثيرا يتوقف على إجابته، وإن كثيرا من الاختلاف القائم في الأرض بين فكر وفكر، ومنهج ومنهج –في مجالات الحياة المتعددة– قد نشأ أصلا من الاختلاف على إجابة السؤال.

ومهما يكن من أمر هذا الخلاف في ميادين المعرفة المتنوعة، وفي ميادين التطبيق الواقعي لثمار المعرفة، فربما كان على أشد صوره في مجال الرؤية التاريخية، حيث تتأثر الرؤية تأثرا كبيرا ومباشرا بمعرفة حقيقة الإنسان، أو بما يتخيله المؤرخ من هذه الحقيقة، سواء كانت تصوراته عنها واضحة في ذهنه، حاضرة في وعيه، وهو يقوم بعملية التفسير وعملية التقويم، أم كانت مستسرة في باطن فكره، توجه أفكاره من حيث لا يشعر في أثناء عملية التفسير وعملية التقويم.

([1]) اهو الشمبانزي أو الغوريلا كما تقول الداروينية!! (أي مع استبعاد العائلتين الباقيتين وهما الجيبون والأورانج أوتانج) والداروينيون يرجحون أن يكون هو الشمبانزي وإن كانوا لا يستبعدون الغوريلا بصورة قطعية. وهناك بطبيعة الحال نظريات علمية أخرى ترفض الفرض الدارويني من أساسه..

ولنلق شيئاً من الضوء على القضية..

فحين يكون الإنسان في التصور الداروييني الذي يحكم فكر أوروبا اليوم هو نهاية خط التطور الحيواني، وصل إلى وضعه الحالي دون قصد من أحد ولا غاية.. وإنما بتأثير الظروف المادية البحتة التي جعلته ينتصب على قدميه ليقطف ثمار الأشجار، فاعتمد رأسه على جذعه بدلا من أن يكون معلقا في الهواء متدليا من عنقه، فأتيح لمخه أن ينمو، فتعلم الكلام وصار يفكر. ومن ثم صار إنساناً..

حين يكون هذا هو التصور عن الإنسان، فهل يعقل أن يكون لحياة ذلك الإنسان غاية؟! وهل يعقل أن تكون الأخلاق جزءا من تكوينه الذاتي؟ أو جزءا من مقومات حياته؟ وهل يكون الحكم الأخلاقي هو المرجع في الرؤية التاريخية التي تتابع وجوده على الأرض، وتفسر مراحل ذلك الوجود؟!

بل هل يتصور أن يكون لهذا المخلوق التزام نحو خالقه —أيا كان تصورهم لخالقه[1]– وهل يرد على الخاطر أن يرسل الله —إن اعترفوا به– رسلاً لهدايته، وكتباً لتعليمه، وأن يبعثه ذات يوم ليحاسبه على ما عمل في أثناء حياته؟! أم يكون تفسير الدين —وهو واقع تاريخي لا سبيل إلى إنكاره– أنه شيء صنعه الإنسان لنفسه– بتأثير عوامل معينة مرت به في حياته– ويكون تفسير الأخلاق– وهي كذلك واقع تاريخي لا سبيل إلى إنكاره– أنها أمور تواضع الناس عليها لتيسير وجودهم المشترك على الأرض لحماية بعضهم من عدوان بعض.. وفي الحالين يكون الدين والأخلاق صناعة بشرية بحتة، يشكلها الإنسان حسب ظروفه وحاجاته، وهي رهن مشيئته، إذا شاء أبقاها، وإذا شاء استغنى عنها، وقد عن له في آخر طور من أطواره على الأرض، أن يلغي الدين جملة، وأن يعدل الأخلاق جملة، وذلك من حقه ولا تثريب عليه فيه؟!

وحين يكون الإنسان في التصور الأوروبي المعاصر إلها متصرفا —وهذا من التناقضات الواقعية القائمة في الجاهلية المعاصرة، حيث تراه مرة بعين الداروينية حيوانا ممتدا في نسبه إلى واحد من القردة العليا الأربع[2]، وتراه تارة أخرى على ضوء منجزاته العلمية والتكنولوجية إلها

([1]) يقول دارون (الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق).
Nature creats everything and there is no limit to its creativity ويقول الماديون إن المادة أزلية أبدية متطورة وإن الإنسان هو أعلى تطور للمادة.

([2]) هي الشمبانزي والغوريلا والجيبون والأورانج أو تانج كما سبقت الإشارة في هامشة سابقة.

متصرفا يصنع نفسه كما يشاء، ويصنع حياته كما يشاء[1]- حين يكون هذا هو التصور فهل يعقل أن يحاسَب الإله على عمل من أعماله فيقال له إن هذا خطأ وهذا صواب؟ أم أن أعماله كلها تصبح صوابا وتصبح مبررة لمجرد صدورها عنه؟!

وهل يعقل أن يخضع هذا الإله لإله؟ أو أن يستجيب لأوامره ونواهيه؟ أم يكون المنطقي مع هذا التصور أن يقال إن الإله الذي عبده الإنسان ردحا من الزمن، كان شيئا من تصوراته الخاصة بسبب من ملابسات خاصة مرت به، وإنه الآن –بعد أن تعلم وسيطر على البيئة- قد تحرر من ذلك الوهم الذي عرقل تقدمه فترة من الزمن وأصبح طليقا يصنع بنفسه ما يشاء- بعد أن أخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر العجز والجهل على عاتق الله، ومن ثم أصبح هو الله![2]. ويكون المنطقي أن يقال إن الأخلاق أمر نسبي دائم التغير، فهي في كل مرحلة من مراحل حياة الإنسان تصاغ صياغة تناسب أحواله وظروفه وملابساته، ثم تتغير وتتغير وتتغير مع كل تغير جديد يصيب أحواله وظروفه وملابساته، ثم تتغير وتتغير وتتغير مع كل تغير جديد يصيب أحواله وملابساته، حتى يصل إلى مرحلة يفتت فيها كل أخلاقياته القديمة ويلقي بها في البحر، ويصطنع أخلاقا جديدة ليس فيها أخلاق؟

من هنا يتضح لنا كيف يتسق التفسير المادي للتاريخ بقسميه (الشرقي والغربي) مع تصور القوم للإنسان. ويتضح لنا كيف أن الانحرافات التي نحسبها جزئية في ذلك التفسير ليست جزئية في الحقيقة، ولا هي عارضة بحيث يمكن التجاوز عنها، إنما هي أصيلة فيه، نابعة من نقطة مركزية في بنيانه الأساسي، هي نظرته المبدئية للإنسان.

وحين نعيد قراءة التاريخ الذي تقدمه لنا أوروبا على ضوء هذه الحقيقة لا نعجب حين نرى الإشادة الضخمة بالجاهليات الفرعونية والرومانية والإغريقية وغيرها.. ونرى في الوقت ذاته "التعتيم" على فترات الهدى في حياة البشرية.

إنه أمر لا يأتي جزافا! ولا هو هوى شخصي لهذا المؤرخ أو ذاك.. إنما هو اتجاه عام له منشؤه في حياتهم، وله تفسيره في أفكارهم ومعتقداتهم.. نابع كله من نظرتهم الأساسية للإنسان.

([1]) انظر كتاب (الإنسان يصنع نفسه) و(الإنسان يقف وحده) .Man Makes Himself Man Stands Alone، وهما من تأليف الجاهلية الأوربية المعاصرة!

([2]) هذه أقوال جوليان هكسلي في كتابه (الإنسان في العالم الحديث).

حقيقة إن النفور من الدين الذي أورثتهم إياه الكنيسة الأوروبية بفظاظتها وحماقاتها له تأثيره الخفي أو الواعي في إشادتهم بتلك الجاهليات الوثنية –مكايدة للكنيسة وإلهها الذي استعبدت باسمه الناس!– وله تأثيره كذلك في التعتيم على فترات الهدى، والتقليل من شأنها، ومحاولة إسقاطها من التاريخ، لذات الهدف وهو مكايدة الكنيسة، ومحاولة الإيهام بأن المعنى الرئيسي الذي كانت الكنيسة تقف من أجله –وهو الدين– أمر لا وزن له في تاريخ البشرية!

كل ذلك حقيقة، وهو يكفي وحده لتفسير مسلكهم في التفسير التاريخي.. ولكن حين تضاف إليه الحقيقة الأخرى الخاصة بتصورهم لحقيقة الإنسان، وهي في تصورهم أهم وآكد، يصبح الأمر واضحا تماما، ولا يصبح شيء مما يقولونه في تأريخهم موضع العجب أو الاستغراب. ويصبح موقف "الطيبين" منا، الذين يعتقدون أن المنهج الغربي منهج "علمي" سليم في أثوله ولكن به "بعض" الانحرافات التي يمكن أن نتلافاها نحن أو نتجاوز عنها.. يصبح هذا الموقف في حاجة إلى تعديل جذري على ضوء هذه الحقيقة وتلك..

* * *

لا بد أن نبدأ من هذه النقطة المبدئية.. ما الإنسان؟

وحين ننطلق من هذه النقطة نقع مع المنهج الغربي في إشكال آخر.. إذ أنه: من أين نستمد معرفتنا بالإنسان؟

يقول المنهج "العلمي" الغربي إنه لا يجوز لنا أن ننطلق من مقررات مسبقة في بحثنا عن أية حقيقة من الحقائق –بما في ذلك حقيقة الإنسان– إنما نبدأ من مشاهدتنا المحسوسة، من تجربتنا "المعملية" من دراستنا الموضوعية"، ثم ننتهي إلى النتائج التي تؤدي بنا إليها هذه التجربة المعملية الموضوعية.

وحين نتعامل مع المادة يكون هذا المنهج صحيحا تماما. ولنذكر أن أوروبا قد تعلمت هذا المنهج أول مرة من المسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي وغيرهما من أماكن العلم. حيث كان المسلمون هم الذين أنشأوا المنهج التجريبي في البحث العلمي أول مرة، بعد إذ كان العلم على يد الإغريق نظريا فلسفيا لا يتجه إلى التجريب.

وحين نتعامل مع الحيوان يكون هذا المنهج صحيحا كذلك.. وذلك لأن المادة والحيوان يستجيبان بصورة واحدة تقريبا في الظروف المتماثلة، بحيث نستطيع أن نستخرج من التجارب المتعددة قانونا نركن إليه في تفسير سلوك المادة وسلوك الحيوان. وإن كان العلم ذاته

هو الذي قرر في الفترة الأخيرة أنه لا حتمية في ذلك القانون حتى مع المادة كما كان العلماء يتوهمون من قبل وهم يتحدثون عن "حتمية القوانين الطبيعية"، وإنما هي احتمالات بعضها أقوى من بعض فالاحتمال (أ) أقوى من الاحتمال (ب) والاحتمال (ب) أقوى من الاحتمال (ج) وهكذا.

وإذا كان قانون الاحتمالات قد أصبح في نظر العلماء هو الأليق في التعامل مع المادة، فهو بالنسبة للحيوان أوجب، لأن الحيوان لا يستجيب بصورة واحدة تماما في كل حالة. وإن كانت دائرة الاختلاف محدودة في النهاية بحدود قريبة، بحيث نستطيع أن نطمئن إلى التجربة المعملية في استنباط القانون الذي يفسر سلوك الحيوان.

أما الإنسان فهو يختلف اختلافا جذريا عن كل من المادة والحيوان. واستمع إلى هذا الرجل الدارويني الملحد وهو يتحدث عن "تفرد الإنسان".

يقول "جوليان هكسلي" في كتاب "الإنسان في العالم الحديث": "وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان مستطيعا تجنب اعتبار نفسه حيوانا، ولكنه بدأ يرى نفسه حيوانا غريبا جدا، وفي حالات كثيرة لا مثيل لها، ولا يزال تحليل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية غير تام.

"وأولى خصائص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحا قدرته على التفكير التصويري، وإذا كانت تفضل استخدام عبارات موضوعية فقل: استخدام الكلام الواضح..

"ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية في الإنسان نتائج كثيرة، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة.

"ومن أهم نتائج تزايد التقاليد –أو إذا شئت– من أهم مظاهره الحقيقية ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات..

"وإن التقاليد والعدد لهي الخصائص التي هيأت للإنسان مركز السيادة بين الكائنات الحية.. وهذه السيادة البيولوجية في الوقت الحاضر خاصية من خواص الإنسان الفذة.. ولم يتكاثر الإنسان فحسب، بل تطور، ومد نفوذه، وزاد من تنوع سبله في الحياة..

"ولقد أدى الكلام والتقاليد والعدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى التي لا مثيل لها بين المخلوقات الأخرى.. ومعظمها واضح معروف. ولذلك أرى عدم التعرض لها حتى أنتهي من التحدث عن الخواص غير المعروفة كثيرا، لأن الجنس البشري –كنوع– فريد في

صفاته البيولوجية الخالصة. ولم تلق تلك الصفات من العناية ما تستحق، سواء من وجهة نظر علم الحيوان، أو من وجهة نظر علم الاجتماع.

".. فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره.

"وإن خاصية الإنسان الجوهرية ككائن حي مسيطر لهي التفكير المعنوي..

"يجب ألا يعزب عن بالنا أن الفرق بين الإنسان والحيوان في العقل أعظم بكثير مما يظن عادة..

".. ولهذه الزيادة في المرونة نتائج أخرى سيكولوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية.

".. وهذه الخواص التي امتاز بها الإنسان –والتي يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوجية– تنشأ من خاصة أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية:

"الأولى: قدرته على التفكير الخاص والعام.

"الثانية: التوحيد النسبي لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان.

"الثالثة: وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والكنيسة (يقصد الجماعة الدينية) وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها.

".. ولكن لا يكفي هنا أن نحصى بعض أوجه النشاط.. ففي الحقيقة أن معظم أوجه نشاط الإنسان وخواصه نتائج ثانوية لخواصه الأصلية. ولذلك فهي مثلها فذة من الناحية البيولوجية.

"ثم إن التخاطب والألعاب المنظمة والتعليم والعمل بأجر وفلاحة البساتين والمسرح والضمير والواجب والخطيئة والذلة والرذيلة والندم، كلها نتائج ثانوية (لخصائصه الأصلية). والصعوبة في الواقع هي إيجاد نشاط للإنسان لا يكون فريدا. بل إن الصفات الأساسية البيولوجية مثل الأكل والنوم والاختلاط الجنسي زينها الإنسان بكل المحسنات الفريدة.

"وقد يكون لتفرد الإنسان نتائج ثانوية أخرى لم تستغل بعد.. وبذلك قد يكون الإنسان فريدا في أحواله أكثر مما نظن الآن.."[1]

فإذا كان هذا هو قول الداروينية الحديثة Neo Darwinism في تفرد الإنسان، فالذين لا يؤمنون بالداروينية أصلا في تفسيرها للإنسان أولى أن يثقوا أن الإنسان كائن متفرد، لا تنطبق عليه قوانين المادة ولا قوانين الحيوان. فكيف نتعرف على حقيقته؟

هل يصلح معه أن نذهب به إلى المعمل بغير مقررات مسبقة ثم ننتظر نتيجة التجربة لنستخرج منها قانونا نفسر به سلوكه وفكره وحياته وتاريخه؟!

إنه لا بد لنا في الحقيقة أن نقف عدة وقفات..

نقف أولاً لنسأل: ما القدر الذي يمكن للمعمل أن يتناوله من حياة الإنسان وفكره وسلوكه؟

يستطيع المعمل –مع شيء من التجاوز– أن يقيس درجة ذكائه، وأن يقيس درجة تحمله للجهد، وأن يقيس معامل التعب عنده، وأن يقيس تأثير التعذيب البدني والنفسي والعصبي في تغيير أفكاره[2] وأن يقيس ردود الفعل العكسية لبعض المؤثرات.. ولكن كيف يقيس المعمل قيمه؟ وأخلاقه؟ وأفكاره المجردة؟ وأشواقه الطليقة من قيود الضرورة؟

وأيهما هو "الإنسان" في حقيقته؟

فلنسلم مبدئيا أن الإنسان هو مجموع هذه وتلك.. ولكن أي الجوانب منه هي التي تشكل الجوهر الإنساني الحقيقي الذي له الثقل في الإنتاج الحضاري الذي تفرد به الإنسان بين جميع الكائنات؟

([1]) ترجمة حسن خطاب، ومراجعة الدكتور عبد الحليم منتصر من منشورات الألف كتاب، وزارة التعليم العالي القاهرة. مقتطفات ص1 إلى ص36.

([2]) هذه الناحية بالذات تهتم بها الأنظمة التي تستخدم الوسائل الوحشية في القضاء على معارضيها (انظر كتاب الحرب النفسية لصلاح نصر).

ونقف ثانيا لنسأل: هل العينة التي نذهب بها إلى المعمل عينة صادقة الدلالة، أي أنها تمثل النوع البشري تمثيلا صحيحا بحيث نستطيع أن نعمم النتائج التي نأخذها منها على النوع كله، ونستنبط منها قوانين صحيحة تفسر سلوك النوع البشري كله؟!

ألسنا بحكم الأمر الواقع نأخذ العينة من جيلنا الذي نعيش فيه؟ فهل هذا الجيل المنتكس المنحرف المليئة حياته بالمشكلات النفسية والعصبية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والخمر والمخدرات والجريمة، الواقع تحت تأثير ألوان الفساد المبثوثة فيه —عمدا أو عن غير عمد– من جنون الجنس وجنون السينما وجنون التليفزيون وجنون الفيديو وجنون الكرة وجنون الأزياء وجنون الزينة، وغيرها وغيرها من ألوان الجنون.. هل هذا الجيل بأوضاعه تلك عينة سليمة من الوجهة العلمية، أي ممثلة للنوع بحيث تصلح لتعميم الأحكام منها على النوع كله؟

فهنا حتى الآن قضيتان: القدر الذي يستطيع المعمل قياسه من الإنسان؛ ثم العينة التي نقدمها للمعمل ودرجة تمثيلها للنوع البشري في جميع أعصاره.

فإذا أضفنا إلى ذلك قضية ثالثة هي تفسير التجربة التي نجريها في المعمل، وهل هو تفسير موضوعي حقيقي أم تفسير شخصي.. إذ لو كان تفسيرا موضوعيا ما جاز أن يختلف فيه مفسر عن مفسر آخر، ولكن الذي نراه في عالم الواقع، أن علم النفس مدارس مختلفة لا مدرسة واحدة. كل مدرسة تقدم تفسيرا مختلفا عن التفسير الآخر..

إذا جمعنا هذه القضايا —وهي ليست كل ما يثار في هذا المجال[1]– فهل يصلح في التعرف على حقيقة الإنسان أن نذهب به إلى المعمل بغير مقررات مسبقة، ثم ننتظر نتيجة التجربة لنستخرج منها قانونا نفسر به سلوكه وفكره وحياته وتاريخه؟!

ولكننا إذا لم نعتمد على المعمل في إعطائنا صورة حقيقية عن الإنسان، ولم نعتمد على النظريات المشبوهة التي تفسر الإنسان عن طريق قوانين المادة أو عن طريق قوانين الحيوان[2] فهل لدينا مصدر آخر يمكن أن نلجأ إليه لإعطائنا هذه الصورة؟

فأما التفسير الإسلامي للتاريخ فيستمد من المصدر الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. من الوحي الرباني.

([1]) أرجو أن تتاح لي فرصة لعرض هذه القضايا على نطاق أوسع في بحث آخر.

([2]) أي التفسير المادي بشقيه الشرقي والغربي.

* * *

إذا رجعنا إلى كتاب الله نستمد منه الحقيقة، نجد حشدا من المعلومات عن الإنسان.

نجد بادئ ذي بدء معلومات عن تكوين الإنسان:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [سورة ص: 71-72].

فأما قبضة الطين فهي الجسد البشري الذي يحتوي على ذات العناصر التي يتكون منها طين الأرض[1]. وأما نفخة الروح فلا نعلم شيئا عن كنهها (كما أننا لا نعلم شيئا عن كنه العناصر الطينية في الحقيقة، وإن كنا نعلم شيئا عن ظاهرها) ولكننا نرى آثارهما واضحة في قبضة الطين. فعن طريقها منح الإنسان كيانه "الإنساني" المتفرد، الذي تميز به عن المادة وعن الحيوان.

عن طريقها اكتسب الإنسان الوعي:

﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة النحل: 78].

وكلمة "الفؤاد" و"القلب" تأتي في القرآن بمعنى العقل، وبمعنى البصيرة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: 46].

وتأتي بمعنى الوعي والفقه:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [سورة الأعراف: 179].

([1]) لم تكن هذه الحقيقة العلمية المعروفة عند الناس وقت نزول القرآن. ولكنها صارت الآن من العلم الشائع الذي يدرسه طلاب المدارس والجامعات.

ومن هذا الوعي عرف أن له طريقين لا طريقا واحدا كالمادة والحيوان، وعرف أن له القدرة على اختيار أحد الطريقين:

﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [سورة الشمس: 7-10].

﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ [سورة البلد: 10].

﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾ [سورة الإنسان: 3].

ومن ثم صارت له حاسة خلقية يميز بها بين الطريقين، وإرادة يختار بها أحد الطريقين. ولو كان ذا طريق واحد كالمادة أو الحيوان، لم يكن للأخلاق معنى بالنسبة إليه. ولو لم تكن له القدرة على التمييز بين الطريقين، والإرادة التي يقرر بها سلوك أحد الطريقين، لم يكن كذلك للأخلاق معنى بالنسبة إليه، وإنما صارت له الحاسة الخلقية، وصارت لأعماله قيمة أخلاقية ملازمة لها من هذا التكوين الفطري الذي فطره الخالق عليه، ولذي يستطيع به أن يميز بين طريقين ويختار أحد الطريقين.

وإلى هنا نلحظ فارقا أساسيا بين التصور الإسلامي للإنسان والتصور الغربي المادي الحيواني، يترتب عليه فارق أساسي في تفسير التاريخ.

فالعنصر الأخلاقي ملازم للإنسان بطبيعة تكوينه، وليس مفروضا عليه من خارج نفسه كما تذهب المذاهب الشاردة عن الله، الشاردة من ثم عن رؤية الحقيقة في الكون والحياة والإنسان.

ولم يكن الدين هو الذي ألزم الإنسان بالأخلاق. إنما الدين يحدد معايير أخلاقية معينة يحدد بها ما هو خير وما هو شر، وهي المعايير الصحيحة لأنها من عند الله اللطيف الخبير، الذي يعلم حقيقة الإنسان الذي خلقه، ويعلم ما يصلحه وما يصلح له:

﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [سورة الملك: 14].

أما الحاسة الخلقية ذاتها، أي التمييز بين طريقين، ووسم أحد الطريقين بأنه خير، ووسم الآخر بأنه شر، فهو من صميم الفطرة الإنسانية، ونتيجة ملازمة لكون الإنسان ذا طريقين لا طريق واحد.

وكل محاولة لإسقاط القيمة الخلقية عن أعمال الإنسان مما تصنعه الجاهلية المعاصرة حين تقول إن السياسة لا علاقة لها بالأخلاق، وإن الاقتصاد لا علاقة له بالأخلاق، وإن العلم لا علاقة له بالأخلاق، وإن الفن لا علاقة له بالأخلاق، وإن علاقات الجنسين لا علاقة لها بالأخلاق.. كل محاولة من هذا النوع هي اتجاه غير علمي لأنه يخالف أصل الفطرة، فضلا عن آثاره المدمرة في الحياة الإنسانية، التي نلحظها بوضوح في الجاهلية المعاصرة.

نعم تبقى قضية أخرى متصلة بالأخلاق هي قضية الثبات والتغير. وقد أفردنا فصلا في البحث لهذه القضية. ولكننا نشير هنا إشارة سريعة إلى النقطة الرئيسية في القضية وهي أن الذي يتغير من حياة الإنسان هو الأشكال التي يمارس بها دوافعه الأصيلة، وليست الدوافع في ذاتها. والأخلاق متعلقة بأصل الدوافع، ومن ثم لا تتغير في جوهرها. فالعدوان على الآخرين وسلبهم حقوقهم ظلم لا يتبدل جوهره مهما تبدلت صوره، وهو شر في جميع أحواله، ومن ثم يكون الإقطاع ظلما، والرأسمالية ظلما، والشيوعية ظلماً لأن كلا منها يمارس لونا من العدوان على حقوق الآخرين، وتكون كلها شرا في جميع أحوالها لا في حالة دون حالة. والعدوان على الأعراض ظلم، وهو شر في جميع أحواله، ومن ثم تكون الفوضى الأخلاقية شرا في جميع أحوالها لا في حالة دون حالة. وإفساد أخلاق المجتمع، ينشر التفاهة والانحلال فيه، وجعله يركن إلى لذائذ الدنيا وينسى الآخرة، ويقعد عن الجهاد في سبيل إحقاق الحق ورفع الظلم عن المظلومين شر في جميع أحواله، سواء تولاه أفراد معينون عن طريق مباشر، أو تولته الدولة بوسائل إعلامها المختلفة.. وهكذا.. وهكذا.. وهكذا في جميع الأمور.

والذي يقرر ما هو الظلم وما هو العدل، وما هو الخير، وما هو الشر، هو الله سبحانه وتعالى، وليس أهواء البشر. فالبشر حيثما حكموا بغير الرجوع إلى الهدى الرباني كانت لهم أهواء يحكمونها بوعي منهم أو بغير وعي. وحسبنا هنا شهادة التفسير المادي للتاريخ نأخذها لأنها صحيحة في ذاتها[1] ولأنها شهادة شاهد من أهلها، حيث يقول ذلك التفسير: إن الذي يملك هو الذي يحكم، وحين يحكم فإنه يحكم لصالح نفسه (أو لصالح طبقته) فيظلم

(1) قلنا في كتاب "مذاهب فكرية معاصرة" إن قولنا إن التفسير المادي للتاريخ قائم على قاعدة خاطئة ليس معناه أن كل محتوياته خاطئة، ولا معناه أنه لا يفسر شيئا على الإطلاق من الحياة البشرية، فهو يفسر نطاق الضرورة في الحياة البشرية ويفسر كثيرا من أمور الناس في جاهليتهم، ولكنه يعجز عن تفسير فترات الهدى عجزا كاملا، وكذلك يعجز عن تفسير ما فوق نطاق الضرورة حتى في الجاهليات ذاتها؛ راجع ص385-391 من كتاب "مذاهب فكرية".

الآخرين. وهو أمر متكرر في التاريخ حيثما كان التشريع في أيدي البشر، ولم يكن البشر خاضعين لشرع الله.

* * *

ونعود إلى "الإنسان" في التصور الإسلامي.

إن النفخة العلوية من روح الله قد منحته كيانا روحيا متلبسا بالكيان الجسدي. ومن ثم فإنه كيان مادي روحي في ذات الوقت. لا يكون في أية لحظة من لحظاته جسدا خالصا ولا روحا خالصة، ويفترق بذلك افتراقا حاسما واضحا عن عالم الحيوان وعن عالم الملائكة. فلا هو جسد محكوم بغرائزه مثل الحيوان، ولا هو روح نورانية شفيفة مثل الملك. وإن كان يهبط إلى مستوى الحيوان أحيانا حين يضل، وعندئذ يكون أضل من الحيوان:

﴿**أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ [سورة الأعراف: 179].

ويرتفع إلى مستوى الملك أحياناً حين يسمو بروحه إلى أعلى آفاقه، وعندئذ يكون —في رأي بعض العلماء– أفضل من الملك، لأنه يطيع بإرادته ويغالب طبيعته، بينما الملك مفطور على العبادة والطاعة:

﴿**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ**﴾ [سورة الأنبياء: 20].

﴿**لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [سورة التحريم: 6].

وقد نشأ عن تكوينه بهذه الصورة ألا تنفصل مادياته عن روحانياته، ولا حسياته عن معنوياته. وألا يكون خضوعه لضروراته قهرا على طريقة الحيوان، وإنما يكون له دائما قدر من الإرادة في تكييف استجابته للضغوط الواقعة عليه.

وتلك نقطة ثانية يفترق فيها التفسير الإسلامي للتاريخ عن التفسير المادي بكل من شقيه، الشرقي والغربي، ويقع الاختلاف في عدد من المجالات في وقت واحد:

المجال الأول: أن التفسير الإسلامي للتاريخ يرفض رفضا مبدئيا مبدأ الحتميات، سواء الحتمية التاريخية أو الحتمية المادية أو الحتمية الاقتصادية. ويعتبر ذلك المبدأ زراية حادة بالإنسان، الذي كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [سورة الإسراء: 70].

فالمقتضى المباشر لمبدأ الحتمية هو إلغاء إيجابية الإنسان وفاعليته، وجعله آلة تاريخية لتنفيذ قدر خارج عن إرادته، لا قبل له بتغييره أو الوقوف في طريقه.

والحتمية الوحيدة في التفسير الإسلامي هي حتمية قدر الله ومشيئته. ولكن هذه الحتمية لا تلغي إيجابية الإنسان وفاعليته، إنما هي حتمية النتائج حين توجد الأسباب. أما الأسباب فهي مجال الاختيار البشري ومجال الابتلاء، لأنه هكذا اقتضت المشيئة الإلهية: أن يكون الإنسان ذا حرية في نطاق معين، يختار فيه موقفه، ويتحمل النتائج المترتبة على هذا الاختيار، في الدنيا والآخرة سواء[1].

والمجال الثاني: أن التفسير الإسلامي للتاريخ يرفض رفضا مبدئيا أن يكون تاريخ الإنسان هو تاريخ ضروراته فحسب، أي في الحقيقة تاريخ خضوعه للضرورات، وهو لب التفسير المادي للتاريخ، الذي يعطي الأوضاع المادية والاقتصادية، وهو لب التفسير المادي للتاريخ، الذي يعطي الأوضاع المادية والاقتصادية قوة القهر من ناحية، ومن ناحية أخرى يجعل الأفكار والعقائد والمؤسسات والقيم كلها انعكاسا للأوضاع المادية والاقتصادية لا تسبقها، ولا تتأخر عنها، ولا تخرج عن محتواها.

بينما يعتبر التفسير الإسلامي أن كل الإنتاج الذي قام به الإنسان في تاريخه، سواء الإنتاج المادي، أو الفكري، أو الروحي، أو الفني، أو الأخلاقي، هو تعبير عن عنصر أصيل في الكيان الإنساني، له أصالته الذاتية بصرف النظر عن اشتباكه بغيره من العناصر الأصيلة في ذلك الكيان، والتشابك لا ينفي الأصالة، ولا يجعل شيئاً بالضرورة انعكاساً لشيء آخر.

إن الرغبة الجنسية أصيلة في كيان الإنسان، وهي في ذات الوقت مشتبكة –عند الممارسة الواقعية– بأمور اجتماعية، وأمور اقتصادية، وأمور جمالية، وأمور تشريعية، وأمور... وأمور...

ماذا لو قلنا إن الرغبة الجنسية مسألة اقتصادية؟! هل نكون عقلاء؟!

([1]) سنتكلم عن هذه النقطة في فصل تال.

وحين نقول إن الرغبة الجنسية عنصر أصيل في الكيان الإنساني، قائم بذاته، وليس انعكاسا لأي عنصر آخر في ذلك الكيان، فهل ينفي ذلك أنه في صورته التطبيقية مشتبك بالأمور الاجتماعية، والاقتصادية، والجمالية، والاعتقادية، وأنه لا يأخذ صورته التطبيقية إلا من خلال هذه الاشتباكات؟!

إن القضية فيما أحسب واضحة تماما، لا تحتاج إلى كل مماحكات التفسير المادي للتاريخ! فهذا التشابك أمر واقع وملحوظ، وهو هو مزية ذلك المخلوق المتفرد، الناشئة من تكوينه الأصيل من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله مترابطتين متشابكتين لا تنفصل إحداهما عن الأخرى ولا تستقل عنها.

وحين يقتضي الإنسان دافع الجنس –مثلا– في صورته "البيولوجية" (الحيوية) البحتة، غير مشتبك في حسه بأية قضية اجتماعية ولا فكرية ولا وجدانية ولا جمالية ولااعتقادية ولا تشريعية –إن أمكن هذا أصلا[1]– يكون قد تخلى عن إنسانيته تماما، وصار حيوانا بحتا، وصار عندئذ أضل من الحيوان، لأن الحيوان يقوم بما يقوم به من عمل على هدى غريزته، وهي مهتدية من عند خالقها:

﴿**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ [سورة طه: 50].

فهو لا يعطل شيئاً من كيانه. أما الإنسان الذي أعطى وسيلة هداه على نسق أعلى من الحيوان ثم يعطلها، ويعمل على مستوى الغريزة فهو يشبه الحيوان في صورة العمل، ولكنه أضل منه في الحقيقة، لأنه عطل وسيلة الهدى التي منحه الله إياها.

تلك هي القضية التي يتجاهلها التفسير المادي للتاريخ حين يأخذ التشابك –الذي هو مزية الإنسان على الحيوان– وسيلة لهدم قيم أصيلة في الكيان البشري، وجعلها أمورا تابعة لغيرها، ومجرد انعكاس لها. ثم يرتكب ذلك التفسير خطيئة أخرى حين يجعل المادة أو الأوضاع الاقتصادية هي الأصل الوحيد الثابت، وجميع الأمور الأخرى –على إطلاقها– مجرد انعكاس للأوضاع المادية والاقتصادية.

([1]) يقول الأولاد والبنات في غرب أوروبا وأمريكا إن الجنس مسألة بيولوجية لا علاقة لها بالأخلاق! وهذا انتكاس فكري جاهلي يقع فيه هذا الجيل.. ومع ذلك فإن ممارستهم للجنس لا يمكن أن تكون بيولوجية بحتة، إنما هي متشربة بهذا "الفكر" وإن كان فكرا منتكسا غير إنساني!

فخطيئته الأولى علمية، لأنها تقصير في الرؤية العلمية للكيان الإنساني، بتفسير التشابك القائم بين عناصره تفسيرا يلغي أصالتها لمجرد أنها لا تأخذ صورتها التطبيقية إلا من خلال تشابكها بعضها ببعض (وقد رأينا قصور تلك الرؤية في مثال الجنس الذي ضربناه للتوضيح).

والخطيئة الثانية تحكمية. لأنها اختيار تحكمي لعنصر معين من بين عناصر التكوين الإنساني –الأصيلة كلها على مستوى واحد من الأصالة– والزعم بأنه هو وحده الأصيل والباقي كله تبع له، بغير دليل حقيقي. وهو تحكم لا يقل تهافتا ولا بعدا عن التدليل الصحيح عن التحكم الذي قام به فرويد حين زعم بأن الجنس وحده هو العنصر الأصيل في الكيان الإنساني وبقية الأمور كلها تبع له!

والتفسير الإسلامي للتاريخ لا ينفي أصالة العنصر المادي والاقتصادي في حياة الناس، أفرادا وأمما وجماعات، وأنه عنصر تقوم عليه حياة الناس:

(وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً) [سورة النساء: 5].

أي التي تقوم حياتكم عليها.

ولكنه لا يقول كما يقول التفسير المادي إنه هو العنصر الوحيد الذي تقوم الحياة البشرية عليه.

فالإيمان بالله واليوم الآخر عنصر تقوم الحياة البشرية عليه:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) [سورة الحديد: 25].

والزواج والأسرة عنصر تقوم الحياة البشرية عليه:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) [سورة الروم: 21].

والجمال عنصر تقوم الحياة البشرية عليه:

﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [سورة النحل: 5-6].

وهكذا كل مكونات النفس الإنسانية والحياة البشرية، كلها أصيلة على مستوى واحد من الأصالة، وكلها متشابكة لا تأخذ إحداها صورتها التطبيقية إلا من خلال تشابكها بالمكونات الأخرى، دون أن يقدح هذا في أصالتها.

من هنا يقرر التفسير الإسلامي أن تاريخ الإنسان هو تسجيل لمحاولة الإنسان أن يحقق كيانه كله، بكل مقوماته وكل مكوناته، سواء منها توجهه إلى خالقه بالعبادة (أي قضية الدين) أو توجهه إلى إقامة مجتمع فاضل (أي قضية الأخلاق والقيم) أو توجهه للتعرف على الكون المادي (أي قضية العلم) أو توجهه لاستثمار معرفته في تحسين أحواله المعيشية وترقيتها (أي قضية الحضارة المادية وعمارة الأرض) أو توجهه نحو الكون والحياة بالحس الجمالي (أي قضية الفن) أو توجهه بفكره لمعرفة السنن التي تسيّر الحياة البشرية ومحاولة استخراج دلالاتها (أي قضية الفكر)..

كلها توجهات أصيلة، صادرة صدورا مباشرا عن الكيان الإنساني الشامل المترابط، وليس أحدها انعكاسا لغيره من توجهات ذلك الكيان، وإن كانت كلها تتأثر ببعضها البعض ويؤثر بعضها في بعض، بدرجات مختلفة، تعتمد على مساحة الدافع في النفس، ونوعية الفرد أو الجماعة أو الجيل موضع الدراسة، والظروف المادية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي تواجهه، مما يوجد الاختلاف بين فرد وفرد، وجماعة وجماعة، وجيل وجيل..

وهنا قد يبدو أن التفسير الليبرالي يقترب من التفسير الإسلامي، لأنه يعطي اعتباراً لهذا المعنى أكبر مما يعطي التفسير المادي الشرقي للمعنى ذاته، إذ يحصر هذا الأخير اهتمامه في الجانب المادي والاقتصادي ويجعله هو الأصيل وحده، وبقية الدوافع والإنجازات تبعا له.

ولكن الحقيقة أن الاختلاف عميق الجذور بين التفسير الإسلامي والتفسير الليبرالي كما هو عميق الجذور بينه وبين التفسير المادي الشرقي.. فمع أن التفسير الليبرالي أفسح صدرا بدوافع الإنسان في مجموعها وأكثر اعترافا بأصالتها الذاتية، إلا أن المساحة التي يعطيها للعنصر الديني والعنصر الأخلاقي في الإنجاز البشري أضأل بكثير من حقيقتها -وخاصة بالنسبة لفترات الهدى التي يهملها هذا التفسير إهمالا مقصودا كما أشرنا من قبل- ثم إن التقويم الأخلاقي لتاريخ الإنسان منعدم فيه أو شبه منعدم، تأثرا بالضلالتين المتناقضتين اللتين يصدر عنهما هذا التفسير، وهما نظرته إلى الإنسان مرة بعين الداروينية التي تراه حيوانا متطورا

ولا زيادة، ونظرته إليه مرة بعين الإنجاز العلمي والتكنولوجي على أنه إله لا يسأل عما يفعل، ولا يحاسب على تصرفاته! وفي الحالين يسقط الميزان الأخلاقي من الحساب. وذلك فضلا عن نظرته إلى الدين على أنه عنصر "تاريخي" أدى مهمته في حياة الإنسان في فترة من فترات تاريخه الماضية واستنفد اليوم أغراضه، ونظرته إلى الأخلاق على أنها قيم متغيرة، لا قداسة لها ولا ثبات! وهما أمران يشترك فيهما التفسير المادي الليبرالي والتفسير المادي الشرقي بلا افتراق!

والمجال الثالث: أن الإنسان إذ يتحرك بمجموعه في واقع الأرض، فلا يمكن في الحقيقة فصل دافع من دوافعه عن دافع آخر، والحديث عنه كأنه كان يتحرك في التاريخ قائما بذاته غير متشابك مع غيره من الدوافع.

وتلك قضية أخرى مختلفة عن القضية التي تحدثنا عنها في المجال السابق وإن كانت متداخلة معها، فهناك كنا نركز على شمول الكيان البشري لعدة دوافع كلها أصيلة على ذات الدرجة من الأصالة وإن اختلفت مساحاتها بعضها عن بعض. وهنا نركز على تشابك تلك الدوافع بحيث يستحيل أن يعمل أحدها مستقلاً عن بقية الدوافع، على الرفم من أصالة كل منها على حدة.

وأهمية هذه القضية تتضح حين نرى التفسير الليبرالي بصفة خاصة يتحدث عن "الحياة الفنية" لأمة من الأمم كأنها شيء قائم بذاته، وعن "المنجزات الحربية" كأنها شيء قائم بذاته، وعن "المنجزات الحضارية" كأنها شيء قائم بذاته، وعن "العادات والتقاليد" كأنها شيء قائم بذاته، لكل منها مقياسه الخاص الذي لا يدخل فيه اعتبار لشيء غيره، على أساس أن "الفن للفن" و "الحياة للحياة" و"الغلبة للغلبة" و"العلم للعلم".. إلى آخر تلك الشعارات الجاهلية المجافية لحقيقة الواقع الإنساني المتشابك المترابط، الذي لا يوجد فيه جانب يعمل مستقلا عن بقية الجوانب!

والحقيقة التي يراها التفسير الإسلامي أن هناك وحدة تشمل هذا كله في المنبع وفي المصب. في المنبع عند صدورها من النفس البشرية المتشابكة المترابطة بطبيعة تكوينها، وفي المصب عند تأثيرها في المجتمع البشري تأثيراً متجمعاً متشابكاً وإن جاءت التأثيرات فرادى في ظاهر الأمر.

فالموقف الفني لفرد أو لأمة لا يمكن فصله –مثلا– عن الموقف الاعتقادي ولا الموقف الأخلاقي، فضلا عن التأثيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمادية التي تؤثر بوعي أو بغير وعي في الفرد أو الأمة صاحبة الإنتاج الفني.

ولقد تقول الجاهلية المعاصرة –من بين ما تقول– إن "الفن للفن" لا علاقة له بالدين ولا علاقة له بالأخلاق، إنما يقاس بمقياس الإبداع الفني وحده.

ولكن الجاهلية المعاصرة تنسى –وهي تقول ذلك– أن هذا نفسه "موقف" معين من الدين والأخلاق، لا علاقة له بمقاييس الإبداع الفني الخالصة! موقف يبعد الدين ويبعد الأخلاق عمدا عن أن يحكما واقع الحياة! وأن الفن الذي تنتجه هذه الجاهلية هو التعبير عن هذا الموقف الاعتقادي والأخلاقي، وإن زعمت –أو توهمت– أنها في لحظة الفن تنقطع عن كل اعتبار آخر!

كذلك النشاط الاقتصادي الذي تزعم الجاهلية المعاصرة أنه قائم بذاته، ولا دخل فيه للدين ولا الأخلاق! إنه تعبير عن ذات الموقف الذي يبعد الدين والأخلاق عن عمد عن أن يحكما واقع الحياة، وليس استقلالا حقيقيا للنشاط الاقتصادي عن الدين والأخلاق و"الموقف" الإنساني عامة.

فكون الرأسمالية تسعى للربح أولا وقبل كل شيء، وتتخذ كل الوسائل التي تحقق لها الربح بصرف النظر عن كونها حلالا أو حراما.. خيرا أم شرا.. فتتخذ الربا والاحتكار، والافتئات على حقوق العامل الأجير، وتلجأ إلى الاستعمار، وتنشر الترف في المجتمع، وتستخدم وسائل الإعلام والإعلان التي تملكها وتسيطر عليها لترويج بضائعها التافهة التي تجني من ورائها الربح الأكبر كأدوات الزينة وما شابهها.. كل ذلك صحيح. ولكنه ليس قانوناً اقتصاديا قائما بذاته كما تزعم –أو تتوهم– الجاهلية المعاصرة. إنما هو "موقف" معين من الحياة والقيم والدين والأخلاق واليوم الآخر يقفه الإنسان دائما حين يبتعد عن الله ويستحب الحياة الدنيا على الآخرة:

﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ، وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**﴾ [سورة العاديات: 6-8].

﴿**كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ، وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ**﴾ [سورة القيامة: 20-21].

﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾ [سورة العلق: 6-7].

وهو هو الموقف –من حيث الجوهر– الذي وقفه الإنسان الجاهلي من قبل في عصر الرق وعصر الإقطاع. لم يتغير منه إلا الصور المستحدثة لحب الخير، والصور المناسبة لها من الطغيان.

ويتغير هذا كله حين يتغير موقف الإنسان من الله واليوم الآخر، فتتغير قيم الناس ونظرتهم إلى الأمور، وينشئون اقتصاداً آخر يقوم على قاعدة أخرى مختلفة.

فليست الرأسمالية إذن قانونا اقتصاديا ولا حالة اقتصادية قائمة بذاتها، تفسر بمقاييس اقتصادية مستقلة، إنما هي موقف إنساني، يفسر من داخل النفس الإنسانية، ويوزن بالموازين الإنسانية الشاملة التي يمكن تلخيصها في قوله تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [سورة الشمس: 7-10].

وقوله تعالى:

﴿وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر: 1-3].

أما التفسير المفكك الذي يقدمه التفسير الليبرالي للنشاط الإنساني فهو يعطي نتائجه الخاطئة في عرض التاريخ، ليس فقط في إسقاط العنصر الأخلاقي من ذلك العرض، وتبرير مظالم الجاهليات التاريخية وآثامها على أساس المقاييس الذاتية لكل شيء على حدته، وعلى أساس "الغلبة من أجل الغلبة" و"الإمبراطورية من أجل الإمبراطورية" مثلما أنه "الفن من أجل الفن"، و"الحياة من أجل الحياة"! إنما يبدو الخطأ كذلك في تفكيك الحياة البشرية وإخلائها من مضمون حقيقي شامل يبدو الخطأ كذلك في تفكيك الحياة البشرية وإخلائها من مضمون حقيقي شامل مترابط، كأنه لا فرق بين حياة الإنسان وحياة السائمة التي تقوم بنشاط حياتها جرعة إثر جرعة بغير ترابط: مرة تجري ومرة تقف، مرة تأكل ومرة تنسل، مرة تموت حتف أنفها ومرة تقع من شاهق فتهلك.. ولا فرق في النهاية بين هذا وذاك!

ويفقد التاريخ من ثم دلالاته.. ويكون أقصى "رؤيته" أن تكون هناك قوانين تحكم الحياة البشرية، ولكنها قوانين آلية أو كالآلية.. طفولة ففتوة فشباب فكهولة فشيخوخة ففناء[1].. والبشر مجرد آلات في يد القدر التاريخي:

(1) هذه نظرية توينبي، وقد تأثر فيها تأثرا واضحا بكلام ابن خلدون في "المقدمة" ولكن ابن خلدون كان يتكلم عن "الشعب" العربي بصفة خاصة ولم يتكلم عن "أمة" العقيدة. وتوينبي لا يفرق في "قانونه" بين

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [سورة الجاثية: 24].

في هذه النقطة بالذات يبدو التفسير المادي (الجدلي) مختلفا اختلافا أساسيا عن التفسير الليبرالي في أنه يعطي "مضمونا" لحركة التاريخ، ويعطي تفسيراً كليا مترابطا للنشاط البشري، ولا يتناوله تفاريق متناثرة خالية من المعنى، تتكرر على ذات النمط، أو على نمط مختلف، بغير ضابط واضح محدد.

ولكنه –مع إعطائه مضمونا للتاريخ، وتفسيرا كليا للنشاط البشري، مما يتميز به التفسير الإسلامي للتاريخ– يظل أبعد شيء عن التفسير الإسلامي بسبب المحور الرئيسي الذي يدير حوله حركة التاريخ.

إنه تفسير شامل نعم، ولكن كأنما هو تفسير لحركة كائن آخر غير الإنسان الذي خلقه الله! كائن ممسوخ، مسلوب الإرادة، محصور في نطاق ضروراته، تحركه يد جبارة لا ترحم، لا تستجيب لدعائه، ولا تترفق بضعفه، ولا تلتفت أصلا إلى وجوده، إنما تدير الوجود البشري كله من خلال حتميات تاريخية قاسية، تنقله من ظلم إلى ظلم، ومن عبودية ذليلة إلى عبودية.. لا يعتدل مرة ولا يستقيم ولا يلتقط أنفاسه من اللهاث![1]

التفسير الإسلامي هو الذي يعطي الصورة الصحيحة لحركة الإنسان كما هي في واقعها، والإنسان كما خلقه الله.

فهو أولا يأخذ الإنسان كله، بكل مكوناته، ويأخذه شاملا مترابطا لا مزقا وتفاريق كما يفعل التفسير المادي الليبرالي. وفي الوقت ذاته لا يفسر تفسيرا تحكميا من خلال عنصر واحد من عناصره كما يفعل التفسير المادي الجدلي. كما أنه لا يقتطع حياته الدنيا وحدها

أمة العقيدة وغيرها من الأمم. وفي ظننا أن أمة العقيدة لها وضع خاص. وسنشير إلى ذلك في فصل تال من فصول الكتاب.

([1]) يقول التفسير المادي إن الإنسان قد اعتدل مرتين اثنين في حياته: المرة الأولى في الشيوعية البدائية التي مضت إلى غير رجعة، والثانية في الشيوعية الثانية والأخيرة. وقد ناقشت تلك المزاعم مناقشة مستفيضة في كتاب "مذاهب فكرية معاصرة". والواقع المشهود أن الناس كانوا في الشيوعية الثانية أشد لهاثا منهم في أية جاهلية مضت!

فيضع لها تفسيرا مبتوت الصلة بالمنشأ والمصير، كما يفعل التفسير المادي بشقيه الليبرالي والجدلي.

يأخذه كائنا متعدد الجوانب، مترابط الكيان في ذات الوقت، يتحرك بمجموع كيانه في واقع الأرض، فينشأ من مجموع حركته تاريخ.. لا هو تاريخ مادي فحسب، ولا روحاني فحسب، ولا فكري أو علمي أو فني أو سياسي أو حربي أو اجتماعي فحسب، بل كل ذلك في وقت واحد، على أصالة في كل جانب من هدة الجوانب، وترابط وتشابك في ذات الوقت.

ويأخذ حياته الدنيا غير منقطة عن المنشأ والمصير.

فهي موصولة بخلق الإنسان الأول من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله، متأثرة بهذه النشأة التاريخية في كل جزئية من جزئياتها، وموصولة في ذات الوقت بالمصير الذي تئولا إليه في الآخرة، المترتب على كل جزئية من جزئياتها الحاضرة:

(**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**) [سورة طه: 55].

(**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**) [سورة المؤمنون: 115].

(**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**) [سورة الزلزلة: 7-8].

ثم هو تاريخ لا يجري بلا نظام. إنما تنظمه سنن ربانية جارية، سواء كان تاريخ فرد أو جماعة أو أمة أو دولة أو نظام... ومن ثم يحمل معه في كل خطوة دلالاته، كما يحمل معاييره[1].

ثم هو يجري بقدر:

(**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**) [سورة القمر: 49].

(**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**) [سورة الرعد: 8].

([1]) أفردنا في البحث فصلا للحديث عن السنن الربانية في الحياة البشرية.

ولكنه قدر إله رحيم، يستجيب للناس إذا دعوه، ويصوغ لهم حياتهم برحمته وحكمته:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [سورة البقرة: 186].

وسنته لا تحابي أحدا ولا تتبدل ولا تتحول:

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [سورة فاطر: 43].

ولكنها تجري من خلال أعمال البشر وبحسبها، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وهكذا يكون الإنسان –من داخل قدر الله– هو الذي يقرر لنفسه حركته التاريخية، كما يقرر لنفسه مصيره في الآخرة، لا تقريرا منقطعا عن قدر الله كما يتوهم التفسير المادي الليبرالي، ولا مسلوب الإرادة أمام الحتميات كما يتوهم التفسير المادي الجدلي.

وهذا أعلى وضع للإنسان، وأشمل تفسير لوجوده يقدمه أي تفسير للتاريخ.

* * *

ومن كتاب الله نتعرف على غاية الوجود الإنساني، والمهمة التي أخرج من أجلها إلى الوجود.

فنجد أولا أن الله قد خلقه ليكون خليفة في الأرض:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: 30].

ونجد أنه خلقه لعبادته:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: 56].

ونجد أنه خلقه ليبتليه:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [سورة الإنسان: 2].

وهذه الأمور الثلاثة ليست متعارضة فيقع فيها التناقض، إنما هو تفسير لغاية الوجود الإنساني من جوانب مختلفة، كل جانب يفسر الآخر ويحدد صورته.

فالخلافة في الأرض أيا يكن اختلاف المفسرين حولها، هل هي خلافة عن الله أم خلافة لأجناس أخرى كانت تعمر الأرض وخلفها الإنسان..[1]

هذه الخلافة تتضمن معنى التمكين في الأرض، والسيطرة عليها، والهيمنة على ما فيها، والقدرة على التصرف في أمورها، كما تتضمن كذلك عمارتها:

(هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) [سورة هود: 61].

فالإنسان قد خلق إذن ليكون سيد هذه الأرض، الحاكم فيها بإذن الله ومشيئته.

والإنسان قد خلق في الوقت ذاته ليعبد الله، ولم يخلق لشيء آخر غير العبادة، بدليل النفي والاستثناء في آية الذاريات:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [سورة الذاريات: 56].

ومقتضى ذلك أن تكون الخلافة في الأرض- المتضمنة عمارتها والتصرف في شئونها- داخلة في العبادة التي خلق الإنسان من أجلها، ويكون المقتضى كذلك أن الإنسان في هيمنته على الأرض والتصرف في شئونها لا يحق له أن يتصرف فيها بهواه، إنما عليه أن يلتزم بما أنزل الله الذي استخلفه في الأرض، ذلك أنه لا يكون عابدا لله إلا بطاعته فيما يأمر به[2].

ثم إن الإنسان خلق ليبتلى.. وهذا هو الوجه الثالث من القضية..

([1]) يرى ابن تيمية رحمه الله أن الخلافة عن الله لا تجوز لأن الله حي لا يموت، والخلافة لا تكون إلا عن ميت، ويرى فريق من المفسرين أن الخلافة عن الله جائزة بمعنى آخر. روى ابن كثير في تفسيره (110/1) عن ابن جرير قوله: فكان تأويل الآية على هذا: إني جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بين خلقي، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه. (انظر بحثا في هذه القضية للدكتور أحمد حسن فرحات بعنوان "الخلافة في الأرض" دار الأرقم بالكويت 1406هـ، - 1986م.

([2]) اقرأ –إن شئت "مفهوم العبادة" من كتاب "مفاهيم ينبغي أن تصحح".

فهو مخلوق لعبادة الله.. والعبادة المطلوبة تشمل عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني. وهذا ذاته هو موضوع الابتلاء في حياته. فإنه في أثناء عمارته للأرض يجد فيها من المتاع ما يجذب حواسه ويثير دوافعه:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [سورة آل عمران: 14].

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) [سورة الكهف: 7].

ونقطة الابتلاء –أي الاختبار– التي يتعرض لها هي موقفه من هذا المتاع الذي يبرز له في أثناء قيامه بعمارة الأرض: هل يلتزم فيه بما أنزل الله، وعندئذ يكون قائما بالعبادة كما أمره الله، وتتم عمارة الأرض على الوجه المطلوب، وتتحقق الخلافة على وجهها الصحيح؟ أم يغريه المتاع فيتجاوز حدود الله، وعندئذ يخرج الإنسان من دائرة العبادة التي خلق من أجلها، ولا تتم عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني، ولا يكون الإنسان قد قام بالخلافة على وجهها؟

هذه قصة الإنسان على الأرض.. منذ أبي البشر آدم إلى أن تقوم الساعة..

وهي كذلك قضية التاريخ.

فالتاريخ هو تسجيل أعمال "الإنسان" في الأرض موزونة بالميزان الذي يبين ما فيها من خطأ وصواب، وزيف وأصالة، وهبوط ورفعة، وانحراف واستقامة.

والمعيار الذي توزن به تلك الأعمال لا يصنعه الإنسان من عند نفسه حسب هواه، إنما يحكمه قدره الذي قدره الله له بحكمته:

(بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ، وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) [سورة المؤمنون: 70-71].

المعيار هو مدى تمشي هذه الأعمال أو عدم تمشيها مع غاية الوجود الإنساني، والهدف من خلقه:

الخلافة. العبادة. عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني. الالتزام بما أنزل الله.. وقد نلاحظ أن هذا هو الميزان ذاته الذي توزن به أعمال الإنسان في الآخرة.

ولا غرابة في ذلك ما دامت الدنيا موصولة بالآخرة، وما دام الجزاء في الآخرة يترتب على أعمال الإنسان في الحياة الدنيا.. بل الغريب أن يكون للدنيا مقياس وللآخرة مقياس! كيف يكون ذلك والإنسان هو الإنسان؟! هو بذاته الذي يعيش في الحياة الدنيا، وهو بذاته الذي يحاسب في الآخرة، ويحاسب على ذات الأعمال التي يقوم بها في الحياة الدنيا؟ كيف يكون العمل الواحد حلالا مرة وحراما مرة، حسنا مرة وقبيحا مرة، مستقيما مرة ومنحرفا مرة؟

إنما يقول ذلك الذين لا يؤمنون بالآخرة، فيحكمون بأهوائهم بغير حق، ويضلون عن السبيل:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ، وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ، أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ، كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص: 26-29].

* * *

وخلاصة الأمر أن التفسير الإسلامي للتاريخ يلتزم المنهج الرباني في الحكم على أعمال البشر في الأرض، فلا يبرر الأشياء بموجب الأمر الواقع كما يفعل التفسير الليبرالي على أساس حيوانية الإنسان من جهة، وألوهيته من جهة أخرى! وكما يفعل التفسير الجدلي على أساس أن ما وقع بالفعل لم يكن يمكن أن يحدث غيره بموجب الحتميات التي تحكم حياة البشر على الأرض.

كذلك فإن التفسير الإسلامي لا يقدم التاريخ بلا ميزان يتبين به الصواب والخطأ، والاستقامة والانحراف في مسيرة الإنسان في الأرض، لأن هذا يخلي التاريخ من مضمونه الحقيقي، ويخليه من العبرة الكامنة فيه، والتي من أجلها كان التوجيه الرباني للسير في الأرض، والنظر في أحوال الغابرين:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة آل عمران: 137].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون، فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ، فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [سورة غافر: 82-85].

* * *

أمر آخر لا بد من الإشارة إليه في هذه الخلاصة..

إن التاريخ –أياً كان التفسير الذي يقدم به: الإسلامي، أو الليبرالي، أو الجدلي–لا يدرس الوجود الإنساني في الأرض في الحقيقة مجردا عن القدر الذي يحكم ذلك الوجود، فهناك دائماً معادلة ما بين "الإنسان" ومشيئة "الإله" الذي خلق الكون والحياة والإنسان، سواء وعاها المؤرخ الذي يكتب التاريخ أم كانت في تفكيره الباطل على غير وعي منه.

فأما في التفسير الجدلي فهي واعية تماما وإن لم يصرح المؤرخ بأن هناك إلها يحكم الكون والحياة والإنسان، فهو يقول بفمه: لا إله، والكون مادة، كما ينص الدستور الشيوعي. ولكنه يجعل المادة أزلية أبدية، فيضفي عليها صفة من صفات الألوهية، ثم يجعلها متطورة، ويجعل الحياة واحدا من منتجات تطورها فيجعلها بصورة من الصور خالقة، ثم يجعل الإنسان هو أعلى صور تطور المادة، ولكنه يخضعه في ذات الوقت لقوانين المادة. فتكون المادة في تصوره هي الخالق وهي الإله المتحكم، وهي التي ترسم للإنسان قدره على الأرض، المتمثل في الحتمية التاريخية والحتمية المادية والاقتصادية.

وأما التفسير الليبرالي فقد لا يبدو لأول وهلة أنه يؤله شيئا، أو يخضع الإنسان لقدر من أي نوع. والحقيقة ليست كذلك.

إن الجاهلية المعاصرة في الغرب هي وريثة الجاهلية الرومانية والجاهلية الإغريقية الوثنيتين، وقد ورثت عنهما فيما ورثت الصراع بين البشر و"الآلهة" الذي تمثله أسطورة بروميثيوس سارق النار المقدسة.

تزعم الأسطورة –وهي إغريقية– أن "زيوس" إله الآلهة (أو رب الأرباب) خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض، وسواه على النار المقدسة (التي ترمز إلى المعرفة)[1] ثم أهبطه إلى الأرض وحيدا يعيش في ظلام دامس (رمزا للجهل الذي عليه الإنسان الأول) فأشفق عليه كائن أسطوري يسمى بروميثيوس، فسرق النار المقدسة من عند الإله (رمزا لتعلم الإنسان بعد جهله) وأعطاها له. فغضب عليه زيوس (وإن كان قد عجز عن استرداد النار المقدسة!) فعاقبه بأن وكل به نسرا يأكل كبده طول النهار، وتنبت له كبد جديدة في الليل فيعود إليها النسر يأكلها في النهار، هكذا في عذاب أبدي. وغضب كذلك على الإنسان (المسمى في الأسطورة إيبيمثيوس) لحيازته للنار المقدسة التي هي اختصاص الإله أصلا، ومشاركته بذلك في صفة من صفات الإله (وهي المعرفة) فأرسل إليه مخلوقة أنثى (تسمى في الأسطورة باندورا) بحجة إيناسه في وحدته التي يعيش فيها، وأرسل معها صندوقا هدية، فلما فتحه إذ به مملوء بالشرور التي تناثرت فملأت وجه الأرض، وكان هذا هو الانتقام الإلهي من الإنسان الذي خلقه الإله ليكون خاضعا له، فأراد أن يشارك الإله في ألوهيته!

والأسطورة كما ترى تحمل شيئا من الحق مشوها بتصورات الجاهلية الفاسدة.

فخلق الله للإنسان من قبضة من طين الأرض حقيقة، وتمرد الإنسان الضال على خالقه، ومحاولته أن يجعل نفسه إلها من دون الله حقيقة، ولكن الأسطورة الجاهلية جعلت من الألوهية أوثانا عدة، وجعلت الله الخالق هو كبير هذه الأوثان! ثم تصورته محدود القدرة عاجزا عن أن يسترد شيئاً سلب منه! وأنكى من ذلك –وهو موضع الشاهد في الأسطورة– أنها جعلت "المعرفة" التي ينالها الإنسان غصبا مغتصبا من الإله، يغضب الإله من حصول الإنسان عليها، ويعذبه ويشقيه من أجلها، ويعجز في الوقت ذاته عن استردادها منه. وجعلت العلاقة بين الإله وبين الإنسان هي علاقة الكره المتبادلة: الإنسان متمرد أبدا على الإله، والإله ساخط أبدا على الإنسان يسعى إلى تحطيمه كلما حقق نجاحا في الأرض.

ويقول جوليان هكسلي –الدارويني الملحد الذي سبقت الإشارة إليه– إن هذه الأسطورة ما تزال تعمل في العقل الباطن للأوروبي المعاصر. ففي حسه أن العجز والجهل وحدهما هما اللذان أخضعاه من قبل لله. وأنه يسعى دائما إلى المعرفة والسيطرة، وأنه كلما تعلم وسيطر ارتفع درجة وهبط الإله في مقابله درجة حتى يأتي اليوم الذي يخلق فيه الإنسان الحياة، فيصبح هو الله![2]

([1]) انظر كيف تأخذ الأسطورة أصلا سماويا فتحرفه بتأثير الجاهلية الوثنية!

([2]) اقرأ ذلك في كتابه "الإنسان في العالم الحديث".

والعبرة لنا من الأسطورة ومن تعليق هكسلي عليها أن التفسير الليبرالي للتاريخ لا يتصور الإنسان طليقا من قدر ما يسيطر عليه ويرسم له حياته، وأنه حين يصوره إلها، ويبرر واقعه على أساس أنه ما دام صادرا عنه فهذا يكفي لتبريره، إنما يصنع ذلك متأُثرا بالأسطورة الوثنية الخبيثة، كأنه يكتب حلقة في الصراع بين الإنسان وبين الإله، يرسم فيها "محاولة" الإنسان للتأله،ولكنه يرسم فشله "المأساوي" في النهاية في تحقيق ألوهيته، وعجزه البشري الملازم له بوصفه قدره المقدور له في الأرض!

أما التفسير الإسلامي فهو واضح تماما في هذه القضية ككل القضايا التي يتناولها:

إن الإنسان يتحرك في داخل قدر الله، محكوما به في الصغيرة والكبيرة:

﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [سورة القمر: 49].

﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾ [سورة الرعد من الآية: 8].

﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [سورة الحديد: 22].

ولكن الله –في قدره– ليس عدوا للإنسان يريد أن يشقيه ويعذبه، ولا هو خصم له يريد تحطيمه وإذلاله –تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا– ولكنه يريد من الإنسان فقط أن يكون في مقامه الحقيقي إزاء لله، مام العبودية إزاء مقام الألوهية، وله عندئذ كل رفعة وكل تكريم، وله التمكين في الأرض في الحياة الدنيا والجنة والرضوان في الآخرة:

﴿**مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً**﴾ [سورة النساء: 147].

﴿**يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً**﴾ [سورة النساء: 28].

﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [سورة النور: 55].

﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة النساء: 13].

* * *

تلك قضايا "الإنسان" الرئيسية التي يتناولها التاريخ، وذلك موقف التفسير الإسلامي للتاريخ من هذه القضايا بإجمال. وفي الفصول التالية شيء من التفصيل.

الإنسان وقدر الله

رأينا في الفصل السابق كيف أن التاريخ –في أي تفسير من تفسيراته– يتناول في الحقيقة قضيتين في آن واحد: قضية الإنسان وقضية الألوهية. أو بالأحرى يتناول معادلة ذات طرفين: الإنسان من جهة، وقدر الله من جهة أخرى. وتختلف المعادلة بين التفسيرات الثلاثة، ويختلف مع كل منها وضع الإنسان، وتقدير مدى فاعليته في الأرض.

ونريد أن نرى في هذا الفصل أي التفسيرات الثلاثة أصدق تفسيرا للواقع الذي يعيشه الإنسان بالفعل، التفسير الذي يرسمه في صراع دائم مع قدر الله، يريد أن يثبت ذاته بالتمرد على ذلك القدر، فينجح في المدى القصير –أحيانا– ثم يبوء بفشل مأساوي في النهاية. أم التفسير الذي يرسمه مقهورا دائما، مغلوبا على أمره، لا يملك أن يتجه إلا حيث تسيره عجلة التاريخ بحتمياتها القاسية التي لا ترحم، أم التفسير الذي يرسمه متحركا فاعلا بإرادته في نطاق معين –داخل قدر الله– مواجها نتائج عمله في كل مرة، متحملا –في الدنيا والآخرة– تبعة اختياره ونتائجها الحتمية.

ونحن لا نتحدث هنا عن عقيدة المسلم في هذه القضية. فعقيدة القضاء والقدر عند المسلم معروفة. ولكنها هجة على المؤمن وحده، الذي آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره[1].

إنما نريد أن نعالج القضية مع المؤمن وغير المؤمن، لنرى –بطريقة موضوعية– أي التفسيرات اللاثة يفسر واقع التاريخ الإنساني.

وأول ما نلحظه على التفسير الغربي –بشقيه– أنه يتناول التاريخ البشري الجاهلي، ويعرضه –عامدا– على أنه هو التاريخ! ويهمل إهمالا متعمدا فترات الهدى في حياة البشرية –وخاصة فترة الإسلام الكبرى– لا بعدم إدراجها في سجلاته، فهذا أمر غير ممكن! ولكن بالتقليل من شأنها، وعرضها كأنها غير ذات أثر في مجرى التاريخ البشري!

وحين يركز ذلك التفسير على تاريخ الجاهلية البشرية فإنه يجد –في ظاهر الأمر– مصداقا لرؤيته التاريخية في بعض الجوانب من هنا ومن هناك، فيخيل إليه –أو يخيل للناس– أنه تفسير صحيح! بينما يبدو قصور ذلك التفسير واضحا لو عرض التاريخ البشري بأكمله،

([1]) جاء في حديث "هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم": قال وما الإيمان؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. رواه مسلم.

ووضعت فيه فترات الهدى في مكانها الصحيح، ووضع تأثيرها في مجرى التاريخ البشري في مكانه الصحيح!

وتلك النقطة على غاية من الأهمية. ونحن المسلمين أولى الناس بالالتفات إليها، والالتفات إلى الإهمال المتعمد بشأنها في كلا التفسيرين، بما يعطى في النهاية عرضا خاطئا لتاريخ البشرية كله ودوافعه الكبرى، ومكان الإنسان فيه.

وفيما يختص بالقضية التي نتناولها في هذا الفصل، فإننا حين نعرض التاريخ البشري في مجموعة –مشتملا على فترات الهدى وفترات الضلال– يتبين لنا عوج موقف التفسيرين الغربيين من القدر الذي يتحرك الإنسان في إطاره.

فالتفسير الليبرالي –وريث الجاهلية الإغريقية– الذي يصور قدر الله خصما دائما للإنسان، يريد تحطيمه والانتقام منه وإذلال كرامته عقابا له على محاولته إثبات ذاته والتمكن في الأرض، لا يستقيم مع إرسال الله الرسل للإنسان من أجل هدايته، وإخبار البشر –على يد الرسل– أن الله راض عنهم حين يؤمنون به، ومبارك لهم في حياتهم، وممكن لهم في الأرض، وهاديهم إلى الطيب من القول والفعل، ومثيبهم فوق ذلك كله بالجنة والرضوان في الآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [سورة البينة: 7–8].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأعراف: 96].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة النور: 55].

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف: 156].

ثم إن الواقع التاريخي لفترات الهداية —وبخاصة فترة الإسلام الكبرى يثبت هذه الحقيقة: حقيقة التمكين الرباني من جهة، وإحساس المؤمنين بتأييد الله لهم ورضاه عنهم من جهة أخرى.

ومن هنا يعجز التفسير الليبرالي عن تفسير الواقع الإسلامي ويجده مصادما لرؤيته التاريخية مصادمة صريحة.

أما تفسيره للجاهلية —الذي قد يبدو للوهلة الأولى صحيحا- فليس صحيحا كذلك.

ففي الجاهلية يتمرد الناس —بعضهم على الأقل- على الله وقدره ليثبتوا ذواتهم وليتألهوا ويتجبروا في الأرض، فيملي اللهم لهم، فيخيل إليهم بسبب هذا الإملاء أنهم نجحوا، وتغلبوا على الله وقدره! ثم تأتي الخاتمة (المأساوية!) بتدمير الله عليهم، فينتهي ذلك النجاح المؤقت، وينتهي معه مصيرهم في الحياة الدنيا:

(**فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) [سورة الأنعام: 44-45].

(**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ**) [سورة الحج: 48].

وهنا يبدو خطأ التفسير الليبرالي —حتى بالنسبة للتاريخ الجاهلي- في أمرين:

الأول: أن فترة النجاح التي مارسها الإنسان المتمرد على الله وقدره لم تكن انتصارا منه على الله، كما يعرضه ذلك التفسير الجاهلي، إنما كانت إملاء مقصودا من الله سبحانه وتعالى، لحكمة يريدها الله:

(**وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**) [سورة آل عمران: 178].

(**لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ**) [سورة النحل: 25].

ولم تكن عجزاً من الله عن الانتقام من ذلك المتمرد على سلطانه، بدليل حدوث التدمير في النهاية، وفي اللحظة التي يظن أهلها أنهم صاروا في قمة القوة والسلطان:

(حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [سورة يونس: 24].

والأمر الثاني: أن انتقام الله من هذا المتمرد على سلطانه ليس "موقفا" تجاه "الإنسان" كما يصوره ذلك التفسير الجاهلي، إنما هو عقوبة ربانية على جريمة التكبر على الخالق، والإفساد في الأرض بهذا التكبر، وهي بهذا ليست ظلما واقعا من الله على نوع الإنسان:

(وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [سورة النحل: من آية 33].

ولا هي رغبة من الله الرحيم سبحانه في التنكيد على هذا المخلوق الذي خلقه بمشيئته، وكرمه، وأضفى عليه من فضله:

(مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً) [سورة النساء: 147].

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) [سورة الإسراء: 70].

(وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) [سورة النحل: 18].

والنجاح والتمكين في الأرض، ليس بالذي يغضب الرب، وهو قدر منه سبحانه وتعالى، إنما يغضبه عدم شكر النعمة الربانية، والتبجح بالجحود، أما الذين يمكنهم الله فيستقيمون على أمر ربهم فهم موضع الرضا والنصر من عند الله:

(وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) [سورة الحج: 40-41].

ومن هنا نرى موقف التفسير الليبرالي من قضية القدر ساقطا من جميع وجوهه، غير صالح للتفسير.

* * *

وإذا كان هذا موقف التفسير الليبرالي فالتفسير المادي الجدلي لا يقل فسادا وعجزا عن التفسير.

إنه كالتفسير الليبرالي يسقط فترات الهدى في تاريخ البشرية، وبخاصة فترة الإسلام الكبرى، لأنه يعجز عجزا كاملا عن تفسيرها بحتمياته التي يفرضها على التاريخ.

فإنه لا توجد حتمية واحدة –كما أسلفنا في الفصل الأول– تفسر ظهور الإسلام ولا سرعة انتشاره، ولا احتواءه على ما احتوى عليه من المبادئ والقيم التي لم تكن شعارات مرفوعة، بل كانت واقعا معاشا في أعلى درجة من درجات التطبيق.

وحين يسقط التفسير الجدلي كل مقومات النفس الإنسانية والحياة البشرية إلا القيم المادية والأوضاع الاقتصادية، ويبني عليها أطواره التاريخية الحتمية: الشيوعية البدائية، والرق، والإقطاع، والرأسمالية، والشيوعية الثانية والأخيرة.. وحين يصر على أن الفكرة لا تسبق المادة، وأنه ليس معتقدات الناس وأفكارهم هي التي تشكل حياتهم، ولكن الأوضاع المادية والاقتصادية في حياتهم هي التي تشكل أفكارهم وعقائدهم..

حين يصنع ذلك فهو لا يعجز فقط عن تفسير فترات الهدى –وفترة الإسلام خاصة– بل يعجز عن تفسير بعض ما حدث في الجاهليات ذاتها، مما كان المفروض ألا يند عنه، ومن بين ذلك –كما أشرنا في غير هذا الكتاب[1] انتقال كل من روسيا والصين رأسا من الإقطاع إلى الشيوعية –مخالفين للحتمية التاريخية– وبقاء بريطانيا دولة رأسمالية إلى هذه اللحظة، وهي التي كان ماركس يتنبأ –حسب حتمياته التاريخية– أنها ستكون أول دولة تصيبها الشيوعية!

ثم إن هذا التفسير يلغي فاعلية الإنسان إلغاء كاملا إزاء "القدر" المتحكم فيه من خارج وجوده.. أي إزاء "الحتميات".

فلقد صور هذا التفسير الأوضاع المادية والاقتصادية على أنها إله قاهر يتحكم في الإنسان من خارجه ويرسم له وجوده بصورة حتمية لا فكاك له منها. فلا هي صادرة عن إرادته، ولا له إزاءها من تصرف سوى الخضوع لضغطها القاهر.

فأين هذا من الواقع التاريخي للإنسان؟

([1]) راجع إن شئت كتاب "مذاهب فكرية معاصرة" فصل "الشيوعية".

فأما فترات الهدى –وفترة الإسلام بصفة خاصة– فهي خارجة بالضرورة عن نطاق ذلك التفسير، لأنها "اختيار" بشري لموقف معين، يترتب عليه تغيير شامل في الحياة كلها.. السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية.. الخ. وهو فوق ذلك اختيار مبني على "عقيدة" معينة في الله واليوم الآخر، أي على "فكرة". وهم ينفون نفيا باتا –وفي صورة عصبية انفعالية!– أن تكون الفكرة شيئا قائما بذاته، أو سابقة في وجودها على المسببات المادية والاقتصادية والطور التاريخي الحتمي الذي يمكن أن تظهر فيه..!

وكفى بذلك التفسير فسادا أن يعجز عن تفسير هذا الواقع التاريخي، وهو واقع عريض شغل مساحة كبيرة من الزمن ومساحة كبيرة من الأرض، وكانت له آثاره الواسعة في الحياة البشرية بجملتها، وليس أقل آثاره ما تعلمته أوروبا في نهضتها من علم، وبخاصة المنهج التجريبي في البحث العلمي، الذي بنت عليه أوروبا كل تقدمها العلمي، الذي يجعله التفسير المادي للتاريخ أداة الانتقال من الطو الزراعي إلى الطور الصناعي، وما تلا ذلك من أحداث ضخمة في التاريخ.

ولكن فترات الجاهلية ذاتها لا تقع في نطاق ذلك التفسير، من جهة أنه يضع المحرك الذي يحرك خطوات التاريخ بصورة حتمية –بأكمله– خارج نطاق الإنسان.

فعلى فرض أن الأوضاع المادية والاقتصادية هي –وحدها– المحرك الذي يدفع حركة التارخ –وهو فرض لا نوافق عليه البتة– فكيف يحركها؟

لو لم تكن النفس البشرية مفطورة بحيث تكوّن الأوضاع المادية والاقتصادية ضغوطا معينة عليها واستجابات معينة لها، فهل كان يمكن أن يكون لتلك الأوضاع المادية والاقتصادية أثر في التاريخ البشري؟

بعبارة أخرى نقول: إن الأوضاع المادية (أي البيئة) قد أثرت تأثيرا معينا في تاريخ الحيوان على الأرض –بحسب ما تقول نظرية التطور[1]– فنمَت بعض الوظائف وجعلت وظائف أخرى تضمر، وجعلت بعض الأنواع تزدهر. وبعضها ينقرض.. ولكنها لم تجعل للحيوان تاريخا بالمعنى الذي انفرد به الإنسان.. تاريخا يحمل جوانب سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية واعتقادية.. الخ، فما الفارق؟ هل يقع الفارق في الأوضاع المادية ذاتها أم في النفس البشرية؟!

([1]) لا نسلم نحن بكل ما تفترضه نظرية التطور من فروض تاريخية ليس هناك ما يقطع بصحتها، ولكن أصحاب التفسير المادي يؤمنون بها إيمانا شديدا فنحن نناقشهم من خلال مسلماتهم.

وإذا كان الفارق في النفس البشرية وطريقة استجابتها للضغوط الواقعة عليها[1]، أفلا يجعلنا ذلك على الأقل نجعلها شريكا في الأحداث، وطرفا في المعادلة، بحيث تكون المحصلة التاريخية هي تأثير كل من الطرفين في الآخر؟

إذا كان يصح إغفال النفس البشرية ودورها في حركة التاريخ على فرض واحد: هو استجابتها بطريقة واحدة في كل مرة تتعرض فيها لذات الضغوط.. وهذا فرض غير علمي، وغير واقعي، لا بالنسبة للفرد الواحد، ولا بالنسبة للأفراد المختلفين..

وإذا كان العلم يقول اليوم –بعد أن تقدم– إن المادة ذاتها لا تستجيب بصورة واحدة حتمية في جميع الظروف المتماثلة، فأي جهالة علمية تلك التي تفترض أن النفس البشرية تستجيب بصورة حتمية واحدة في جميع الحالات المتماثلة؟ وأي مخالفة للواقع، الذي يشهد باختلاف الاستجابة، لا بناء على "الموقف الطبقي" وحده كما يزعم التفسير المادي، بل بناء على الموقف العقيدي والفكري والشخصي في الزمن الواحد، وفي الأوضاع المادية والاقتصادية الواحدة؟!

ومن جهة أخرى.. فكيف تنبت الأوضاع المادية والاقتصادية في حياة الناس غير متأثرة بوجودهم النفسي كما يزعم التفسير المادي؟

يقولون إن اختراع المحراث كان نقطة تحول في التاريخ، نقلت الناس من عهد الرق إلى عهد الإقطاع، وإن اختراع الآلة كان نقطة تحول أخرى في التاريخ، نقلت الناس من عهد الإقطاع إلى عهد الرأسمالية.

فهل نزل المحراث أو الآلة من السماء فأثرا في حياة الإنسان؟

أم كان المحراث والآلة اختراعا "بشريا" ناشئا من الكيان النفسي للإنسان؟!

ألا يجعلنا ذلك على أقل تقدير نضع الإنسان طرفا في المعادلة التاريخية مع القدر القاهر المتمثل في الحتميات!

لقد كان المحراث وكانت الآلة –على فرض أن لهما كل الثقل الذي ينسبه إليهما التفسير المادي– استجابة لمجموع الكيان البشري: حاجاته وتطلعاته وقدراته.. المقدرة له بقدر من الله.

([1]) سنتكلم في فصل قادم عن الضغوط الواقعة على الإنسان واختلاف استجابته بالنسبة لها.

فالإنسان هو الخليفة في الأرض.. المسيطر المهيمن المعمر.

وقد وهب الله له مواهب تعينه على القيام بمهمة الخلافة، من بينها قدرته على التفكير المجرد، الذي يستطيع به أن يركب في ذهنه صورة لشيء غير موجود بالفعل على تلك الصورة، ثم يحاول إيجاده في عالم الواقع. ومنها رغبته وقدرته على تحسين الواقع وتجميله وتكميله عن طريق تصنيع الخامات الموجودة بين يديه على صور وأشكال غير ما هي موجودة عليه. ومنها تراكم التجربة في نفسه وعقله بحيث تدفعه إلى تجربة جديدة لم يخضها من قبل.

وكل ذلك من فضل الله عليه ورحمته به ورعايته له، ومن قدره المقدور له في الأرض.

ثم إن الله قد سخر له ما في السموات والأرض من كنوز وطاقات:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ) [سورة الجاثية: 13].

وهذا التسخير مقدر من عند الله ابتداء، ولولاه ما كان في إمكان الإنسان أن يحققه، وإذا كان يتم في عالم الواقع بجهد يقوم به الإنسان بعضلاته وعقله، فهذا قدره: أن يكدح كدحا دائما ليحقق وجوده في الأرض:

(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ) [سورة الانشقاق: 6].

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ) [سورة البلد: 4].

ولكن من رحمة الله به أن هذا الكدح المقدر عليه يثمر ثمرته في حياته، ويترتب عليه تحقيق قدر من المتاع:

(وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) [سورة البقرة: 36].

ثم إن في نفسه نوازع ودوافع وشهوات ورغائب:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) [سورة آل عمران: 14].

وتمثل هذه الشهوات ضغوطا على نفسه، كما أن تحقيقها يعرضه لضغوط مادية واقتصادية وسياسية واجتماعية نتيجة اجتماع البشر على الأرض وتدافعهم على تحقيق هذه الشهوات..

ومن هذا التدافع يتكون التاريخ..

وهو محكوم بقدر الله..

لأن قدر الله هو الذي خلق الإنسان ابتداء، وهو الذي قدر له مهمته التي يقوم بها في الأرض، وهو الذي ركبه على هذه الصورة التي هو عليها، والتي ينشأ منها التدافع في الأرض.. الذي ينشئ بدوره حركة التاريخ.

ولكن قدر الله الذي أنشأ الإنسان على هذه الصورة، قد كرمه وفضله، فجعل له إرادة يواجه بها الضغوط الواقعة عليه، سواء ما ينبت من داخل نفسه بفعل الشهوات، وما يتعرض له من الخارج وهو يحاول تحقيق هذه الشهوات[1].

ومن حصيلة هذه الضغوط، والإرادة التي يتصرف بها إزاءها، يتحدد سلوك الإنسان في الأرض.

وهنا يكمن الجانب الحر في حياة الإنسان.

فهذه الإرادة –وإن كانت لا تلغي الضغوط– فإنها تعدّلها، وتتحكم في طريقة الاستجابة لها.. فتعطي الإنسان قدرا من حرية التصرف يختلف بها عن الحيوان، ويخرج بها عن "الحتمية" التي يرسمها التفسير المادي للتاريخ.

* * *

تلك هي العلاقة بين الإنسان وقدر الله.

إن الإنسان يتحرك –دائما– في دائرة قدر الله.

ولكن هذا القدر ذاته هو الذي وسع له دائرة التصرف، في مقابل التبعة التي يحملها حين يختار بنفسه تصرفه.

([1]) أفردنا فصلا للحديث عن موقف الإنسان من الضغوط الواقعة عليه.

وهذه التبعة –مقابل الحرية– هي "الأمانة" التي اختص بحملها الإنسان، وأشفقت من حملها السموات والأرض والجبال:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [سورة الأحزاب: 72].

وهي تبعة ضخمة في الحقيقة.. فالمطلوب من الإنسان –لكي يؤدي مهمة الخلافة– أن يقوم بعمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني.

وهذا يقتضيه –في كل موقف– أن يقف ليسأل نفسه: أي الطريقين يختار؟ الطريق الذي يستجيب فيه للضغوط الداخلية والخارجية؟ أم الطريق الذي يقاوم فيه الضغوط قدر جهده، ويستعلي عليها، ليثبت وجوده على المستوى الأعلى اللائق "بالإنسان"؟

وبقدر ما يستعلي.. بقدر ما يقاوم الضغوط.. يكون قد أدى "الأمانة" التي حملها بقدر الله. وبقدر ما يهبط.. وبقدر ما يخضع للضغوط.. يكون مبتعدا عن أداء الأمانة، فيكون "ظلوما جهولا" كما وصفه الله.

وفي كلا الحالين يتحرك في داخل قدر الله، الذي قدر له هذا القدر من الحرية، وحمّله مقابلها تبعة الاختيار.

وفي كلا الحالين يتحرك في داخل سنن معينة، تجري بمقتضاها حياة البشر على الأرض. كل سنة تحدد نتيجة حتمية لعمل معين، ولكنها لا تجبر الإنسان على عمل بعينه، لأنه هو الذي يختار.

وأيما سنة اختارها فهو داخل في قدر الله!

حين سمع عمر رضي الله عنه بالطاعون في عمواس أمر جنده بالرحيل عنها، فقال له أبو عبيدة رضي الله عنه: أتفر من قدر الله؟ قال: نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله!

وهكذا كان عمر رضي الله عنه يفهم العلاقة بين الإنسان وبين قدر الله.

وهكذا تتقرر للإنسان فاعليته وإيجابيته، وتتقرر له كذلك مسئوليته عما يفعل، وفي كل ذلك لا يخرج عن قدر الله.

فلا هو في أي لحظة من لحظاته فاعل بمفرده، كما يتخيل التفسير الليبرالي في بعض الأحيان، ولا هو ممسوخ مسلوب الإرادة كما يتخيل التفسير الجدلي في كل الأحيان..

إنما هو دائما في حدود قوله تعالى:

(**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**) [سورة الشمس: 7-10].

(**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**) [سورة الجاثية: 15].

السنن الربانية

من أهم ما يلتفت إليه المؤرخ المسلم وهو يتدبر التاريخ البشري، السنن الربانية التي تحكم الحياة البشرية، والتي من خلالها يجري قدر الله. وإليها يشير التوجيه الرباني إشارة واضحة:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة آل عمران: 137].

فعاقبة المكذبين المشار إليها في الآية واحدة من تلك السنن الربانية التي يجري بها الله الحياة البشرية، والتي يطلب من الناس أن يتدبروها لكي لا يقعوا فيها، ولكي يستفيدوا من عبرة التاريخ.

والإسلام يجعل دراسة التاريخ، والاعتبار بالسنن الربانية في الحياة البشرية فارقا بين أولي الوعي والبصيرة والغافلين الذين لهم أعين لا يبصرون بها، وآذان لا يسمعون بها، وقلوب لا يفقهون بها.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: 46].

ويجعل النظر في آيات الله في الكون، وآياته ونذره في الحياة البشرية فارقا بين المؤمنين وغير المؤمنين:

﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة يونس: 101].

لذلك لا بد من دراسة مستوعبة للسنن الربانية، ولا بد من دراسة التاريخ من خلال تلك السنن، لتكون هذه الدراسة جزءا من التربية المطلوبة لإنشاء "الإنسان الصالح" الذي يهدف الإسلام إلى إخراجه إلى الوجود[1] وإن المتدبر لكتاب الله ولسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السنن وتوجيه النظر إليها، واستخراج العبرة منها، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع السليم المستقيم على أمر الله.

(1) انظر إن شئت كتاب منهج التربية الإسلامية الجزء الأول.

* * *

من أول ما يلحظه الدارس لموضوع السنن في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أن هناك سننا عامة –وهي الأكثر عددا والأوسع مساحة في التاريخ البشري –تشمل "الإنسان" كله، مؤمنه وكافره، وإن كانت تحدد للمؤمنين طريقهم، وعاقبة أمرهم إذا استقاموا على الإيمان، كما تحدد للكافرين طريقهم وعاقبة أمرهم، وتبين الفارق الواسع بين حياة هؤلاء وحياة هؤلاء في الدنيا والآخرة جميعا، وسننا خاصة –وهي الأقل– تقع للمؤمنين وحدهم أو للكافرين وحدهم، ولكنها رغم خصوصيتها سنن جارية، أي أنها تتكرر للمؤمنين ولا تقع للكفار، أو تتكرر للكفار ولا تقع للمؤمنين[1].

والسنن الواردة في كتاب الله وفي السنة المطهرة كثيرة متعددة، تشمل مجالات كثيرة من الحياة البشرية، وليس من شأن هذا البحث الموجز أن يلم بها جميعا، فهذا متروك للبحوث المتخصصة[2] وإنما حسبنا هنا أن نشير إلى أهمية دراسة السنن وإبرازها في التفسير الإسلامي للتاريخ، مع إشارة سريعة إلى نماذج منها.

* * *

من السنن الربانية أن الله أعطى عطاءه لجميع البشر مؤمنهم وكافرهم، ليبلوهم أيهم أحسن عملا:

﴿**كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً**﴾ [سورة الإسراء: 20].

فهو سبحانه لم يخص فريقا منهم بالعطاء دون فريق، لأن سنة الابتلاء يومئذ تنتفي، بينما هي من الغايات الرئيسية في خلق الإنسان كما بينا من قبل:

﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً**﴾ [سورة الإنسان: 2].

﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [سورة الكهف: 7].

([1]) من أبرزها تحقق التمكين للكفار وهم عصاة، وعدم تحققه للمؤمنين إلا وهم مستقيمون على الطريق.

([2]) انظر رسالة دكتوراه لشريف الخطيب، جامعة أم القرى بعنوان "السنن الإلهية في الحياة الإنسانية".

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [سورة الملك: 2].

فالابتلاء هو لب حياة الإنسان، وهو الذي يجعل لحياته معنى، ولوجوده غاية. والابتلاء يقتضي أن تكون هناك "مادة" يختبر فيها الإنسان. والمادة –كما أشرنا من قبل– هي المتاع المبذول للناس في الأرض، المزين لهم، الذي يجدونه بين أيديهم وهم يقومون بعمارة الأرض. والاختبار في هذه المادة هو سؤال جوهري، يتشعب شعبا شتى، ولكنه في أصله واحد، وفي غايته واحد: هل يلتزم الإنسان في تناول هذا المتاع بما أنزل الله؟ أم يتبع الهوى والشهوات؟

وكل ما جاء في الكتاب والسنة من أوامر ونواه وأحكام وتوجيهات هو بيان لما أنزل الله في شأن هذا المتاع في مجالات الحياة المختلفة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. إلخ. ويبقى السؤال الوارد في الاختبار واحدا في كل حالة: هل التزم الإنسان في مجالات حياته المختلفة –السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. إلخ– بما أنزل الله؟ أم اتبع الهوى والشهوات، سواء كان هواه هو الشخصي أو هوى طائفة من البشر أو هوى البشر جميعاً.. كلها سواء.

وإذا كان هذا هو الشأن في خلق الإنسان وابتلائه، فإن مجرد الاستحواذ على العطاء الرباني ليس في ذاته معيارا من معايير الوجود البشري الرئيسية، إنما المعيار الرئيسي هو: ماذا فعل الإنسان بالعطاء الرباني الذي حصل عليه.

صحيح أن الحصول على هذا العطاء هو ذاته له سنن. فهو مبذول من عند الله ابتداء، ولكن تحصيله يحتاج إلى جهد يبذله الإنسان، وهذا الذي أشار إليه عمر رضي الله عنه وهو يقول للكسالى القابعين في المسجد ينتظرون رزق الله: "لقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة"..

لا بد من بذل الجهد، لأن الكدح للحصول على ما يرغب الإنسان في تحقيقه هو ذاته من سنن الله:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾ [سورة الانشقاق: 6].

ولا يستوي القاعدون عن الكدح والقائمون به. لا يستوون في مقدار العطاء الرباني الذي يحصلون عليه، ولا يستوون في النتائج المترتبة على سلوكهم، ولا يستوون في التقويم النهائي لوجودهم على الأرض.

ولكن.. كما أنه في تقويم "الشخصية" الإنسانية توضع أرقام لبعض الجوانب أعلى مما يوضع لجوانب أخرى، لأهميتها الذاتية في عملية التقويم، بينما توضع لجوانب أخرى أرقام أقل

مهما يكن تفوق الإنسان فيها.. فكذلك في "التقويم التاريخي" يوضع الرقم الأعلى لا لمقدار العطاء الذي حصلت عليه أمم من الأمم، إنما يوضع الرقم الأعلى في التقويم لطريقة التصرف في ذلك العطاء، وهل التزم فيه الإنسان بما أنزل الله أم لم يلتزم.. لأن هذا لب الاختبار.

ومن هنا تختلف الصورة في الحياة الدنيا في كثير من الأحيان عن الصورة في الآخرة، ولكن لا يختلف التقويم ولا يختلف المقياس.

خذ مثلا هذه الصورة:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ، وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ، قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ، فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ، وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ، فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ﴾ [سورة القصص: 76-81].

وهذه الصورة:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة هود: 15-16].

فهاتان نهايتان مختلفتان لأفراد يبذلون جهدا للحصول على متاع الحياة الدنيا –المبذول من الله للجميع، يحصلون منه على قدر ما يجتهدون في تحصيله– ولكن على غير هدى من الله، وعدم التزام بما أنزل الله، وكلتا النهايتين من سنن الله. فإما أن يدمر عليهم في الحياة الدنيا بعد فترة من التمكين وإما أن يؤجل لهم العذاب إلى الآخرة ويدعهم لمتاعهم الأرضي يستمتعون فيه بقدر ما يجتهدون. ولكن العبرة في السنة –كما هو واضح من سياق الآيات– ليس بمقدار العطاء الرباني الذي حصلوا عليه إنما بالطريقة التي تناولوا بها ذلك

العطاء، فهنا الابتلاء الحقيقي الذي ينالون عليه التقدير النهائي، سواء أمهلوا في الحياة الدنيا أم لم يمهلوا. ومصيرهم في الآخرة واحد.

وإذا كان الاختلاف في النهاية الدنيوية يقع بالنسبة للأفراد فهو لا يقع بالنسبة للمجموع. فإنما هو الدمار في النهاية في جميع الأحوال جزاء على مخالفة أوامر الله وتوجيهاته. وتلك سنة حتمية لا تبديل لها ولا تحويل فيها. إنما يقع الاختلاف في المدة التي تسبق التدمير.. أي في فترة الإملاء:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [سورة الحج: 48].

فالدمار نهاية حتمية مؤكدة بالنسبة للحائدين عن منهج الله. إنما تختلف سرعة التدمير بقدر من الله. وهذا القدر ذاته يجري من خلال سنن أخرى عاملة في الحياة البشرية. فالواقع أن السنن الربانية لا تعمل فرادى، إنما تعمل مجتمعة، وتكون النتيجة الواقعية هي حصيلة السنن العاملة كلها في آن واحد، أو بالأحرى حصيلة تعامل الإنسان مع مجموعة السنن التي تعرض لها في أثناء حركته في الأرض. فحين يكون اجتهاد البشر كبيرا، ومحكما، ومنظما، ومخططا، ومنظوراً فيه إلى عوامل كثيرة في الوقت الواحد، فهو أحرى أن يطول بقاؤه في الأرض، وأن يكون دماره أبطأ، وإن كان حتمي الوقوع، لأن كل واحد من هؤلاء تتعامل مع سنة من السنن، وتكون جزءا من الحصيلة النهائية. فليست السنة الوحيدة العاملة في هذا الأمر هي التدمير النهائي، إنما هذه واحدة من السنن، وحين تترافق معها السنن الأخرى فهي تحدد –بقدر من الله– إن كان الدمار سريعا أو بطيء الوقوع.

ولهذا الأمر أهميته العظمى في دراسة التاريخ.. وبخاصة تاريخ الجاهليات. فإن الجاهليات ذات لألاء بالنسبة للجاهليين! وانظر إلى القوم الذين قالوا: يا ليت لنا مثلما أوتي قارون! وانظر إلى المفتونين بالجاهلية المعاصرة وإنجازاتها..

لذلك يركز القرآن –ويركز مثله التفسير الإسلامي للتاريخ– على النهاية الحتمية التي يؤول إليها المنحرفون عن المنهج الرباني– وهي الدمار– وذلك لأن عمر الفرد القصير المحدود لا يتسع لرؤية السنة بأكملها متحققة في عالم الواقع، فيبهره اللألاء ويغفل عن النهاية لأنه لا يراها، وقد تنقضي أجيال كثيرة قبل أن تحدث، فتغفل عنها أجيال بأكملها، لذلك لا بد من تنبيه الغافلين حتى لا يأخذهم البريق الزائف فينسيهم عاقبته.

ونحن نرى في التفسير الليبرالي خاصة ذلك الانبهار الشديد بجاهليات التاريخ، وبخاصة الجاهلية الفرعونية والجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية. وسواء كانت الإشادة بهذه الجاهيات مقصودة —كما نرجح– انتقاما من الكنيسة ودينها، ومكايدة لها بإبراز الجاهليات الوثنية على أنها أعظم أثرا وأضخم قيمة وأثقل وزنا من الفترة التي حكمت فيها الكنيسة العالم المسيحي.. أو كانت أمرا طبيعيا بالنسبة للجاهليين، إذ يبهرهم الإنجاز المادي والحسي ويهملون عالم القيم، فتبهرهم من ثم تلك الجاهليات بما تحتوي عليه من إنجاز مادي وحسي، ولا يحسون بما فيها من انحراف ونقص في الجانب الروحي وما يشتمل عليه من قيم وعقائد..

سواء كان هذا أو ذاك هو السبب (وهما غير متعارضين في حقيقة الأمر) فإن التفسير الإسلامي للتاريخ ينبغي أن يتصدى لهذه القضية بالذات، فيزيل عن الجاهليات ذلك البريق الزائف الذي يبهر الجاهليين، ويعرضها في حقيقتها الربانية، من خلال السنن الربانية التي توضح حقيقتها.

فأما ما فيها من إنتاج مادي فهو من ذلك العطاء الذي يمد الله به جميع البشر:

(**كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً**) [سورة الإسراء: 20].

(**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ**) [سورة هود: 15].

كما أنه جار على سنة الإملاء للكفار وتمكينهم تمكين الاستدراج ليزدادوا إثما:

(**إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**) [سورة آل عمران: 178].

(**فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ**) [سورة الأنعام: 44].

وسواء جاء الدمار بسبب الترف الذي يصيب تلك الجاهليات بعد أن تمكن في الأرض:

(**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً**) [سورة الإسراء: 16].

أو بسبب تسليط ظالم على ظالم فيديل دولته:

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [سورة الأنعام: 65].

أو نتيجة بروز قوة مهتدية يدفع الله بها الفساد:

﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة: 251].

أو بغير ذلك من الأسباب.. فهي كلها من الأسباب التي بينتها السنن الربانية، وجعلتها وسائل للدمار الأخير.

والتفسير الإسلامي للتاريخ ينبغي أن يركز على هذه النقطة من أجل تصحيح المعايير التي يقاس بها أمر الجاهليات.

* * *

من السنن التي يرد ذكرها كثيرا في القرآن والسنة، بيان حال المؤمنين وحال الكفار في الحياة الدنيا، وبيان مصيرهم في الآخرة:

فهؤلاء وهؤلاء يمكنون، ولكن يختلف نوع الحياة بين هؤلاء وهؤلاء اختلافا كبيرا، رغم اشتراكهما الظاهري في التمكين، لأن كلا منهما ممكن لأسباب مختلفة عن الآخر. المؤمنون ممكنون تمكين الرضا، والكافرون ممكنون تمكين الاستدراج.

ويختص المؤمنون –في تمكنهم– بصفتين لا تنالان الكفار أبدا: البركة والطمأنينة:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف: 96].

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [سورة الرعد: 28].

بينما الكفار –رغم تمكنهم– محرومون من البركة والطمأنينة، يعيشون معيشة ضنكا ولو حصلوا على الرفاهية المادية، ويتمتعون –حين يتمتعون– متاع الأنعام.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [سورة طه: 124].

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) [سورة محمد: 12].

وتلك أيضا من السنن التي ينبغي أن يبرزها التفسير الإسلامي للتاريخ، لذات السبب الذي ألمحنا إليه في الحديث عن السنة السابقة.

فالذين لا يؤمنون بالآخرة أصلا، والذين خف في حسهم ثقل اليوم الآخر حتى إن كانوا يؤمنون به بصورة من الصور، ينظرون إلى الحياة الدنيا وحدها، أو يوجهون اهتمامهم الرئيسي إليها، فينظرون إلى الجاهليات –وخاصة الجاهلية المعاصرة– فيجدون نجاحا وتمكنا، وقوة ذات دوي في الأسماع، فيتوهمون أن كل ما فيها جميل، وأن حياة الناس فيها هي النموذج الذي يهفو الإنسان إلى الحياة في مثله، ولا ترى أعينهم ما فيها من عوج، وما في حياة الناس فيها من شقاء، فيحسبون أن ما يقوله "الدين" عن حال الكفار في الدنيا إن هو إلا "مواعظ" يقصد بها فقط عدم افتتان الناس بالدنيا، ولكنه ليس حقا في ذاته. فهو من باب "الدعاية" الموجهة، التي يجب أن تقابل بما تستحقه من عدم الاهتمام!!

ثم يجيء التفسير الليبرالي فيؤكد هذه المعاني تأكيدا في نفوس الناس، باحتفاله الشديد بالجاهليات، وإغفاله المتعمد لفترات الهدى في حياة البشرية.

أما التفسير الجدلي فهو يعطي صورة قاتمة عن التاريخ كله[1] بوصفه تاريخا "عبوديا" استعبد فيه المالكون غير المالكين وأذلوا إنسانيتهم، ولكن الماديين يرفضون رفضا مبدئيا أن توزن هذه القتامة بالمقاييس الدينية أو الأخلاقية! ولا يحبون أن يقال إنها ظالمة أو فاسدة لأنها مخالفة لأوامر الله ومنهجه! ذلك لأنهم –في تفسيرهم للتاريخ– يريدون أن يضعوا الدين كله في الفترة العبودية، بوصفه انعكاسا للأوضاع الاقتصادية القائمة في عهود العبودية الثلاثة: الرق، والإقطاع، والرأسمالية، وبوصفه هو ذاته أداة استغلالية يستغل المالكون بها غير المالكين ليخضعوهم لسيادتهم ويسخروهم لتحقيق مصالحهم! ومن هنا لا يحبون –بل لا يطيقون– أن يكشف أحد للناس أن التفسير الديني –ونحن نقصد الإسلامي بطبيعة الحال– يستنكر –من المنطلق الديني– كل ما حدث في عهود الرق والإقطاع والرأسمالية من مظالم بشعة، ويقرر أن سببها الرئيسي هو تشريع البشر لأنفسهم، وعدم التحاكم إلى شريعة الله.

([1]) إلا فترة الشيوعية البدائية والشيوعية الثانية كما سيجيء.

ثم إن الماديين —كالليبراليين– يغفلون فترات الهداية من منطلقهم الخاص (بالإضافة إلى منطلقات الليبراليين) لأنها لا تخضع لتفسيراتهم، ولا يمكن أن تشملها مقرراتهم ومبادئهم. ونفي ما لا يمكن تفسيره في عرفهم جائز[1].

ولكنهم يبرزون فترتين اثنتين في التاريخ، يضفون عليهما من الجمال والخير والملائكية كل ما في جعبتهم من أوصاف.. هما فترة الشيوعية البدائية، وفترة الشيوعية الثانية والأخيرة. وهما فترتان جاهليتان لا تزيدان عن ذلك في الميزان الإسلامي، لأنهما لا تحكمان بما أنزل الله، وينطبق عليهما —بصورة أو بأخرى– كل ما ينطبق على الجاهليات.

والتفسير الإسلامي للتاريخ ينبغي —كما قلنا– أن يبرز الواقع الذي تشير إليه السنن الربانية، والذي يقرر أن الذين كفروا يتمتعون المتاع الحيواني، لا المتاع الإنساني، وأن معيشتهم ضنك وإن وصلوا من الناحية المادية إلى درجة الترف والرفاهية.

والجاهلية المعاصرة بين أيدينا نستطيع رؤيتها عن قرب، إن تعذر علينا رؤية الصورة الحقيقية الكاملة للجاهليات القديمة.

وليس هنا مجال التفصيل في شأن هذه الجاهلية[2]. إنما نشير إشارات سريعة إلى بعض انحرافاتها. خذ مثلا الفوضى الجنسية المتفشية فيها: هل هذا متاع إنساني أم متاع حيواني؟! وخذ ما يسجلونه في إحصائياتهم من حالات القلق والجنون والانتحار والأمراض العصبية والنفسية وإدمان الخمر وإدمان المخدرات والجريمة ونسبة الطلاق المرتفعة ونسبة الهاربين والهاربات من بيوت الزوجية الذين تقوم مؤسسات خاصة بالبحث عنهم ومحاولة إرجاعهم إلى ذويهم!! هل يدل هذا كله على الراحة والسعادة والطمأنينة أم هي معيشة ضنك رغم كل الرخاء الاقتصادي والإنتاج المادي الوافر الفائض عن الحد؟!

أما الشق الآخر من الجاهلية المعاصرة فحسبه —من واقعه– التراجعات المستمرة التي قام بها من أجل ما ظهر في التطبيق الواقعي من مصادمة النظام للفطرة.. من إباحة التفاوت في أجور العمال– فضلا عن الفوارق القائمة بين الفرد العادي من الشعب وعضو الحزب الشيوعي —ومن إباحة ملكية قدر من الإنتاج الزراعي تشجيعا للإنتاج بعدما ثبت أن الملكية

([1]) ناقشت طريقتهم في التدليل وإخفاء أو نفي ما لا يروق لهم من الوقائع في فصل "الشيوعية" من كتاب "مذاهب فكرية معاصرة" مناقشة مستفيضة، يرجع إليها من شاء.

([2]) انظر إن شئت كتاب "رؤية إسلامية لواقع العالم المعاصر" لوصف الواقع العالمي المعاصر على ضوء السنن الربانية.

الجماعية قد أدت إلى نقص الإنتاج حتى أصبحت روسيا تشتري القمح من أمريكا! وحين يكون النظام مصادما للفطرة فهل تكون هناك الراحة والسعادة أم الضيق والعنت وهو بعض معنى "الضنك" الذي تشير إليه السنة الربانية؟ أما القهر السياسي فحدث عنه ولا حرج، وقد ذاق العالم الإسلامي عينة مخففة منه فيما يسمى "الاشتراكية" فعرف مقدار ما فيها من "الطمأنينة" الزائفة، وعرف معنى "الضنك" الحقيقي في ذلك النظام[1].

أما حين يعيش المؤمنون في كنف الله، وفي ظل منهجه، ويطبقون شريعته، وينالون رعايته.. فحال أخرى عرفها المسلمون حين كانوا قائمين بالفعل بما أمرهم الله.

فهناك تتحقق هاتان الخصيصتان اللتان اختص الله بهما المؤمنين: البركة من عند الله، وطمأنينة القلوب.

وليس هنا أيضا مجال التفصيل..

* * *

من السنن الربانية البارزة كذلك: جريان القدر الرباني من خلال أعمال البشر، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر:

﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾ [سورة الروم: 41].

﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً**﴾ [سورة الإسراء: 16].

﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾ [سورة الأعراف: 96].

﴿**وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً**﴾ [سورة الجن: 16].

وأهمية إبراز هذه السنة في القرآن الكريم –وفي التفسير الإسلامي للتاريخ– هي ضبط التصور بالنسبة لما يجري في حياة الناس في الأرض، فلا شيء يجري اعتباطا. ولا يوجد عمل من أعمال الإنسان لا تترتب عليه نتيجة، لا في الآخرة وحدها، وإنما في الحياة الدنيا كذلك.

([1]) وفي الأخير انهار النظام كله كما هو معلوم.

فإن كان هناك فارق بين حساب الله للبشر في الدنيا وحسابه لهم في الآخرة في نوع العقاب، وفي الإملاء لهم أحيانا في الحياة الدنيا، ولا إملاء في الآخرة، فلا خلاف في المعايير التي توزن بها الأعمال، ولا خلاف في مبدأ ترتيب النتائج على الأعمال، ولا خلاف في مبدأ مسؤولية كل إنسان عن عمله.

هناك مسؤولية فردية، يلتزم فيها كل فرد بأن يحسن عمله، ويتحمل فيها —وحده— نتيجة سوء عمله، وهناك مسؤولية جماعية يحمل كل فرد نصيبه منها، ويتحمل نتيجة عدم قيامه بواجبه فيها ولو لم يكن مسيئا بشخصه:

﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة الأنفال: 25].

"مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فلو تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا"[1]

وقد وعت أوروبا هذه القاعدة في أمور[2]، فكان وعيها من نقط القوة التي تؤخر انهيار حضارتها، وأهملت القاعدة في أمور أخرى جوهرية[3] فكان إهمالها مما يؤدي حسب السنة إلى الانهيار الحتمي، وكلا الأمرين من سنن الله —بطء وقوع الانهيار وحتمية وقوعه في النهاية— وكلاهما يجري بقدر من الله، ولكن من خلال أعمال البشر.

ونسي المسلمون المعاصرون سنة الله في معظم أمور حياتهم، فحل بهم ما حل حسب السنن الربانية التي أهملوها.. وقد كان أعظم ما نسوه هو جريان قدر الله من خلال أعمال البشر، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وأن سنة الله لا تحابي أحدا، ولا تستجيب لأهواء البشر، إنما تتمشى مع أعمالهم، وأن الذين يرثون الكتاب وراثة، ولا يترجمون ما فيه من التعاليم واقعا سلوكيا ثم يقولون: سيغفر لنا! لا يستجيب الله لهم، حتى يعودوا إلى العمل بما أمرهم الله في كتابه المنزل:

([1]) أخرجه البخاري.

([2]) في ضرورة إتقان العمل، وفي التزام القواعد الصحية، وفي ضرورة المحافظة على "المصالح العامة" وعلى حقوق الآخرين.. الخ.

([3]) في عبادة الله والالتزام بشرعه والالتزام بأخلاقيات الدين.

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأعراف: 169].

* * *

ومن بين تلك السنن سنة التغيير.. وهي كذلك تجري من خلال أعمال البشر:

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [سورة الرعد: 11].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: 53].

فالأصل أن الله يضفي نعمه على خلقه:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [سورة لقمان: 20].

ثم إذا شكروا يزيدهم من فضله:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [سورة إبراهيم: 7].

ثم لا يغير ما بهم من نعمة إلا إذا غيروا ما بأنفسهم من شكر النعمة إلا جحودها:

﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [سورة النحل: 112].

وقد من الله على الأمة الإسلامية بالاستخلاف والتمكين والتأمين تحقيقا لوعد الله:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة النور: 55].

فلما انحرفوا عن طريق الله، وأصبح الكتاب في أيديهم "تراثا" يدرسونه ولا ينفذون ما فيه، أصابهم ما أصابهم من الهوان والذل بدل الاستخلاف والتمكين، لأنهم غيروا ما بأنفسهم فغير الله لهم؛ ولا يعود لهم ما فقدوه إلا بتغيير ما بأنفسهم مرة أخرى، والعودة الصادقة إلى الله.

* * *

من سنن الله كذلك أنه ينصر الحق ويزهق الباطل، ولكن لا بد من وجود جنود يؤمنون بالحق وينصرونه فينصرهم الله. وليس الله سبحانه وتعالى عاجزا عن نصرة الحق بغير الأدوات البشرية، وهو الذي يقول للشيء كن فيكون، إنما هكذا اقتضت مشيئته وهكذا تجري سنته:

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [سورة محمد: 7].

﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [سورة محمد: 4].

﴿هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: 62].

ولا بد أن تكون قلوب أولئك الجنود مؤتلفة:

﴿هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة الأنفال: 62-63].

ولا بد أن يكونوا صادقي التوكل على الله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: 64].

وأن يكونوا قد نذروا أنفسهم لله:

﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ

مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة: 111].

وتلك كلها –وغيرها– من الأدوات التي يستلزمها انتصار الحق حسب سنة الله، فلا يأتي القوم خاوين منها ثم يقولون: انصرنا يا رب! لمجرد أنهم مؤمنون، أو لمجرد دعواهم بأنهم مؤمنون!

* * *

وإن يكن من سنة الله نصر الحق حين يستكمل أهل الحق أدوات النصر، فمن سنته كذلك تداول النصر والهزيمة لحكم شتى:

﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: 140].

ففي أحد هزم المؤمنين لمخالفتهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم انشغالا بالغنائم وخوفا عليهم، ويوم حنين هزم المؤمنون في أول المعركة لاعتدادهم بكثرتهم وركونهم إلى هذه الكثرة بدلا من التوكل الحق على الله. وفي كلتا الحالتين كانت الهزيمة درسا تربويا وعاه المؤمنون في أعماق مشاعرهم فلم يعودوا إلى مثله. وفي كل مرة تكون هناك أسباب ويكون لله في قدره حكمة، ولكن تبقى سنة التداول ماضية في الأرض إلى يوم القيامة، لأنها مشيئة ربانية يجري بها قدر الله في الأرض، أيا كانت الأسباب والملابسات.

* * *

تلك نماذج من السنن العامة التي تجري بها الأمور في الحياة البشرية، وإن كانت تخص المؤمنين بأحوال وتخص الكافرين بأحوال، ولكنا سبق أن أشرنا إلى وجود سنن خاصة، أي أنها تجري مع المؤمنين وحدهم ولا تجري مع الكفار، أو تجري مع الكفار وحدهم ولا تجري مع المؤمنين. ونلم هنا بأبرز نماذجها.

فالكفار يمكنون في الأرض رغم عصيانهم –بسنة من سنن الله– بل قد يزدادون تمكينا كلما زادوا كفرا، إلى أن يأتي أجلهم المقدر لهم في قدر الله فيدمر عليهم. أما المؤمنون فلا يمكن لهم إلا إذا استقاموا على الطريق:

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [سورة الأنعام: 44-45].

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً) [سورة النور: 55].

فالكفار نسوا ما ذكروا به ففتح الله عليهم أبواب كل شيء.. بما يحمله التعبير من كل صور القوة المتخيلة والتمكين: القوة المادية والحربية والسياسية والاقتصادية والعلمية.. إلخ (إلا بابا واحدا هو باب البركة والطمأنينة فأنه لا يمنحه إلا للمؤمنين الذين تطمئن قلوبهم بذكر الله).. أما المؤمنون فاشترط عليهم لكي يمنحهم الاستخلاف والتمكين والتأمين أن يخلصوا له العبادة ويعملوا الصالحات ولا يشركوا به شيئاً.

وحقيقة أن الكفار لا يمكنون لمجرد كفرهم، إنما —كما ذكرنا من قبل– بمقتضى سنن أخرى مرافقة، هي اجتهادهم لحيازة الدنيا، وبذل الجهد المطلوب لتسخير طاقات السموات والأرض وذخائرها، من علم وعمل وتنظيم وتخطيط، وجدية في أخذ الأمور وتحمل التبعات... إلخ.

ولكن عبرة السنة أن المؤمنين لا ينصرون بهذه الأدوات ذاتها إذا حادوا عن طريق الله، ولا يمكن لهم في الأرض!

والحكمة في هذا الأمر واضحة.. أو بعض الحكمة على الأقل. فالكفار قال في حقهم:

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) [سورة هود: 15-16].

والمؤمنون هم حزب الله، الذين يدخر الله لهم الدار الآخرة، ولا يحب لهم أن يفتنوا عنها، ولو مكن لهم مع معصيتهم لفتنتهم! وقالوا لأنفسهم: عصينا الله فنصرنا! فلا علينا من معصيته! فيزدادون انحرافا عن الطريق!

إنما يعاقب المؤمنون في الدنيا بالذل والهوان والهزيمة إذا عصوا الله ولجوا في معصيته، وإذا تركوا الجهاد في سبيل الله بصفة خاصة:

"يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا ومخافة الموت[1]".

وعلى ضوء هذه السنة تتضح أمور كثيرة في التاريخ.

فتاريخ الجاهليات "العظمى!" يتضح كله على الفور.

فهذه أمم لا تعبد الله –تعبد أصناما أو أوثانا أو تشرك مع الله آلهة أخرى– ومع ذلك فهي ممكنة في الأرض، ومفتوحة عليها كل الأبواب، لا لأن العقيدة الصحيحة في الله لا وزن لها في واقع الحياة، أو أن وجودها وعدم وجودها لا يؤثر في مجرى التاريخ، كما يوحي بذلك التفسير الليبرالي، وكما يقول ذلك بصراحة التفسير الجدلي، وإنما يجري هذا بسنة من سنن الله، لها حكمتها عنده من الإملاء للكافرين ليزدادوا إثما، واستدراجهم من حيث لا يعلمون، ثم التدمير عليهم في النهاية حين يلجون في الغواية ولا يستمعون إلى أوامر الله.. وفوق ذلك كله –وأهم من ذلك كله– مصيرهم في الآخرة وهو النار خالدين فيها أبدا. وهذا المصير هو الذي يحرص العاقل أن يتجنبه، ويتجنب ما يؤدي إليه من الأعمال. ومع ذلك فإن العاقل –إن كان عاقلا حقا– ينبغي أن يتجنب ما يؤدي في الحياة الدنيا إلى المعيشة الضنك، وما يؤدي إلى هبوط الإنسان إلى المستوى الحيواني، وما يؤدي في النهاية إلى دمار قومه الذين ينتمي إليهم ولو لم يحدث الدمار إلا بعد إجيال.

كما أن هذه السنة تقدم التفسير الصحيح لما حل بالمسلمين. فليس الذي أصابهم هو التفاف البرتغاليين حولهم في القرن الخامس عشر أو السادس عشر الميلادي واستيلاءهم على طرق التجارة ونزعها من يد المماليك، ولا تزايد قوة أوروبا وتجمعها ضد الدولة العثمانية.. ولا..ولا.. من كل الأسباب التي يفسر بها التاريخ الحديث، وهي كلها صحيحة في ذاتها، ولكن الذي أصابها قبل ذلك كله كان تزايد انحرافها عن طريق الله، وكانت كل الأسباب التي توضع لتفسير التاريخ في الحقيقة نتائج لهذه العلة الأولى، متمشية كلها مع سنة الله مع المؤمنين، وهي عدم نصرهم ولا تمكينهم في الأرض وهم منحرفون عن الطريق.

([1]) أخرجه أحمد وأبو داود.

وتوضيح هذه الأمور للمسلمين، سواء بالنسبة لتاريخ الجاهليات، أو لتاريخ المسلمين، أمر على أعظم جانب من الأهمية حين ننظر إلى دراسة التاريخ –كما أشرنا في المقدمة– على أنها درس تربوي في الحقيقة وليس مجرد سرد لأقاصيص التاريخ!..

* * *

كذلك من السنن الخاصة ابتلاء المؤمنين –قبل التمكين– من أجل التمحيص، ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكن ورسوخ:

﴿الم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة العنكبوت: 1-3].

﴿وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: 140-141].

والابتلاء سنة عامة، سبقت الإشارة إليها في صورتها العامة.. ولكننا نتحدث هنا عن سنة خاصة يختص بها الله المؤمنين –الذين اتجهوا إلى الإيمان وساروا في طريقه– ولا يجريها بصورتها تلك ولا لأهدافها تلك على الكافرين.

فهو ابتلاء الرحمة لا ابتلاء الغضب.. وابتلاء الاختيار لا مجرد الاختبار..

أرأيت لو أن قائدا أراد إعداد جنوده للفوز في معركة صعبة ضارية.. أيكون من الرحمة بهم أن يخفف لهم التدريب ويهون لهم الإعداد، أم تكون الرحمة الحقيقية بهم أن يشدد عليهم في التدريب على قدر ما تقتضيه المعركة الضارية التي يعدّهم من أجلها؟

والمؤمنون هم حزب الله وجنوده –ولله المثل الأعلى– والمعركة التي يعدهم من أجلها هي المعركة العظمى: معركة الحق والباطل، التي ينصر فيها الله الحق على يد أولئك الجنود وحسبما اقتضت مشيئته وجرت سنته.

والنتيجة المطلوبة من المعركة ليست مجرد النصر.. إنما هي بعد ذلك إقرار المنهج الرباني في الأرض بكل المعاني والقيم التي يحملها ذلك المنهج، وهي هي الأمانة التي تعرض لحملها الإنسان بقدر من الله.

وحمل الأمانة –بعد الانتصار على الباطل– لا يصلح له كل الناس. إنما يحتاج لقوم مختارين، يعدون له إعداداً خاصاً ليحسنوا القيام به. وقد علم الله أن الابتلاء هو الوسيلة للتمييز أولا:

(مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) [سورة آل عمران: 179].

وهو الوسيلة للتمحيص والإعداد كذلك.

إن القوم المختارين لحمل الأمانة لن يحسنوا حملها حتى تتصل قلوبهم بالله، وتتعلق به وحده في السراء والضراء، وتتجرد له، فعندئذ يستطيعون أن ينفذوا هذا التوجيه الرباني:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) [سورة النساء: 135].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [سورة المائدة: 8].

والابتلاء هو الإعداد الرباني لذلك كله. حيث يوضع المؤمن في الوضع الذي يحيط به الكفار، غالبين منتفشين بباطلهم، ضاغطين بكل قوتهم، ويلتفت حوله –وهو صاحب الحق– فلا يجد قوة واحدة في الأرض تنقذه من بين براثنهم. فيلجأ إلى الله وحده، ويتطلع إليه وحده، ويتعلق قلبه به وحده، ويعلم أن لن ينقذه منهم إلا هو وحده، حين يقرر سبحانه بمشيئته وحده.

وعندئذ يتم له التمحيص، ويتجرد لله، فيحمل الأمانة على استواء.

أمر آخر يتم في أثناء الابتلاء له علاقة وثيقة بالإعداد لحمل الأمانة.. ففي الحياة الوادعة التي يحياها الإنسان في معتاد حياته تبدو كثير من الأمور كأنها ضرورات لا يستطيع الإنسان الاستغناء عنها، فيشغل نفسه بتحصيلها، وينفق وقته في ممارستها، ويتوزع جهده بينها وبين القيم التي قد يتجه إليها..

وفي المحنة يكتشف الإنسان أن كثيرا مما ظنه ضرورات: من الفراش الوثير والطعام الوفير وراحة الجسد وراحة البال وهدوء الأعصاب.. الخ.. الخ. قد انتزع منه انتزاعا ومع ذلك يعيش! بل يجد نفسه يعيش من أجل قيم أعلى، ويمارس مشاعر أشف وأصفى مما كان يمارس من قبل. فيتعلم -في درس عملي- أن الحياة من أجل القيم العليا أثمن وأعلى بكثير من المتاع الزائل.. فإذا انتهت المحنة، وصار إلى التمكين في الأرض، لم يشغله المتاع الزائل عن القيم العليا والجهاد من أجلها ونذر الجهد لها، ويتذوق قوله تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ، قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ) [سورة آل عمران: 14-17].

* * *

هناك دروس مستفادة من دراسة السنن، يعنى بإبرازها التفسير الإسلامي للتاريخ.

من أبرز هذه الدروس التركيز في التفسير الإسلامي على إيجابية الإنسان وفاعليته في داخل قدر الله، واختلاف التفسير الإسلامي في هذه النقطة عن كلا التفسيرين الغربيين، والتفسير المادي الجدلي بصفة خاصة.

فالتفسير الليبرالي يبرز إيجابية الإنسان وفاعليته ولكنه يكاد يلغي قدر الله. أو هو بالأحرى يعرض فاعلية الإنسان كأنها تتحدى قدر الله. امتداداً للميراث الوثني الذي يصور العلاقة بين البشر وبين الله علاقة صراع وخصام. فبمقدار ما يثبت الإنسان ذاته يكون -في حسهم- قد ألغى قدر الله، وبمقدار ما يبرز قدر الله يكون ضعف الإنسان وفشله وانكساره. بينما التفسير الإسلامي يعطي المعادلة الصحيحة -كما بينا- بين فاعلية الإنسان وفاعلية قدر الله، ويلغي التعارض الظاهري بين هذه وتلك.

أما الاختلاف الأكبر في هذه النقطة فهو بين التفسير الإسلامي والتفسير الجدلي، الذي يلغي فاعلية الإنسان كلها، ويجعله عبدا ذليلا للحتميات.

فمما يلتفت النظر في قضية السنن في هذا الصدد اختلاف سنن الله في الكون المادي عن سننه في الحياة البشرية.. والاختلاف الرئيسي هو أن سنن الله في الكون المادي تجري عن طريق القهر:

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) [سورة فصلت: 11].

أما مع الإنسان فالشأن مختلف:

(وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ) [سورة الكهف: 29].

ويشهد واقع التاريخ البشري أن الناس منهم من اختار الإيمان ومنهم من يختار الكفر. وفي ذلك دليل —إن كان الأمر في حاجة إلى دليل– على أن تركيب الإنسان غير تركيب المادة، وإن كان مكونا من قبضة من طين الأرض ابتداء، ولكن نفخة الروح العلوية فيه قد غيرت خواصه فلم يعد يتصرف كما تتصرف المادة.

وما كان الأمر في الحقيقة في حاجة إلى دليل، لولا الجدل الطويل العريض الذي يقيمه التفسير الجدلي حول قوانين المادة وانطباقها بحذافيرها على الحياة البشرية! وقياس الماديين أحوال الإنسان —من ثم– على أحوال المادة، وانتهاؤهم إلى جبرية القوانين التي تسير حياة الإنسان، لا بمعنى ثبات السنن وعدم تغيرها كما يقول رب العالمين، ولكن بمعنى خضوع الإنسان خضوعا جبريا ذليلا للحتميات المادية وعدم حريته في التصرف إزاءها.

وفي التفسير الإسلامي يتبدى الفارق واضحا بين سنن الله في الكون المادي وسننه في الحياة البشرية، ذلك الفارق الناشئ من خلق الله للإنسان على نحو مختلف عن خلقه للمادة، وإعطائه من لدن خالقه فاعلية وإيجابية، وعدم قهر السنن الربانية له على سلوك معين، بل يختار ما يختار لنفسه ثم يتحمل في كل مرة نتيجة اختياره، وفي ذلك تكريم للإنسان يأباه عليه التفسير المادي، حين يصر على رده إلى المادة، ونفي النفخة العلوية عنه، وإجراء قوانين المادة عليه بكل جبريتها وقهرها!

* * *

من الدروس المهمة كذلك إبراز جدية الحياة البشرية وخلوها من العبث..

إن رؤية الحياة البشرية بغير السنن الربانية التي تحكمها –وهو ديدن الجاهلية[1]– يؤدي إلى العبثية التي انتهى إليها فكر "سارتر" في الجاهلية المعاصرة؛ وهي ذاتها التي انتهى إليها فكر الجاهلية العربية من بل كما ورد ذكرها في القرآن الكريم:

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [سورة الجاثية: 24].

وحين تتضح للإنسان –من خلال رؤيته للسنن الربانية– جدية الحياة البشرية، وانتظام جريان السنن فيها، فلا بد له –إذا استقام تفكيره– أن ينتهي إلى حقيقتين رئيسيتين: حقيقة الألوهية، وحقيقة اليوم الآخر.

فهذه السنن المنتظمة تنفي –بذاتها– أن تحدث الأمور صدفة، أو اعتباطا، أو بغير موجد، وتشهد –كما تشهد السنن الكونية من جانبها– بوجود خالق مدبر حكيم، ذي قدرة وقصد، فعال لما يريد.

فأما الطبيعة –إله دارون– التي قال عنها إنها تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق، فقد عاد فقال إنها تخبط خبط عشواء، وإنه لا قصد لها من الخلق ولا غاية، فجردها من العلم والحكمة والتدبير والرعاية، ذلك وهو يتكلم عن اطراد السنة التي زعم أن الخلق جرى بمقتضاها وهي سنة التطور!

أما التفسير الإسلامي فهو يبرز –من خلال رؤيته للسنن التي تحكم الحياة البشرية، والسنن التي تحكم الكون المادي كذلك– وجود الخالق، وهيمنته، واتصافه –سبحانه– بالقصد والإرادة، والعلم والحكمة، والقدرة التي لا يعجزها شيء.

كذلك فإن الإيمان بجدية الحياة البشرية وانتظام السنن فيها لا بد أن يؤدى إلى الإيمان باليوم الآخر.. فبدون اليوم الآخر، وما يشتمل عليه من بعث ونشور، وحساب وجزاء، لا تتحقق للحياة البشرية الجدية التي تؤكدها السنن.

فلو كانت حياة المحسن تنتهي كما تنتهي حياة المسيء، كلاهما تنتهي حياته بانتهاء عمره المحدود في الحياة الدنيا ثم ينتهي كل شيئ.. فما أشد عبثية هذه الحياة وما أظلمها..

([1]) ربما كانت الجاهلية الوحيدة التي أبرزت "مضمونا" للتاريخ هي المادية الجدلية، ولكنها –كما رأينا– أخرجت الإنسان من أخص خصائصه وهي "إنسانيته"! وجعلته مادة!

وما أبعدها عن الجدية من بدئها إلى منتهاها! فكم من محسن يعيش حياته كلها مبتلى واقعا تحت حكم الطاغوت، وكم من مسيء يظل في طغيانه حتى لحظة الموت.. فأين العدل إذن، وأين الجدية، وأين الغاية والقصد؟

إنما يتحقق العدل والجدية، ويتحقق القصد والغاية، حين يكون هناك بعث ونشور، وحساب وجزاء. وهذا الذي يجعل أولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض، يفيئون من تفكيرهم إلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، وجنة ونار، فيسارعون إلى الضراعة إلى ربهم أن يجنبهم النار ويدخلهم الجنة:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ، رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ..) [سورة آل عمران: 190-195].

أما الذين انطمست بصائرهم فلم يروا سنن الله فهؤلاء يقال لهم:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ، أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ، كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) [سورة ص: 27-29].

وهكذا تؤدي دراسة السنن إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، فتتصل اتصالا مباشرا بالعقيدة، بينما هي دراسة موضوعية لخطى التاريخ البشري في الأرض.. وذلك من حكم التوجيه الرباني لدراسة التاريخ.

* * *

ولكن لعل أهم الدروس المستفادة من دراسة السنن أن الإيمان ليس دعوى.. إنما هو واقع سلوكي مشهود في واقع الأرض..

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً، وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ [سورة النساء: 123-124].

إن هذا الدين لم ينزل ليكون عقيدة مستسرة في ضمير البشر، ولا ليكون صلة بالعالم الأخروي فحسب.. إنما نزل لمهمة يؤديها في الأرض:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحديد: 25].

وقيام الناس بالقسط له سنن ربانية تحكمه، ليس منها التمني مع القعود! وليس منها أن يقول الإنسان للشيء كن فيكون! إنما الشأن بالنسبة للبشر هو الكدح الذي يؤدي نتيجته حسب العقيدة المصاحبة له، وحسب السنن التي تجري من خلالها الحياة البشرية، وهذه السنن دقيقة كل الدقة، منتظمة أشد الانتظام، لا تحيد ولا تميل، ولا تجامل ولا تحابي، ولا تتأثر بالأماني الطيبة، إنما تتأثر بالأعمال، وهي في دقته وانتظامها وجديتها كالسنن الكونية سواء بسواء[1].

حدث في أثناء اكتشاف توابع الشمس[2] أن رؤي أحد الكواكب بالمنظار الفلكي، ولكن مجاله الذي رصده المنظار كان مخالفا لتقدير الفلكيين الذي قدروه له بحساب حجمه، وبعده عن الشمس، وبعده عن الكواكب الأخرى التي كانت قد كشفت في ذلك الوقت. فرجح الفلكيون أن يكون هناك كوكب آخر أبعد منه، لا تدركه مناظير ذلك الزمان، يدور في فلك معين، يؤثر في مجال هذا الكوكب الذي رصدوه. وبالفعل سعى الفلكيون إلى صناعة منظار أبعد مدى، فوجدوا الكوكب الجديد في الموضع الذي قدروه له بمقتضى حساباتهم الفلكية المبنية على دقة الفلك وانضباطه وعدم تذبذب قوانينه.

([1]) قد يخرق الله السنن الكونية لحكمة يريدها ولكنه تعالى ثبت السنن البشرية بحكمته.

([2]) توابع الشمس هي الكواكب المعروفة ومنها الأرض والزهرة والمريخ.. الخ.

والسنن الربانية في الحياة البشرية دقيقة تلك الدقة، منضبطة ذلك الانضباط، وهي تعمل مجتمعة كما أسلفنا القول، فيكون من حصيلتها في الحياة البشرية ما هو كائن بقدر الله.

ومن ثم فإنه لا بد من العمل بمقتضى السنن الربانية للوصول إلى النتائج المحددة المطلوبة. ومخالفة السنن لا يتأتى عنها إلا النتائج المنصوص عليها في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد أدرك هذه الحقيقة مفكر غير مسلم، هو "ألكسيس كاريل" حيث يقول في كتابه "الإنسان ذلك المجهول":

"قبل أن أبدأ هذا الكتاب كنت أدرك تماما صعوبة هذا العمل بل استحالته تقريبا، ولكني شرعت فيه لأنني كنت أعلم أن شخصا ما لا بد سيؤديه.. لأن الناس لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية في مجراها الحالي، لأنهم آخذون في التدهور والانحطاط. لقد فتنهم جمال علوم الجماد. إنهم لم يدركوا أن إحساسهم وشعورهم يتعرض للقوانين الطبيعية[1] وهي قوانين أكثر غموضا وإن كانت تتساوى في الصلابة مع القوانين الدنيوية [2]كذلك فهم لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم"[3].

".. نحن وحدنا المسئولون، لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع.. لقد نقضنا قوانين الطبيعة، فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى، الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائما... إن مبادئ "الدين العلمي" والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأة غزو "الحقيقة البيولوجية".. فالحياة لا تعطي إلا إجابة واحدة حينما تستأذن في السماح بارتياد الأرض المحرمة.. هي إضعاف السائل. ولهذا فإن الحضارة آخذة في الانهيار، لأن علوم الجماد قادتنا إلى أرض ليست لنا، فقبلنا هداياها جميعا بلا تمييز ولا تبصر. ولقد أصبح الفرد ضيقا متخصصا، فاجرا، غبيا، غير قادر على التحكم في نفسه ومؤسساته[4]".

والمسلمون أولى أن يدركوا سنن ربهم، التي أبرزها لهم إبرازا في كتابه المنزل وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

([1]) يقصد السنن الربانية التي تحكم الحياة البشرية.

([2]) يقصد السنن الربانية التي تحكم الكون المادي.

([3]) ص10-11 من الترجمة العربية –ترجمة شفيق أسعد فريد– طبع مكتبة المعارف ببيروت.

([4]) ص322 من الترجمة العربية.

أولى لهم أن يحسموا تلك القضايا التي أنبتها الفكر الدخيل في عقائدهم وتصوراتهم، ويعودوا فيستمدوا عقيدتهم وتصوراتهم من منابعها الأصيلة: كتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف الصالح الذي تلقى هذا الدين من كتاب الله وسنة رسوله مباشرة بغير فكر دخيل.

إن فكر المرجئة، الذين يقولون إن الإيمان هو التصديق، أو هو التصديق والإقرار، وإن العمل خارج عن مسمى الإيمان، هو فكر مصادم مصادمة مباشرة للسنن الربانية.

وإن فكر المتواكلين الذين يضربون على صدورهم ويقولون إن ربك رب قلوب، وما دام قلبك عامرا بالإيمان فلا يهمك العمل! فكر مصادم للسنن الربانية.

وإن فكر القاعدين الذين يقولون إن ربنا سينصرنا بنيتنا الطيبة، فكر مصادم للسنن الربانية.

وإن فكر الذين يتصورون أن أعداء الإسلام –من صليبية عالمية، وصهيونية عالمية وإلحاد وشيوعية– ستحرقهم الصواعق ويتخطفهم الطير و"المسلمون" واقفون يتفرجون عليهم بغير عمل يعملونه، ولا عدة يعدونها، لمجرد أن أولئك كفار وأن المسلمين مسلمون.. فكر مصادم للسنن الربانية.

وإن فكر الذين يتصورون أن الله سينصرهم دون أن يغيروا ما بأنفسهم من بعد عن طريق الله تصورا وسلوكا.. فكر مصادم للسنن الربانية.

وإن فكر الذين يتصورن أن أي إسلام يمكن أن يجزئ في معركة الحق والباطل في مرحلتها الراهنة التي تكتلت فيها كل قوى الجاهلية لمحاولة القضاء على الإسلام –ولو كان إسلاما ناقصا، أو محفا، أو مشوها، أو مبتدعا– فكر مصادم للسنن الربانية.

والصحوة الإسلامية بالذات هي التي عليها أن تعي هذا الدرس، سواء في الدعوة إلى هذا الدين، أو في تربية الجيل الذي تعده لمعركة الحق والباطل.. لكي يسدد الله خطاها، وتنجح في مهمتها الشاقة.

إن رحمة الله قريب من المحسنين.. ولكن المحسنين هم الذين يسيرون في طريق الله على بصيرة:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي) [سورة يوسف: 108].

ولن تكون بصيرة بغير تدبر في كتاب الله.. وفي السنن التي تجري بها الحياة البشرية بقدر من الله..

ولا حرج على فضل الله إن أراد أن يجري سنته الخارقة فإنه يجريها سبحانه حين يشاء وكيف يشاء. ولكننا نحن مأمورون أن نتبع السنن الجارية.. تلك السنن التي تقول:

(ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ) [سورة محمد: 4].

والتي تقول:

(إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) [سورة محمد: 7].

والتي تقول:

(هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) [سورة الأنفال: 62-63].

والتي تقول:

(وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) [سورة الأنفال: 46].

والتي تقول:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) [سورة العنكبوت: 69].

الإنسان والضرورات

كلا التفسيرين الجاهليين يصور الإنسان خاضعا للضرورات. ومن ثم يثقل "الأمر الواقع" في حسهما، ويرى كل منهما —من زاوية رصده– أن ما وقع بالفعل لم يكن يمكن أن يحدث غيره، لأنه هو محصلة الضرورات المحيطة بالإنسان، في الزمان المعين والمكان المعين.. والضرورات لها قوة القهر، والإنسان ليس له إلا الخضوع!

فأما التفسير الجدلي فهو واضح تماما في هذا الشأن، فهو يقيم تصوره كله على أساس القهر الواقع على الإنسان من ظروفه الاقتصادية والطور التاريخي الذي يعيشه، ويقرر أن هاتين الحتميتين هما اللتان تحددان له كل شيء في حياته: فكره ومشاعره وعقيدته وأنماط سلوكه وأخلاقياته ومؤسساته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وفنه والمصطلحات اللغوية التي يستخدمها!

ويرسم الماديون بمقتضى هذا التصور أطوارا تاريخية حتمية قهرية، لا بد أن تمر بها البشرية أرادت أم أبت، هي الشيوعية الأولى، والرق، والإقطاع، والرأسمالية، والشيوعية الثانية والأخيرة.

ثم يرسمون لكل طور قوالبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والشعورية والأخلاقية والسلوكية.. إلخ، ثم يصبون الناس خلال التاريخ في هذه القوالب صبا، فتعرفهم بسيماهم! هذا إنسان من المشاعية الأولى، وهذا من عهد الرق، وهذا من عهد الإقطاع، وهذا من عهد الرأسمالية، وهذا من عهد الشيوعية الثانية.. كما تعرف الناس في متحف الشمع من صورهم الأصلية المحفوظة في ذاكرتك! ولكن مع الفارق! فالذين تعرفهم في متحف الشمع "أشخاص" بأعيانهم، أما الذين يقدمهم لك التفسير الجدلي فهم "أنماط طبقية"، والناس في داخل الطبقة الواحدة كلهم نمط واحد، لا يفترق بعضهم عن بعض، لأنهم مصبوبون في قالب طبقتهم، لا ينقصون عنه ولا يزيدون! وبحكم وجودهم في طبقتهم فهم يتخذون فكرها وعقيدتها وأنماط سلوكها ومواقفها.. ولا خيار لهم في ذلك، ولا قدرة لهم على المخالفة ولا التغيير، لأن وجودهم هو لذي يحدد لهم فكرهم ومشاعرهم، وليس فكرهم ومشاعرهم هو الذي يحدد لهم وجودهم!

أما التفسير الليبرالي فقد يكون أقل حدة.. لأن متكأه هو الفرد —وليس الطبقة– فهو معنى بالفروق الفردية أكثر من عنايته بالكيان الطبقي المشترك. ولكن الفرد الذي هو معنى به ليس أرقى كثيراً من زميله هناك في التفسير الجدلي! فهو محكوم "بظروف البيئة" و"بالأوضاع

التاريخية" و"الأفكار السائدة" في عصره.. فهل تفترق هذه كثيرا عن الحتمية المادية والحتمية الاقتصادية والحتمية التاريخية التي يقول بها التفسير المادي؟!

ثم يضيف التفسير الليبرالي ضرورات أخرى على ضوء ما تفرزه مدارس علم النفس المختلفة، كلها تبرر للإنسان قصوره وانحرافه وخضعه "للضرورات".. فيصبح كل شيء مبررا في النهاية: الفساد الخلقي، والفساد الاجتماعي، والفساد الاقتصادي، والفساد السياسي، والفساد الفكري..

وفي جميع الحالات يسقط "الإنسان"؟!

وسواء سقط في حمأة العبودية لغير الله، أو حمأة الظلم السياسي والاجتماعي والاقتصادي، أو حمأة الجنس، أو حمأة الخمر والمخدرات والجريمة فسيجد على الفور شهادة "البراءة" يقدمها له هذا التفسير أو ذلك التفسير! أنه لم يكن في وسع الإنسان أن يكون إلا كما كان!

* * *

قم نحاول أن نقرأ التاريخ على ضوء هذا التفسير أو ذاك.. هل حقا كان تاريخ الإنسان كله خضوعا للضرورات؟!

كيف إذن ظهر الإسلام؟!

أي "ضرورة" قاهرة أخرجت هذه العقيدة إلى الوجود؟ وأي ضرورة قاهرة جعلت الإسلام يشتمل على ما اشتمل عليه، ويقوم بما قام به؟

هل كان نبذ الشرك والتوجه بالعبادة إلى الله الواحد الحق ضرورة مادية أو اقتصادية أو تاريخية؟ وما تلك الضرورة؟

ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ تقديرهم هم لهذا الأمر، فهم يجعلونه –لغايات معينة في نفوسهم– قضية هامشية في تاريخ البشرية، ونحن نعتبرها مرتكزا رئيسيا، بل نعتبرها –كما وجهنا ربنا– هي المرتكز الرئيسي في حياة البشرية. ولكننا نأخذ الأمر من ناحية أنه ظاهرة تاريخية، شملت –كما قلنا من قبل– مساحة كبيرة من الزمن، ومساحة كبيرة من الأرض.. فكيف نفسرها من منطلق الضرورات القاهرة التي تشكل حياة الإنسان؟!

ثم إنه في الإسلام ينزع حق التشريع من البشر، وتحكم شريعة الله. وينتقض المبدأ الذي وضعه التفسير المادي –ولا يعترض عليه التفسير الليبرالي بحكم الأمر الواقع –وهو كون الذي يملك هو الذي يحكم وهو الذي يشرع[1].. وحين يشرع فإنه يعمل لصالح طبقته على حساب الطبقات الأخرى. فإنه لا توجد طبقات أصلا في التطبيق الصحيح للإسلام، وإن وجد أغنياء وفقراء في المجتمع[2].. ثم إنه البشر ليسوا هم الذين يشرعون –لا أغنياؤهم ولا فقراؤهم– إنما يشرع الله، ويقوم البشر –حاكمهم ومحكومهم– بتنفيذ شريعة الله.

فما الضرورة التي أملت هذا الوضع، وهو لم يوجد حتى هذه اللحظة إلا حيث يعتنق الإسلام؟!

ونحن في هذا الأمر كذلك لا نأخذ تقديرهم هم، فنحن –بمقتضى إسلامنا– نعتبره مفرق طريق، يفرق بين منهج للحياة ومنهج، ونوع من الحياة ونوع، في الدنيا والآخرة على السواء ؛ بينما هم –لأنهم لا يؤمنون به– لا يقدرونه حق قدره، ويعتبرونه مجرد وضع من الأوضاع التشريعية القائمة في الأرض. ولكننا ننظر إليه من ناحية أنه حدث تاريخي وقع بالفعل، فهل كانت هناك ضرورة ملجئة –من حتميات المادة أو حتميات التاريخ– اقتضت نزع التشريع من البشر ورده إلى الله؟!

وكان العرب شتيتا متناثرا يملك كل أسباب التجمع ولا يتجمع! يملك وحدة الأرض، ووحدة اللغة، ووحدة الجنس، ووحدة المعتقدات، ووحدة الثقافة، ووحدة التقاليد.. ولكن تمنعه القبلية بثاراتها وغاراتها، وحزازاتها ومنافساتها، أن يتجمع في كيان واحد.

وكانت هناك قضايا وطنية أو قومية تتعلق بالاحتلال الفارسي لجزء من جزيرة العرب في الجنوب، والاحتلال الروماني لجزء من الجزيرة في الشمال، ولكنه لا يثير قومية العرب، ولا يدفعهم إلى التجمع لطرد الاستعمار، بل يجد "ملوك" العرب راحة في هذا الوضع تحت ظل الاحتلال الأجنبي. ويهتمون بسلطانهم الشخصي أكثر مما يحركهم الدافع القومي.

([1]) يصدق هذا المبدأ عل كل جاهليات التاريخ، ولا ينقض إلا في حالة واحدة، هي تحكيم شريعة الله.

([2]) الطبقة في الاصطلاح الجدلي وضع اجتماعي اقتصادي سياسي بورث جيلا بعد جيل، وليس وضعا فرديا قابلا للتغيير. وهذا الوضع الطبقي يتعلق في الجاهلية بقضية التشريع. فالمالكون لهم حق التشريع وغير المالكين عليهم التنفيذ. أما الغني والفقر في المجتمع الإسلامي فليس "طبقيا" لأنه لا تتعلق به حقوق تشريعية.

وكان هناك طغيان اقتصادي لبعض القبائل –على رأسها قريش– وفقر مدقع تعيش فيه قبائل أخرى، كما كان في كل قبيلة أغنياؤها وفقراؤها، وطغيان من أغنيائها على فقرائها، فلا يحرك هذا الأمر أحدا لتصحيح الأوضاع، وإيجاد نوع من التوازن بين الأغنياء والفقراء في القبيلة الواحدة، فضلا عن أن يكون بين القبائل بعضها وبعض..

ثم جاء الإسلام فحقق ذلك كله..

حقق التجمع في كيان واحد، وحقق طرد الاحتلال الأجنبي من شمال الجزيرة وجنوبها، وحقق التوازن الاجتماعي والاقتصادي بين سكان الجزيرة جميعا، بغير باعث ذاتي من العرب أهل الجزيرة. بل الذي يلفت النظر أن الإسلام لم يناد بأي قضية من هذه القضايا القومية أو الوطنية أو الاجتماعية لينشئ التجمع! إنما نادى بقضية واحدة أساسية هي قضية لا إله إلا الله، وعبادة الله وحده بلا شريك.

ثم كان من أمر هذه القضية –التي قام التجمع عليها وحدها خالصة من أي اختلاط بغيرها– أنها هي التي حققت كل القضايا الأخرى التي لم تكن من قبل شاغلا محركا لأحد على الإطلاق! ثم إنها لم تحققها على الأساس القومي أو الوطني أو الاجتماعي الذي كان يمكن –جدلا– أن يتحقق من جانب العرب في يوم من الأيام، إنما على أساس مختلف تماما: على أساس العبودية الخالصة لله وحده دون شريك، ومن ثم تحقيق منهجه في الأرض، المشتمل على تصحيح الأوضاع الفاسدة كلها في كل الأرض!

وكان من تلك الأوضاع الفاسدة أن المرأة كانت هملا لا حساب له ولا وزن، تورث ولا ترث، ولا يؤخذ لها رأي في زواج أو خطبة، إلا أن تكون ذات ثروة فتحترم لثروتها لا باعتبار إنسانيتها! فإذا مات زوجها لطخت رأسها وثيابها بالطين وبقيت أسيرة في أهل زوجها حتى يطلقوها –إن شاءوا– أو يستولي عليها واحد منهم! فضلا عن الفساد الخلقي والإنساني الذي يجعل المرأة "أداة" من أدوات الاستمتاع الحيواني.

ثم جاء الإسلام فألغى هذا كله بغير الأداة التي يعتبرها التفسير المادي هي الأداة الوحيدة للتغيير، وهي "الاستقلال الاقتصادي" للمرأة! إنما على أساس "إنساني" بحت، يعطي المرأة حقوقها الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية من منطلق أنها "إنسان" لا "سلعة" ولا "شيء"..

فما "الضرورة" التي أدت لهذا كله؟!

وكان من تلك الأوضاع الفاسدة كذلك أن الرقيق كان في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان.. فالحيوان –بحكم حاجة صاحبه إليه لينتفع به– يجد الطعام والراحة، ويجد الرعاية التي تكفل له حياته، أما الرقيق –فبالرغم من حاجة صاحبه إليه لينتفع بجهده– لا يجد من وسائل الرعاية ما يجد الحيوان. فيجوز لصاحبه قتله وضربه وتعذيبه وحبسه وتوقيع كل أنواع الإساءة والتحقير عليه، بلا تأثم ولا تحرج، وأشهر أمثلة ذلك الرقيق الروماني، الذي كان معاصرا لظهور الإسلام.

ثم جاء الإسلام فأعطى الرقيق ووضعه "الإنساني" بادئ ذي بدء، وعمل على تحريره بالعتق والمكاتبة –بعد أن حرره من الداخل بإحسان معاملته[1]– وجفف منابع الرق كلها إلا رق الحرب، الذي جعله بدوره يمر في قنوات التحرير كلها بعد أن يعيش فترة في المجتمع المسلم فتتطهر نفسه من أرجاس الجاهلية والشرك[2].

فما الضرورة الملجئة إلى هذا التعامل الإنساني مع الرقيق، الذي لم تفيئ الجاهلية الأوروبية إلى مثله حتى الثورة الفرنسية؟! والذي ما زالت الهند إلى هذه اللحظة عاجزة عن الارتقاء إليه في معاملة "المنبوذين"؟!

إن مبدأ خضوع الإنسان الدائم للضرورات القاهرة لا يفسر لنا شيئا من أمور الإسلام!!

* * *

ونهبط درجات من مرتقى الإسلام العالي إلى الجاهليات ذاتها، فنجد المبدأ فاسدا كذلك!

فإذا كان تاريخ الإنسان هو تاريخ خضوعه للضرورات القاهرة كما يقول التفسيران الماديان، فكيف نفسر الثورات؟

([1]) كان الإنجاز الإسلامي في تحرير الرقيق أعمق أثرا وأكثر أصالة من الإجراء السطحي الذي اتخذه أبراهام لنكولن في أمريكا بتحرير الرقيق بجرة قلم دون إعداده قبل ذلك للحرية، أي لتحمل مسئولية نفسه بعد أن يتحرر، لذلك اضطربت حياة المحررين وعاد كثير منهم إلى الذين كانوا يسترقونهم وقالوا لهم خذونا عندكم مرة أخرى أرقاء. أما الإسلام فقد حررهم من الداخل فاستساغوا الحرية حين حصلوا عليها.

([2]) اقرأ إن شئت، فصل الإسلام والرق في كتاب "شبهات حول الإسلام" مع قراءة مقدمة الكتاب – الطبعة السابعة فما بعدها.

ولسنا نتحدث هنا عن نجاح الثورة أو عدم نجاحها كما فعل التفسير الجدلي، هروبا من مواجهة قضية تنقض مبادئه وتفسيراته، إنما نتحدث عن الثورة في ذاتها سواء نجحت أم لم تنجح!

لقد قال التفسير الجدلي إن الثورة الناجحة هي التي توافق التغير الاجتماعي الاقتصادي المادي المتوائم مع أهدافها، فتجد بذلك المناخ الملائم لنجاحها فتنجح، وتعدل بنجاحها مسار البشرية، فتنقلها من طور إلى طور، وتحرر قوى كانت مكبوتة، وتقتص من قوى كانت مسيطرة متحكمة.

وما نريد أن نجادل كثيرا في هذا الأمر، فلنسلم به توفيرا للجدل مع التفسير المادي.

إنما الذي يعنينا هنا كما قلنا هو مبدأ الثورة في ذاته –نجحت أم لم تنجح– فإن عدم نجاحها لا ينفي دلالتها النفسية، بل لعله يؤكدها! فإن الذي يثور دون أن يدرس الظروف المحيطة به، وهل هي موائمة لثورته أم غير موائمة، أبلغ دلالة في ثورته على أنه لم يطق الخضوع للضغوط الواقعة عليه، من الذي حسب الظروف والملابسات ثم ثار!

إن ثورة الرقيق الروماني التي قادها "سبارتاكوس" لم تنجح، لأن الظروف المادية والاقتصادية والاجتماعية في الجاهلية الرومانية يومئذ لم تكن تؤدي إلى نجاحها. وصلب سبارتاكوس نفسه، وعذب عذابا بشعا لا يطيق وصفه أحد، فضلا عن أن يطيق احتماله أحد، ولكن تبقى دلالة الثورة كما هي رغم فشلها في تحقيق أهدافها.

لماذا يثور الإنسان إذا كان قدره في الأرض أن يخضع للضرورات المفروضة عليه من خارج كيانه؟

إن الثورة لها دلالة واضحة هي عدم خضوع الإنسان لما هو واقع عليه من الضغوط. أما نجاح الثورة أو فشلها فشي آخر يتعلق بأمور كثيرة في وقت واحد[1]، بل إنها تحمل دلالة أخرى واضحة كذلك هي الرغبة في تغيير أوضاع يرى الإنسان أنها ظالمة، وأنه لا ينبغي أن يخضع لها، واستبدال أوضاع أخرى بها، تكون أكثر ملاءمة وأنسب للكيان الإنساني وأكثر تحقيقا للحق والعدل.

([1]) سنشير إلى بعض هذه الأمور فيما يلي من هذا الفصل.

وخلاصة الأمر في جميع الأحوال أن لدى الإنسان أداة للرفض، وليس الموقف الوحيد الذي يقفه هو موقف الإذعان!

* * *

لا يزعم التفسير الإسلامي أن الإنسان يرفض الخضوع للضغوط الواقعة عليه دائما، وأنه دائما يقهر الضرورات ولا تقهره أبدا، فذلك زعم يجافي الواقع الذي عاشه الإنسان ووعاه التاريخ.

ولكن يقول التفسير الإسلامي في هذا الشأن مقالتين.

المقالة الأولى أن الضغوط تؤثر من داخل النفس البشرية، لا من خارج كيانها. فالضغوط المادية أو الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية ما كان لها أن تحدث أثرا في حياة الإنسان أو تشكل حياته لولا تحولها إلى ضغوط في داخل نفسه، وذلك من خلال المكونات الفكرية لهذه النفس، أو بعبارة أخرى من خلال شهوات النفس ورغائبها ومخاوفها، وفي مقدمتها حب السلامة والأمن، والخوف من الأذى، وكراهة الموت، وهذه هي الضغوط الحقيقية التي تستعبد الإنسان من داخل نفسه، والتي يستغلها الطغاة خلال التاريخ كله لإذلال الناس لطغيانهم.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً، إِلَّا الْمُصَلِّينَ..﴾ [سورة المعارج: 19-22].

ونؤجل الحديث الآن عن الاستثناء الوارد في الآية لنعود إليه بعد قليل، ونقول الآن إن هذا هو الغالب على أحوال الناس في الأرض.

إنهم في هلع دائم على حياتهم يخافون أن يصابوا بسوء؛ يخافون أن يفوتهم المتاع، أو تفوتهم الحياة ذاتها، فيتشبثون بها، ويرضون في سبيل المحافظة عليها بما يتعرضون له من ضغوط خارجية، أو يتحملونها كارهين دون أن يثوروا عليها أو يحاولوا تغييرها، لأن الثورة عليها أو محاولة تغييرها تعرضهم لغضب أصحاب السلطان، فتعرضهم بالتالي للأذى المخوف، أو لما هو أشد منه وهو فقدان الحياة. وبصرف النظر مؤقتا عن تصنيف الضغوط الداخلية التي تنشأ في داخل النفس من الضغوط الخارجية، لنتبين منها ما هو ضرورة قاهرة بالفعل، وما هو ضرورة ولكن يمكن الاستغناء عنها دون ضرر يذكر، وما هو منها خارج دائرة الضرورة وإن خيل للإنسان في بعض الأحيان أنه لا يمكن الاستغناء عنه.

بصرف النظر مؤقتا عن هذا التصنيف (وإن كنا سنرجع إليه) فإننا نسأل: إذا كان هذا حال معظم البشر، هلوعين جزوعين، حريصين على الأمن والسلامة ولو أسلمهم ذلك إلى الذل والخضوع لذوي السلطان، فما الفرق بين مقالة التفسير الإسلامي ومقالة التفسير المادي الذي يصور الناس خاضعين أبدا للضغوط المادية والاقتصادية لا يملكون منها فكاكا؟ أليست الحصيلة النهائية واحدة في الحالين، والواقع واحدا بالنسبة لكلا التفسيرين؟

ونبادر بالنفي.. فالحصيلتان مختلفتان في النهاية، والواقع ليس واحدا بالنسبة لكلا التفسيرين.

إنه حين تكون الضغوط خارجية.. مادية أو اقتصادية أو تاريخية، أو أيا ما كانت، وتكون مؤثرة بذاتها من الخارج تأثيرا قهريا.. فهنا تصبح المسألة "حتمية" كما يصورها التفسير المادي، وتصبح لعنة مكتوبة على البشر لا فكاك لهم منها ولا انعتاق!

أما حين تكون الضغوط الخارجية غير مؤثرة بذاتها تأثيرا قهريا من خارج النفس، إنما تتخذ ضغطها من خلال شهوات النفس ورغائبها ومخاوفها، وهي مسألة قابلة للتعديل إذا خالطتها أمور معينة أبرزها العقيدة الصحيحة في الله.. فعندئذ لا تصبح المسألة حتمية، ولا تصبح لعنة مكتوبة على الإنسان.. إنما يظل الأمل قائما في أنه إذا أصلحت النفس، بحيث لا تستولي عليها تلك الشهوات وتلك المخاوف، أو بحيث لا يكون لها قوة القهر على النفس، فإنه يمكن حينئذ تغيير الأحوال، وتقويم الاعوجاج، ورفع الظلم، وإقامة العدل، حتى يقوم الناس بالقسط.

والفارق التوجيهي –أو التربوي– ضخم جدا بين هذا التفسير وذاك.. فأحدهما ييئس الإنسان تماما من أن يصلح بنفسه شيئا من الأحوال الفاسدة، مهما فكر أو اعتقد أو عمل، والآخر يملأ نفسه أملا في الإمكان الدائم للإصلاح بحسب ما يعتقد، وما يفكر، وما يعمل.. أحدهما يخلع "الأمانة" من عنق الإنسان ويلقيها عنه، بحجة أنه مسير لا يملك شيئا من أمر نفسه، ومن ثم يخلع عنه إنسانيته، ويجعله كالأنعام أو أضل، والآخر يحمّل الإنسان أمانته، ومن ثم يحمّله إنسانيته. أحدهما يحول الإنسان مسخا مشوها خاضعا أبدا لطغيان الطغاة في الأرض، والآخر يوجهه لكي يصعد إلى آفاقه التي من أجلها خلقه الله.. ليكون خليفة في الأرض.

* * *

أما المقالة الثانية فهي أن الضغوط ليست كلها على درجة واحدة من الضغط، وأن الناس ليسوا كلهم على درجة واحدة من الخضوع للضغوط، ومن ثم يفترق تاريخ شخص عن شخص في الحياة الدنيا، كما يفترق تاريخ أمة عن أمة.. أما في الآخرة فالمدى أبعد:

(انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً) [سورة الإسراء: 21].

ونعود إلى التصنيف الذي أشرنا إليه من قبل:

إن الضغوط ليست في حقيقتها متساوية في القهر بالنسبة للإنسان.. فمنها ما هو قاهر بالفعل كضرورة الطعام والشراب.. ومنها ما هو ضروري بالفعل ولكن ليس إلى درجة القهر، كالنوم والراحة والأمن والسلامة وما أشبه.. ومنها هو كمالي يلتذ الإنسان بوجوده، ولكنه لا يمثل بالنسبة إليه قهرا ولا ضرورة، بل قد لا يكون ضررا محققا، ولكنه يتحول عند مرضى النفس إلى حاجة لا غنى عنها، أو ضرورة تصل إلى حد القهر كالسيجارة بالنسبة لمدمنها، أو الفراش الوثير عند المترف المترهل.

فإذا كان هذا حال الضغوط الداخلية التي يدوس الطغاة عليها من الخارج لتقهر الناس على الخضوع لهم.. فالناس من الجانب الآخر ليسوا سواء في الخضوع.

نستطيع –بصفة عامة– أن نقسم الناس تلقاء الضغوط إلى ثلاثة أقسام كبرى، ناشئة من ثلاثة مواقف مختلفة، فهناك أصحاب العقيدة الراسخة، الذين توهجت العقيدة في قلوبهم حتى صارت لهم نورا يمشون به في الناس.

ومنهم أصحاب عقيدة، ولكنها لا تبلغ عندهم ذلك الرسوخ ولا ذلك التوهج، فهي موجودة ولكنها ليست دائما هي صاحبة السلطان في نفوسهم، ومن ثم يتبعونها حينا، ويتبعون الهوى حينا آخر، حين يضعف أثرها فتبرز الشهوات والأهواء.

ومنهم جاهليون أولو عقيدة فاسدة، أو ليست لهم عقيدة في الله أصلا:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ، خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ، إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً، وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً، فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً، وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً، فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) [سورة الواقعة: 1-11].

وهي أقسام ثلاثة في الآخرة تمثل نهاية المطاف بالنسبة للأقسام الثلاثة الذين ذكرناهم من قبل[1].

وهي في الوقت ذاته مواقف مختلفة إزاء الضغوط التي يتعرض لها الإنسان في الحياة الدنيا، سواء كانت ضغوطا مادية أو اقتصادية أو ساسية أو اجتماعية.. إلخ.

فأما أصحاب العقيدة الراسخة فهم يكتبون سطورا بارزة في صحيفة التاريخ.. سطورا مشرقة مضيئة، تظل تتلألأ على مدى التاريخ، كتلك التي كتبها سحرة فرعون، وأصحاب الأخدود، وجيل الصحابة رضوان الله عليهم.. وهم قلة في التاريخ كله:

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [سورة الواقعة: 13-14].

ولكنهم قلة ممتازة فائقة، ترسم نماذج لاستعلاء الإنسان فوق كل الضغوط، وكل الضرورات.. حتى ضرورة الحياة! من أجل "مبدأ"، من أجل "عقيدة" من أجل "معنى" أجلّ في نفوسهم من كل متاع الأرض.. بل من الحياة ذاتها، التي من أجلها يستعبد العبيد، ويقبلون الخضوع للطغيان.

إنهم قلة، نعم، ولكنها قلة تستحق التسجيل، وتستحق الإشادة، وتستحق أن تفرد لها في سجل التاريخ صفحات وصفحات، لأنها النموذج الهادي، الذي يشد الناس إلى أعلى كلما ذكروه، أو كلما عرض أمامهم، فيحاولون الارتفاع.

وأعجب لهذه الجاهلية! تكتب مئات الصفحات لتشيد بعداء كسر الرقم القياسي لسرعة العدو.. ثم لم يصنع شيئا بعد ذلك إلا أن ظل يعدو على سطح الأرض! وتستنكف أن تخصص صفحات من أوراقها للذين كسروا حاجز الخوف، وحاجز الحرص على الحياة، وكل الحواجز التي تقف في طريق الإنسان، ليستعلوا على الأرض كلها، ويرسموا صورة واقعية للإنسان المثال!

ولقد شاء قدر الله أن يكون سحرة فرعون، وأصحاب الأخدود، وأمثالهم مواقف فردية، يحققون الإنسان المثال في ذوات أنفسهم، ويمضون رافعي الرؤوس إلى ربهم.. وأن يكون

([1]) واضح أن الترتيب في الآيات قد وضع "أصحاب الميمنة" مقابل "أصحاب المشأمة" ثم خص "السابقين" بذكر خاص.

صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم نماذج تحقق منهج الحياة الرباني كاملا، بالإضافة إلى تحقيقهم في ذوات أنفسهم أرفع ما يصل إلى ذروته الإنسان.

والحكمة في ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين، فلا نبي بعده، وأنه مرسل إلى البشرية كافة لا إلى قوم معينين في زمن معين:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [سورة الأحزاب 40].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [سورة الأعراف: 158].

وقد اكتمل الدين فلا إضافة:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [سورة المائدة من الآية: 3].

فاقتضت حكمة الله أن تقوم أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما كان يقوم به الرسول عليه الصلاة والسلام من التبليغ والدعوة والتطبيق العملي لهذا الدين في واقع الأرض، والجهاد في سبيل ذلك كله. وأن يكون الجيل الذي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النموذج الفذ الذي يحمل هذه المعاني كلها، ويمثلها أكمل تمثيل.

وكذلك كان ذلك الجيل بالفعل..

وحقيقة أنه —حتى الآن– لم يتكرر.. وقد لا يتكرر بصورته نفسها إلى نهاية حياة البشر على هذه الأرض، وإن كان التاريخ الإسلامي لم يخل قط من نماذج فردية على ذات المستوى الرفيع الذي كان عليه ذلك الجيل، تحقيقا للتقرير الرباني: **﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾** ومع ذلك فقد كتب ذلك الجيل التاريخ!

لا تاريخ نفسه فحسب بل تاريخ الإسلام! فتاريخ الإسلام في الحقيقة هو الامتداد الحي لما حققه ذلك الجيل الفذ من إنجاز إنساني فائق رائع المثال.

وقد انحرف المسلمون انحرافات شتى في تاريخهم، تجمعت في حقبتهم الأخيرة فحولتهم غثاء كغثاء السيل، كأنهم أمة أخرى غير أمة الإسلام[1] ولكن هذه لم تكن النهاية، بل جاءت الصحوة الإسلامية لترد الأمة إلى دينها وعقيدتها وتاريخها وذاتيتها[2] وكان المشعل الذي استضاءت به هذه الصحوة –ككل صحوة سابقة– هو ذلك التاريخ الفريد، لذلك الجيل الفريد.

من أجل ذلك يستحق هذا الجيل أن يفرد له فصل خاص في تاريخ البشرية، تسلط فيه الأضواء على كل جزئية من جزئياته، وكل دقيقة من دقائقه، لأنه في كل جزئية وفي كل دقيقة مثال، ولأنه منهج حياة كامل.. يعطي النموذج الفذ في كل جانب من جوانب الحياة.

فهذا الجيل هو الذي حقق –بعقيدته– أعظم تغيير وقع في تاريخ البشرية، بغير بواعث بشرية، فقرر مبدأ ينقض كل المبادئ الجاهلية التي تقدمها التفاسير الجاهلية للتاريخ، هو أن العقيدة –وحدها– حين تتوهج في قلوب أصحابها كما توهجت في قلوب ذلك الجيل، يمكن –على هدى الوحي الرباني– أن تنشئ قيماً سياسية جديدة، وقيماً اجتماعية جديدة، وقيماً اقتصادية جديدة، وقيماً فكرية وأخلاقية جديدة، غير مسبوقة من قبل، ولا هي "تطور" لواقع كان موجوداً من قبل.. وغير مرتكزة على شيء إلا على كيان "الإنسان" بعد تصحيح كيانه ورده إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

أي أنه حقق ما يقول التفسير المادي الجدلي إنه المستحيل!

أما التفسير الإسلامي فيقول إنه واقع فذ ولكنه غير مستحيل! بل يقول إنه واقع قابل للتحقيق كلما تحققت أسبابه في نفوس البشر.. وإن البشر هم المسؤلون عن تحقيقه، أو على الأقل عن محاولة التحقيق!

لذلك يعنى التفسير الإسلامي للتاريخ بهذا الجيل الفريد خاصة، حتى وإن كان لم يتكرر مرة أخرى في التاريخ! ويعطيه من الوزن أكثر مما يعطي قرونا بأكملها في تاريخ إمبراطورية جاهلية، أبدعت ما أبدعت في عالم المادة، وبلغت ما بلغت من عبقرية "العلم" وعبقرية السياسة وعبقرية الحرب وعبقرية التنظيم.. ثم تركت الإنسان أولا وآخراً لاصقا بالطين، يتحرك حركته الواسعة وهو لاصق بالطين!

([1]) انظر فصل "خط الانحراف" من كتاب "واقعنا المعاصر".

([2]) انظر فصل "الصحوة الإسلامية من الكتاب ذاته.

* * *

القسم الثاني من البشر هم المؤمنون العاديون.. أصحاب عقيدة، هي ذات العقيدة التي فعلت فعلها في نفوس ذلك الجيل، ولكنها لا تفعل في نفوسهم ما فعلت في نفوس ذلك الجيل الفريد، لأنهم لا يأخذونها بالجدية ذاتها، ولا الصفاء ذاته، ولا التوهج ذاته الذي أخذها به الجيل الأول.. وإن كان تاريخ الإسلام لم يخلُ –كما قلنا– من نماذج فردية فذة ترتفع إلى ذلك المستوى الرفيع.

هؤلاء تاريخهم خليط من الهبوط والرفعة. من الإقبال والإدبار. من الخير والشر. من العظمة والتفاهة. من الجد والهزل. من الاستقامة والانحراف.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [سورة فاطر: 32].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [سورة الأنعام: 132].

ونأخذ نموذجا لهم ما يقرب من اثني عشر قرنا من قرون الأمة الإسلامية بعد الصحابة والتابعين –رضوان الله عليهم– ونستثني –مؤقتا– القرنين الأخيرين من حياة المسلمين، والقرن الأخير خاصة، الذي انقلب غثاء كغثاء السيل، حتى نعود إليه بعد حين.

إن وضعهم –بالنسبة للضغوط الواقعة عليهم– ليس وضع المستعلى الذي كان عليه الجيل الأول، ولكنه في الوقت ذاته ليس موقف المستخذي الخانع الذي يمكن أن تكون عليه الجاهلية التي لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر.

إن وضعهم قائم بإزاء الضغوط.. لا فوقها ولا تحتها.. تارة تغلبهم وتارة يغلبونها، أي أنهم –بعبارة أخرى– يخضعون لشهوات نفوسهم ورغائبها ومخاوفها تارة، ويستعلون على تلك الشهوات والرغبات والمخاوف تارة أخرى، فتتأرجح حياتهم بين الهبوط والرفعة، بين الإقبال والإدبار، بين الخير والشر. بين الاستقامة والانحراف. وليس هنا مجال التأريخ، فإنما نحن هنا نتحدث –في عجالة– عن التفسير الإسلامي للتاريخ ولكن لا بد لنا من بضع إشارات:

لقد بقي المجتمع الإسلامي –على الرغم من كل ما وقع فيه من انحرافات –بعيدا عن صورة الإقطاع الأوروبي الذي يملك فيه الإقطاعي الأرض ومن عليها من عبيد الأرض، الذين لا يملكون حق الانتقال إلا بإذن السيد، والذين يمثل السيد بالنسبة إليهم السلطة التشريعية

والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية، والذين يجب عليهم أن يطحنوا غلالهم في مطحنته، ويقدموا إليه الهدايا الإجبارية في الأعياد والمواسم، والذي له في كل زيجة حق الليلة الأولى، يلغ في أعراض العبيد بغير رادع..[1]

وكان الذي حماهم من "حتمية" الإقطاع المزعومة تحاكم ذلك المجتمع إلى شريعة الله، برغم كل الظلم الواقع عليهم من حكامهم، الناشئ من تجاوز أولئك الحكام –فيما يتعلق بأشخاصهم– لحدود الله. فهم يتجاوزون حدود الله نعم، ولكن الناس –في ظلهم– يتحاكمون فيما بينهم بشريعة الله، فتحميهم شريعة الله من الوقوع في "حتميات" التاريخ!

وبقي هذا المجتمع –برغم كل ما وقع فيه من انحرافات– مجتمعا يحرص على نشر العلم، يفتح المدارس، ويوقف عليها من الأوقاف ما يكفل للمتعلمين والمعلمين معاشهم من مسكن وملبس ومطعم، ليخلصوا لطلب العلم وحده غير مشغولين عنه بمشاغل الرزق، وذلك قبل أن تنهض أوروبا نهضتها، وتعرف قيمة العلم، وقبل أن تأذن الأرستقراطية الإقطاعية فيها بتعليم العبيد.

وبقي المجتمع –رغم كل انحرافاته–نظيفا إلى حد كبير من الفاحشة الخلقية، بسبب التزامه بتعاليم دينه في أمر الحجاب، ومنع الاختلاط والتبرج، والزواج المبكر الذي يحصن الشبان والفتيات ويبعدهم عن التفكير في الفاحشة.

وبقي مجتمعا متآخيا متكافلا مترابطا. يخرج المسلم فيه من الغرب حتى يصل إلى أندونيسيا لا يقفه حاجزا واحد من حواجز "الحدود السياسية" أو "القومية" أو "الوطنية".. يستقبل بالترحاب، ويودع بالمودة، حتى يصل إلى هدفه من رحلته، سواء كان هدفه طلب العلم، أو التجارة، أو الدعوة في سبيل الله، أو السياحة في الأرض..

وبقي –برغم كل ما اعتوره من اضطراب الأمن عند ضعف سلطان الدولة –أقل مجتمعات الأرض جرائم، وأكثرها طمأنينة وأمنا، وأكثرها بركة، وأكثرها راحة بال.

وكان السبب في ذلك كله أن أهله يحاولون جهدهم –برغم تقاعسهم وتخاذلهم– أن يلتزموا بتعاليم دينهم، فيغلبون نفوسهم أحيانا، وتغلبهم نفوسهم أحيانا. فيهبطون –قليلا أو كثيرا– عن مجتمع الذروة، ولكن يظلون في مجموعهم أعلى وأفضل من الجاهليات.

([1]) راجع وصف الإقطاع في أوروبا في أي مرجع تاريخي يتكلم عن أوربا في العصور الوسطى.

ثم نأتي إلى القرنين الأخيرين، والقرن الأخير خاصة حيث نحيت شريعة الله في معظم الأرض الإسلامية، فنجد انتكاسا ذريعا في أحوال الأمة يحولها إلى ذلك الغثاء الذي أنذرها به –وحذرها منه– رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل. ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟قال حب الدنيا ومخافة الموت"[1]

ونجد خضوعا ذريعا للضغوط.. سواء كان ضغط الاستعمار الصليبي، أو ضغط الغزو الفكري (الذي يسمى الثقافة)! أو ضغط الفساد الخلقي (الذي يسمى الحضارة)! أو غير ذلك من الضغوط المادية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية.. الخ. ذلك لأن أثر العقيدة كان قد خبا في النفوس، فلم يعد لها ضغطها الذي يوازن تلك الضغوط، فضلا عن أن يوقفها ويتغلب عليها. ونجد المجتمعات الإسلامية بذلك قد دخلت في جاهلية أسوأ من جاهلية الغرب فلا هي تحكم شريعة الله، ولا هي تملك أسباب القوة التي يمكّن الله بها الكفار حين يجتهدون فيها.

ثم تجيء الصحوة الإسلامية فتبدأ صفحة جديدة في التاريخ.

وإنها ما زالت في بدايتها.. وما زالت تخوض معركة قاسية مع أعدائها المتكتلين لإبادتها، ولكنها ترسم خطا بارزا من خطوط التاريخ، لأنها تستعلي بروحها على كل الضغوط.

إنها تحارب حربا بشعة، من أبشع ما وجه للدعوات في التاريخ. ويعذب أصحابها عذابا وحشيا فوق طاقة البشر.. وتقدم الضحايا تلو الضحايا.. ولكنها تقف مستعلية على متاع الأرض كله، بل على رغبة الحياة ذاتها.. وتعطى النموذج الفذ مرة أخرى: نموذج سحرة فرعون، وأصحاب الأخدود، والجيل الإسلامي الفريد..

وسوف يمضي الله بها قدره، إن استقامت على الطريق، إن ظلت مستعلية على الضغوط. وقدره هو التمكين لدينه في الأرض:

([1]) سبقت الإشارة إليه.

﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً**﴾ [سورة الفتح: 28].

وإلا فسوف يستبدل بها قوما آخرين يستقيمون على الطريق:

﴿**وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾ [سورة محمد: 38].

﴿**وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [سورة يوسف: 21].

أما القسم الثالث من البشر فهم الجاهليون، الذين لا يحكمون شريعة الله ومنهجه في الحياة. وهؤلاء الأصل فيهم هو الخضوع للضرورات، لأنهم بغير عقيدة في الله واليوم الآخر، يستعلون بها عليها، ويحتمون بها من ضغوطها. كما أن الأصل فيهم هو الخسر:

﴿**وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [سورة العصر: 1-3].

وهؤلاء يصدق عليهم ابتداء ما يقوله التفسير المادي للتاريخ من أن الظروف الخارجية هي التي صاغت لهم حياتهم، وحددت لهم أنماط سلوكهم، ونقلتهم من طور إلى طور. وإن كنا —حتى مع الجاهليات– نتحفظ تحفظين اثنين على هذا التفسير:

الأول: أن الظروف الخارجية لا تؤثر على الإنسان إلا من خلال نفسه، فإذا وجد في وقت من الأوقات أن تأثيرها هو الغالب، أو أنها تملى فيستجاب لها، فليس ذلك لقوة قاهرة فيها كما يصورها التفسير المادي، وإنما لأن الناس في الجاهليات لا يقاومون ضغوطها، ولا يستعلون عليها، لأنهم بغير عقيدة في الله واليوم الآخر. والعقيدة في الله واليوم الآخر هي أقوى العوامل التي يمكن أن تجابه الضغوط الخارجية (التي تتحول إلى ضغوط داخلية حين تنفذ إلى النفس من خلال رغباتها ومخاوفها) فتلغي تأثيرها، أو في القليل تصطرع معها فتغلبها مرة وتنهزم أمامها مرة. وفي غياب هذه العقيدة تكون "البيئة" بكل محتوياتها: السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي صاحبة الأثر الأقوى، لا لأية حتمية من حتميات التفسير المادي، ولكن لأنها تعمل دون مقاومة فتنفد بالتأثير، وتبدو للنظرة السطحية كأنها —في جميع أحوالها– قوة قاهرة لا تغلب.

والتحفظ الثاني أنه حتى في غياب العقيدة الصحيحة في الله واليوم الآخر، فإن هناك حدوداً للضغوط الخارجية لا يمكن أن تتجاوزها مهما يكن لها من ضغط، وهي حدود الكيان الإنساني ذاته، الذي ينفجر بالثورة آخر الأمر حين يتجاوز الضغط مداه.

ولكن الذي يجعل الناظر السطحي، أو المتعجل، يغفل هذه الحقيقة هو مرونة ذلك الكيان، وتحمله لكميات هائلة من الضغوط قبل أن ينفجر بالثورة، وإمكان مرور أجيال بكاملها قبل أن يحدث الانفجار!

وكأنما هناك دورة منتظمة لسنن الله في هذا الشأن:

يحدث الطغيان أول مرة فتثور ضده نفوس، فيعنف الطغيان لإسكات المقاومة فيسكت الناس بعامل الخوف. ثم تولد أجيال في ظل الطغيان تأخذه على أنه أمر واقع، فتتشكل به حياتهم، وتنطبع به نفوسهم، ويأخذ جولته "التاريخية".. ويغريه استنامة الناس له فيشتد طغيانه.. وهنا تبدأ أكثر النفوس إباء فتتمرد عليه، فتزداد قسوته للفتك بالمقاومة الناشئة، حتى يأتي يوم يستوي عند الناس أن يعيشوا أو أن يموتوا.. وهنا يكسرون حاجز الخوف.. فيحدث الانفجار. وبصرف النظر عما يقوله التفسير المادي عن الظروف اللازمة لنجاح الثورة، فإننا هنا نتحدث عن دلالة الثورة في ذاتها كما أسلفنا القول، لننفي أن الضغوط الخارجية لها قوة قاهرة على النفس البشرية كما يصور التفسير المادي للتاريخ.

ثم نعود إلى مناقشة قضية الظروف اللازمة لنجاح الثورة فنقول إنه في الجاهليات يحتاج الأمر بالفعل إلى ظروف مادية واقتصادية وسياسية معينة لنجاح الثورة، لأن قوى الصراع كلها من نواع واحد، فينبغي أن تتكافأ أولا ليكون للصراع بينها معنى، ثم ينبغي أن تكون الظروف في صف القوى الثائرة لتتمكن من التغيير، وإن كان تغييرها يظل دائما جزئيا وغير شامل.

أما في حالة وجود العقيدة الصحيحة في الله واليوم الآخر فالأمر يختلف، وليس الاختلاف ناشئا من إلغاء قاعدة التكافؤ في الصراع، فهذه سنة من سنن الله، لا يلغيها شيء. وإنما ينشأ الاختلاف من "ثقل" العقيدة في ميدان الصراع:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ، الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: 65-66].

وينشأ كذلك من ثقل العقيدة في ميدان التغيير. فالمنهج الرباني ليس تغييرا جزئيا في بعض مجالات الحياة: السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، كما هو الحال في الثورات التي تحدث في الجاهليات من أجل التغيير. إنما هو تغيير شامل يغير الحياة من الجذور.. من

الأساس.. يغيرها من عبادة غير الله إلى عبادة الله —في العقيدة– ومن عبادة البشر بعضهم لبعض إلى عبادة الله– في الاتباع (أي في التشريع)– ومن ثم تكن قوة التغيير أكبر بكثير، وأعمق بكثير، وأفعل بكثير، من قوته حين يكون تغييرا جزئيا في بعض جوانب الحياة.

ومن ثم تحدث تلك المعجزة التي حدثت في التاريخ، مخالفة لكل قواعد التفسير المادي للتاريخ، وهي حدوث التغيير الشامل الذي أحدثه الإسلام بغير بواعث بشرية في البيئة، ولا في الظروف المادية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية.. وهو أعظم تغيير حدث في التاريخ.

* * *

وخلاصة الأمر في قضية الضغوط أن تاريخ البشرية ينقسم بادئ ذي بدء إلى قسمين رئيسيين: تاريخ الإسلام وتاريخ الجاهلية. ثم ينقسم تاريخ الإسلام إلى فترات التوهج العقيدي وفترات الوجود العادي، كما ينقسم تاريخ الجاهلية إلى فترات التبلد والاستنامة للضغوط، وفترات الثورة عليها.

فأما تاريخ الإسلام بشعبتيه فيمثل الإنسان في واقعه الأعلى، بدرجات مختلفة تختلف بمدى توهج العقيدة. وأما تاريخ الجاهلية بشعبتيه فيمثل الإنسان في واقعه الأدنى، بدرجات مختلفة تختلف بمدى وعي الناس بما يحيق بهم من الفساد والظلم، ومدى استعداداهم للتغيير.

ويظل تاريخ الإسلام هو الفترة المضيئة في تاريخ البشرية، التي يحقق فيها الإنسان وجوده الحقيقي، ومهمته التي خلق من أجلها، والتكريم الرباني الذي منحه الله إياه.

ويظل تاريخ الجاهلية هو الفترة المظلمة في تاريخ البشرية، مهما حاول الجاهليون إضاءتها بالتقدم المادي أو العلمي، أو القوة الحربية أو السياسية أو الاقتصادية.. ومهما أحدثوا من محاولات الإصلاح الجزئية التي قد تغير شراً بشر أشد!

والجاهلية المعاصرة هي المثال الأوضح.. فقد تجمع لها من التقدم المادي والعلمي، وأسباب القوة الحربية والسياسية والاقتصادية ما لم يتجمع لأحد في التاريخ.. ولم يستعبد الإنسان لمخاوفه وشهواته، وللضغوط الواقعة عليه، كما استعبد في هذه الجاهلية بالذات.. ولم يتخبط في محاولة "الإصلاح" بقدر ما تخبط في هذه الجاهلية بالذات.

وتتبين بوضوح تلك الحقيقة التي لا يدركها إلا المؤمنون بالله واليوم الآخر، وهي أنه بقدر تحقيق الإنسان العبودية الخالصة لله تكون درجة تحرره من كل عبودية في الأرض لبشر،

أو لقوة مادية أو اقتصادية أو سياسية أو كائنة ما كانت، وتكون درجة انعتاقه من ضغط الضرورة، وانطلاقه إلى الآفاق العليا الجديدة "بالإنسان".. وأنه يحقق من الخير في الأرض — لنفسه ولبني جنسه– بمقدار انعتاقه من ذلك الضغط، وانطلاقه في تلك الآفاق.. وله فوق ذلك جزاء الآخرة: الفوز بالجنة والانعتاق من النار.

صراع الحق والباطل

يحفل التاريخ البشري بألوان مختلفة من الصراع، سواء صراع فرد وفرد، أو فرد وجماعة، أو جماعة وجماعة، أو أمة وأمة، أو جيل وجيل.

ويبدو للوهلة الأولى أن الصراع سنة من سنن الله في الأرض، وأن الحياة لا تخلو في لحظة من لحظاتها من وجود صراع فيها بين بعض البشر وبعض، بل بين بعض الكائنات وبعض.

ولكن ما يبدو للوهلة الأولى يحتاج إلى تدقيق، على الأقل فيما يختص بعالم "الإنسان". فقد يكون الصراع أمرا واقعا في الحياة البشرية، لا يخلو منه جيل من أجيال التاريخ، ولكن هذا ليس معناه أن كل صراع مشروع كما يقول التفسير الليبرالي، أو في القليل يحمل مبرر وجوده بمجرد وجوده كما يقول ذلك التفسير صراحة أو ضمنا، وليس معناه كذلك أن الصراع هو الوضع الوحيد للإنسان بدعوى أن التناقض من قوانين المادة، فهو يحكم الحياة البشرية بحكم نشأة الإنسان من المادة كما يقول التفسير الجدلي.

إنما أوجد الله الصراع –أو التدافع– في حياة البشر، وجعله سنة من سننه التي يجري بها الحياة البشرية، لغاية معينة.. ومن ثم فهو صحيح ومشروع، بل مطلوب وواجب حين يؤدي تلك الغاية، وهو فاسد، وغير مشروع حين يحيد عن الغاية..

قال تعالى:

﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة: 251].

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [سورة الحج: 40-41].

هذا هو التدافع المطلوب.. وتلك حكمته وغايته.

والحياة بدونه تتعرض للفساد، كما جاء صراحة في آية سورة البقرة. ويحدث الفساد من أسباب متعددة في وقت واحد. فالإنسان –بطبعه– ميال للتفلت من التكاليف، ما لم يدفعه دافع إليها، لأن التكاليف حمل يحمل، وقيد على شهوات الإنسان المحببة إلى نفسه:

﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ [سورة آل عمران: 14].

وإذا تفلت الناس من التكاليف ولم يدفعهم دافع إلى الالتزام بها، وركن الناس إلى شهواتهم، فسدت الأرض بهذه الشهوات غير المنضبطة، و"ظهر" الفساد بمعنى تمكن واستفحل:

﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾ [سورة الروم: 41].

ثم إن الطغيان طبيعة في بعض البشر، إن لم يكن في كلهم إذا وجدت دواعيه:

﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾ [سورة العلق: 6-7].

أي جنس الإنسان كله.. إلا الذين استثنتهم الآيات في قوله تعالى: ﴿**إِلَّا الْمُصَلِّينَ**﴾ [سورة المعارج: 22] ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [سورة العصر: 3].

والطغيان يؤدي إلى الفساد. وأول فساد وأعظمه تأله بعض البشر واتخاذ الباقين لهم أربابا من دون الله، يحرمون لهم ويحلون بغير ما أنزل الله، فيتبعونهم، فيظهر الفساد في الأرض..

والأمران معا يحدثان في كل جاهلية.

ففي كل جاهلية طغاة يحكمون بغير ما أنزل الله، وعبيد يأتمرون بأمرهم ويتخذونهم أربابا لهم. وفي كل جاهلية كذلك فساد خلقي ينشأ من تفلت الناس من التكاليف إزاء شهوة المال وشهوة الجنس، وشهوة الاستمتاع بلا ضوابط..

ولا بد من قوة مقابلة تدفع هذا الفساد. قوة المؤمنين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويجاهدون الفساد في الأرض، سواء كانت صورته هي طغيان التأله أو الانفلات مع الشهوات.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحديد: 25].

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ [سورة آل عمران: 110].

وظاهر من تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الآية على الإيمان بالله الذي لا يتقدم عليه شيء في هذا الدين، أن لهذا الأمر أهميته القصوى في ميزان الإسلام، بل كأنما يراد أن يقال في الحقيقة إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الخلاصة الحقيقية أو الترجمة الحقيقية لهذا الدين في عالم الواقع. فهو الأداة البشرية التي اختارها الله لتمكين الحق وإزهاق الباطل وتغيير المنكر وإقامة حياة الناس في الأرض بالقسط.

وكما قلنا من قبل فإن الله لا يعجز عن إزالة الفساد من الأرض، بغير بشر يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجاهدون في سبيل الله، لأنه يقول للشيء كن فيكون. ولو شاء الله لخلق البشر منذ البدء بحيث لا يعصون ولا ينحرفون، ولو شاء لقهر الناس على الهدى والاستقامة. ولكن مشيئة الله قد اقتضت أن يكون الإنسان حرا في نطاق معين، يختار لنفسه الهدى أو الضلال ثم يحتمل تبعة اختياره. فترتب على هذه المشيئة ابتداء أن يكون في الناس محسنون ومسيئون.

ثم اقتضت مشيئته كذلك أن يجري قدره في الحياة البشرية من خلال أعمال الإنسان، فترتب على ذلك أن يتم دفع الفساد الذي يحدثه فريق من البشر من خلال عمل يقوم به فريق آخر من البشر، فيبتلى هؤلاء بهؤلاء بقدر من الله.

﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: 35].

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس: 99].

﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [سورة محمد: 4].

من أجل ذلك جعل الله التدافع بين الناس سنة من سننه لكي لا تفسد الأرض، أو لكي لا يستقر الفساد في الأرض إن قام به فريق من البشر، بل تقوم فئة أخرى من البشر دائما بمدافعته فلا يستقر.

ليس كل صراع إذن مشروعا ولا مطلوبا في حياة البشر.

بل إن معظم الصراع الذي يقع في الأرض هو من الفساد الذي ينهى الله عنه، ويأمر بالجهاد لإزالته.

يتصارع الناس -في جاهليتهم- على متاع الأرض.

والمتاع في ذاته ليس مرذولا ولا ممنوعا ولا محرما:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة الأعراف: 32].

﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [سورة البقرة: 36].

ولكن الله رسم للمتاع حدودا يعلم سبحانه أنها ترضي الكيان الذي خلقه بعلمه، ويعلم مصلحته وحاجته، ولا تؤدي في الوقت ذاته إلى الفساد في الأرض ولا في الأنفس، وبين هذه الحدود في "الهدى" الذي يتنزل من عنده.

﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: 38].

وحين يلتزم الناس بالمنهج الرباني ينحسر الصراع -في المجتمع المسلم- إلى نهايته الصغرى، إن تعذر أن يزول بالمرة.. وهو في الحقيقة لا يزول أبدا -حتى في المجتمع المسلم- لأن الناس لا يصبحون قط ملائكة مهما تعمق الإيمان في قلوبهم، فهم بشر خطاءون في جميع الأحوال وإن كانوا -لإيمانهم- سريعي الأوبة إلى الرشد:

"كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون"[1]

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [سورة آل عمران: 135-136].

لذلك يقع بينهم الصراع الذي قد يؤدي إلى القتال، كما وقع بالفعل في صدر الإسلام، لكنه لا يكون مسفا، ولا يكون على سفاسف الأمور، ولا يهبط بمجموع الناس عن قيمهم العليا، ولا يجعل الناس يخرجون من الإيمان. وإلى ذلك تشير الآية من سورة الحجرات:

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الحجرات: 9-10].

وهكذا يحدث الصراع في المجتمع المسلم الملتزم خلافا للأصل، ولكنه لا يبعد مجموع الناس عن مقتضيات الإيمان، ولا يخرجهم منه، ويعودون بعده إلى الأخوة التي تجمع المؤمنين.

وقد كان من عجائب الصراع الذي وقع بين علي ومعاوية أن عليا كرم الله وجهه كان إذا حل المساء وانفصل الجيشان جمع القتلى من الفريقين فصلى عليهم، ثم سلم العدو جثث قتلاه ليدفنوها! وهو أدب نفسي رفيع لا يعرفه إلا من ذاق حلاوة الإيمان، وارتفع إلى الآفاق العليا التي يرفع الإيمان إليها القلوب.

يحدث الصراع في المجتمع المسلم الملتزم خلافا للأصل، ولكن لا يشغل الناس عن القيم الأصيلة في ذلك المجتمع.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: 71].

([1]) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والدارمي.

فيظل المجتمع عامراً بألوان من القيم لا يعرفه الناس إلا في ظل الإسلام.

إلا أن يحدث انحراف شديد لا يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتدركه سنة الله، كما أدركت المجتمع الإسلامي بالفعل، فأصبح غثاء كغثاء السيل.

* * *

أما المجتمعات الجاهلية فالأصل فيها هو الصراع!

والسبب في ذلك أنها لا تلتزم أصلا بالمنهج الرباني، الذي يخفف الصراع في الأرض إلى أقصى حد ممكن، ولا تلتزم بالحدود التي رسمها الله للبشر ليمارسوا في داخلها المتاع المباح.

وحين يتجاوز الناس الحدود المرسومة يقع الصدام لا محالة، ويقع الصراع، ويصبح هو الأصل في حياة الناس. يتصارع فرد مع فرد للاستحواذ على قدر أكبر من المال، أو من السلطة، أو من المزايا التي يتيحها المال والسلطة!

وتتصارع جماعة مع جماعة.. وأمة مع أمة..

وتملأ الحروب الأرض، ولكنها حروب لا تهدف إلى إحقاق حق أو إزهاق باطل.. ولا يختلف فيها الغالب عن المغلوب إلا في العدد والعدة وطول النفس في الصراع! أما القيم فهي القيم المادية الهابطة، التي تهبط مع الغالب وتهبط مع المغلوب!

ولا ينفي ذلك بطبيعة الحال أن يقع في الجاهليات بين الحين والحين صحوة ضمير وسعي إلى قيم أعلى من المتاع الرخيص.

يقول صلى الله عليه وسلم: "دعيت إل حلف في الجاهلية لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت".

يقصد بذلك حلف الفضول، الذي اجتمعت فيه بعض القبائل وتحالفت على نصرة المظلوم ورد الحق إلى صاحب الحق، وهي صحوة نادرة من صحوات الضمير في الجاهليات، حيث الأصل الدائم هو العدوان.

نعم، يحدث بين الحين والحين أن تقوم صراعات في الجاهلية من أجل معنى من المعاني الجديرة "بالإنسان".. ولكنها قليلة ونادرة، وسرعان ما تطويها الجاهلية في لجتها، ويطويها النسيان، وتبقى الصراعات المدمرة التي تنشر الفساد في الأرض.

فأما التفسير الليبرالي، المتأثر بجانب من الداروينية فهو لا يرى في ذلك الصراع أمرا واقعا فحسب، بل أمرا مشروعا كذلك، دون نظر إلى أي قيم مصاحبة. إنما هو الصراع من أجل البقاء. فمن حق كل كائن أن يبقى، ومن حقه أن يصارع غيره من أجل أن يبقى. ويزيد الأمر سوءا في هذا التفسير فيأخذ من الداروينية قول دارون: Survival of the Fittest التي ترجمت بمعنى "البقاء للأصلح" وفسرت بأن الذي يبقى في هذا الصراع هو بالضرورة أصلح المتصارعين وأحقهم بالبقاء!

وبصرف النظر عن التأويل المضلل لقولة دارون –على فرض صحتها– فإن دارون لم يكن يتكلم عن عالم الإنسان وما يحدث فيه من صراعات. إنما كان يتكلم بصفة خاصة عن عالم الحيوان (وإن كان كلامه يشمل عالم النبات أيضا) وكان يقول: إنه حين تحدث تحولات في البيئة، أو تحولات في تركيب أجسام الكائنات ووظائفها، فإن أنسب الكائنات لبيئته التي هو فيها هو أقدرها على البقاء ومقاومة أسباب الفناء والاندثار. فالصلاحية التي عناها دارون هي التلاؤم مع ظروف البيئة المحيطة، وليست صلاحية ذاتية ولا مزية ذات أفضلية. فإذا حدثت ظروف كالتي حدثت في العصور الجيولوجية القديمة، فقضت على الأعشاب مثلا نتيجة الجفاف، وأبقت الأشجار فقط، فإن الحيوانات التي يمكنها تركيبها الجسدي من اقتطاف أوراق الشجر هي التي تستطيع أن تعيش، لأنها هي الأنسب لتلك الظروف، بينما تندثر الكائنات التي لا تستطيع أن تطول أوراق الشجر، لأنها لا تناسب الظروف، بصرف النظر عن كونها أرقى أو أدنى من الأخرى في سلم "التطور"..

ولكن الرأسمالية أخذت الكلمة فحرفت معناها، وجعلتها تعني المزية والأفضلية، فأضفت على الصراع الجاهلي المدمر شرعية، ثم زعمت أن من يتغلب في هذا الصراع هو الأصلح للبقاء!!

وفسرت بمقتضى ذلك كل التاريخ! وأصبح المقياس الأول لكل وجود تاريخي هو الزمن والتراب! بمعنى أن الأمة أو الشعب، أو الكيان السياسي الذي يبقى فترة من الزمن أطول، ويحتل مساحة من الأرض أكبر، هو بالضرورة هو "الأفضل" و"الأصلح" بصرف النظر عن مضمونه ومحتوياته!

ومن هنا يختفل ذلك التفسير احتفالا ظاهرا بالجاهليات التاريخية كلها، لأنها امتدت فترة غير قصيرة من الزمن واحتلت مساحة واسعة من الأرض، وإن كان يختص من بينها الجاهلية الفرعونية والجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية، ويضفي عليها من آيات المديح ما

يخيل للقارئ أنها هي التاريخ! أو على الأقل التاريخ الماضي[1]، بينما التاريخ الحاضر هو الجاهلية المعاصرة! أما بقية الدنيا، وبقية البشر فهم على هامش التاريخ!

وصحيح أن البقاء يحمل دائماً مزية ما. وأنه أحيانا يعني الأفضلية بالفعل، كما تشير الآية الكريمة:

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ) [سورة الرعد: 17].

ولكن البقاء وحده لا يحمل معنى الأفضلية في جميع الأحوال حتى تجتمع معه عوامل أخرى أساسية ومهمة. وذلك إذا رجعنا إلى سنة الإملاء التي يملي بها الله للطغيان والكفر، والفساد والانحراف، فيبقى في الأرض فترة تطول أو تقصر.. لحكمة يريدها الله.

والتفسير الليبرالي إذ يغفل سنة الإملاء لأنه –كزميله التفسير الجدلي– يفسر التاريخ بعيدا عن سنن الله وقدره، فإنه يسوي بين نوعي الوجود ونوعي البقاء: البقاء للكيان الذي يكون صالحا بالفعل، والبقاء المؤقت –وإن استمر عدة قرون– للكيان الفاسد المنحرف رغم فساده وانحرافه، بل قد يزداد الإملاء له كلما زاد فساده.. إلى أمد محدود عند الله.

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [سورة الأنعام: 44-45].

إنما ينبغي وضع معايير أخرى إلى جانب معيار البقاء، ليتبين إن كان يجري على سنة البقاء للأصلح" –وهي سنة ربانية بالفعل– أم على سنة الإملاء للكفر والطغيان والظلم، وهي سنة ربانية كذلك، والفرق بينهما واضح في الحياة الآخرة، حيث النعيم المقيم للذين كانوا صالحين في الحياة الدنيا بالمقياس الرباني، والعذاب المقيم للذين كان بقاؤهم في الحياة الدنيا بقاء الإملاء والاستدراج. ولكنه واضح كذلك في الحياة الدنيا لا تخطئه عين الفاحص، حيث البركات المفتوحة من السماء والأرض، والطمأنينة التي تملأ القلوب، للنظم والأمم التي يكون بقاؤها جاريا على سنة "البقاء للأصلح" وهي الأمم المؤمنة، المنفذة للمنهج الرباني.

([1]) هناك جاهليات أخرى يشيد بها التفسير الليبرالي للتاريخ كالجاهلية الآشورية، والجاهلية الهندية، والجاهلية الصينية، ولكنه أشد إشادة ولا شك بالجاهلية الفرعونية والإغريقية والرومانية.

وحيث المعيشة الضنك –حتى في ظل الرخاء الاقتصادي[1]– والقلق والاضطراب والحيرة، والصراعات المدمرة والشهوات غير المنضبطة، والهبوط عن المستوى اللائق بالإنسان، في النظم التي يتحقق لها البقاء فترة من الوقت على سنة "الإملاء" للظالمين..

وقضية "الغلبة" كذلك.. وهي صنو قضية "البقاء".

فالتفسير الليبرالي يتخذها مقياسا من مقاييس الأفضلية، فيجعل الغالب –في معظم الأحوال[2]– هو الأفضل، وقد تكون الغلبة بالفعل للأفضل، تحقيقا لقوله تعالى: (**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ، وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**) [سورة الصافات: 171–173].

(**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**) [سورة الأنبياء: 105].

(**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**) [سورة المجادلة: 21].

ولكن الغلبة قد تكون أيضاً –حسب سنة من سنن الله– للطغيان والكفر فترة من الوقت، كما كانت للفراعنة والإغريق والرومان، والفرس عباد النار..

وهي في كل مرة تدل على مزية ما. . ولكنها لا تعني الأفضلية إلا مع الاستقامة على المنهج الحق، أي مع وجود القيم التي تتناسب مع الكيان الأعلى للإنسان.

وإذ يسوي التفسير الليبرالي بين كل غلبة وغلبة –كما يسوي بين كل بقاء وبقاء– فإنه –ببساطة– يسقط عبرة التاريخ، إذ يسوي بين انتصار الحق وانتصار الباطل، ويجعل القوة في ذاته هي الحق كما يقولون في أمثالهم "Might is right" وهو قانون الغاب! حيث القوي هو صاحب الحق، والقوي يأكل الضعيف.

(**وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**) [سورة آل عمران: 140].

([1]) ليس الضنك المشار إليه في الآية الكريمة ضنكا اقتصاديا بالضرورة وقد يوجد الرخاء الاقتصادي كما هو الحال في الجاهلية المعاصرة ومع ذلك يكون الضنك النفسي والعصبي على أشده.

([2]) يستثنون من ذلك هجوم قبائل الهون والقوط المتبربرة على الإمبراطورية الرومانية والقضاء عليها!

ولكن هذا ليس معناه أن كلا الانتصارين سواء، أو أنه يجوز لنا أن نسوي بينهما بحال. فحين ينتصر الحق يقوم الناس بالقسط كما أمر الله:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحديد: 25].

وحين ينتصر الباطل يسود الظلم، وتضطرب حياة الناس، ولا يجدون ملجأ يحميهم من الطغيان.

ولنضرب مثلا واحدا يشرح القضية..

كان الرومان غالبين في الأرض، فيما يسميه التفسير الليبرالي "الإمبراطورية الرومانية العظيمة!" وكان معنى غلبهم هو انتشار الظلم في الأرض، حيث العدل الروماني الشهير ملك للرومان فقط –وهم السادة وهم القلة– وبقية البشر عبيد مهمتهم خدمة الدولة الأم، يحمونها بدمائهم، ويكدحون من أجل رخائها الذي يصل إلى حد الترف واللهو والمجون.. وكانت مصر جزءاً من تلك الإمبراطورية "العظيمة"! وكان نصيبها الهوان والذل، والاضطهاد والظلم، لسبب إضافي غير شهوة استعباد الآخرين، وهو اختلاف المذهب بين المصريين والرومان، إذ المصريون على المذهب الأرثوذوكسي والرومان على المذهب الكاثوليكي. وكانت السياط الرومانية "الشهيرة" تلهب ظهور المصريين بسبب الاضطهاد المذهبي الذي تقوم به الدولة، ولا يجدون ملجأ يشكون إليه ما يقع عليهم من الظلم فيكظمون ذلهم، ويستسلمون للظلم والظلام واليأس، ويسلمون كرامتهم للهوان..

ثم جاء الإسلام وفتح مصر فحررها من ظلم الرومان.. ووقعت تلك الحادثة التاريخية ذات الدلالة.

تسابق شاب قبطي مع ابن عمرو بن العاص والي مصر، فسبق الشاب القبطي، فضربه ابن عمرو ضربة بالعصا على ظهره، وقال له: خذها، وأنا ابن الأكرمين!

ولم يطق والد الشاب ضربة العصا التي وقعت على ظهر ابنه، وهو الذي كان بالأمس القريب يحتمل السياط على ظهره، وظهر ولده، ويستكين للظلم.. وقرر أن يرتحل في الموسم ليشكو الأمر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة!

فما دلالة ذلك؟؟

دلالته الأولى أن الإسلام –بعدله– قد حرر الناس، فرد إليهم كرامتهم الضائعة، وأشعرهم بإنسانيتهم المفقودة.

ودلالته الثانية أن الناس قد وجدوا في ظل التطبيق الإسلامي الملجأ العادل الذي يشكون إليه حين يقع الظلم عليهم، فصاروا يشتكون، بعد إذ كان الظلم يقع عليهم وهم مستسلمون.

ثم تمضي القصة فتعطي مزيدا من دلالتها.

أعطى عمر العصا للرجل القبطي، وقال له: اضرب ابن الأكرمين!

وهكذا يُضرب ابن "السادة" ليطبق العدل الرباني في الأرض، بينما الخلاف في العقيدة بين "الغالب" و"المغلوب" ليس خلاف مذهب في ظل عقيدة واحدة، بل خلاف جذري في أصل العقيدة يصل إلى حد الافتراق الكامل.

ثم يلتفت عمر رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص فيقول له على مسمع من القبطي: يا عمرو! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا! فيضع مبدأ من مبادئ العدل الخالدة لم تعرفها البشرية قط بين الغالب والمغلوب.. إلا في الإسلام!

هذا –باختصار ووضوح– هو الفارق بين غلبة الحق– بسنة من سنن الله –وغلبة الباطل– بسنة من سنن الله– تجعل من المستحيل التسوية بينهما، وتجعل التسوية بينهما إهداراً لعبرة التاريخ! وذلك غير اختلاف المصير في الآخرة:

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ[1] لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: 64].

* * *

أما التفسير الجدلي فله في القضية موقف خر.

إنه يعرف صراعا واحدا في التاريخ.. هو الصراع الطبقي..!

([1]) أي الحياة الحقيقية التي تستحق أن تعاش وأن يحرص عليها الإنسان.

ويرسم ذلك التفسير خطوطه كلها حول ذلك الصراع! فهو الذي ينشئ حركة التاريخ، وهو الذي ينقل البشرية من طور إلى طور في حلقات دورية، تنقل مركز السلطة من طبقة إلى طبقة خلال التاريخ.

وأبرز ما في هذا التفسير هو نفيه البات لصراع الحق والباطل، وإسقاطه من دورة التاريخ! فضلا عن سخريته وزرايته بالحق والعدل الأزليين، وسخريته بمن يعتقد أنه كان لهما أي أثر في حياة الناس..

ولا شك أن الصراع الطبقي له في الجاهلية مكانه وله أثره في مجرى الأحداث.. ولكن رد حركة التاريخ كلها –أو حتى حركته الرئيسية– إلى عامل واحد مفرد– أيا كان هذا العامل، وأيا كانت قوته– هو سذاجة علمية، لا تليق بمن يدعون أنهم أصحاب "التفسير العلمي الوحيد" للتاريخ!

إن حركة التاريخ هي حركة البشر القاطنين على سطح هذا الكوكب، بكل ما يعتمل في نفوسهم من دوافع ورغبات وصراعات، وكل ما يقع منهم وعليهم من تجاذب وتدافع وتصادم، من خلال حيز الزمان والمكان، والتيار الدافع الذي يدفع الجميع.

ومن ثم فكل مكونات النفس البشرية داخلة في حركة التاريخ، وكل الصدامات والصراعات داخلة في حركة التاريخ.

بحث الإنسان عن الله. وبحثه عن الطعام. وبحثه عن الحق والعدل. وبحثه عن الجمال. وسعيه إلى الغلبة والسيطرة. وسعيه لإثبات ذاته. وسعيه لتسخير كنوز السموات والأرض. وسعيه إلى الاستحواذ والملك.. هذه هي حركة الإنسان في الأرض..

وهي تسير في خطين اثنين: خط الهدى وخط الضلال..

وتقوم في أثناء حركة البشر على الأرض صراعات كثيرة.. كلها تؤثر في حركة التاريخ، صراعات مادية ومعنوية. صراعات سياسة واقتصادية واجتماعية. صراعات فكرية وعقيدية. صراعات طبقية وفردية. صراعات عنصرية وقومية ووطنية. صراعات من كل نوع، هي انعكاس للوجود البشري وما يشتمل عليه من عناصر ومكونات.

واختصار هذه الصراعات كلها إلى صراع واحد، أو إلى صراع واحد رئيسي، هو حماقة مساوية في حجمها لحماقة اختصار الحياة البشرية كلها إلى جانب واحد من جوانبها، وجعل الجوانب الأخرى كلها مجرد انعكاس للجانب الواحد المسيطر صاحب السلطان، وهي في

الوقت ذاته مسخ للتاريخ البشري، كما لو تصورنا إنسانا بلا رأس، أو إنساننا بذراع بالغة الطول، وذراع أخرى ضامرة عديمة المفعول.. بدلا من الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم!

* * *

يسجل التفسير الإسلامي –بواقعيته– كل صراعات البشر التي تحدث بينهم خلال حركتهم في الأرض، والتي ترسم بدورها حركة التاريخ.. ولكنه لا يعطيها وزنا واحدا لأنها في حقيقتها ليست ذات وزن واحد. ولا يشغله حجم الصراع عن النظر في نوعيته وأهدافه.

إن صراع روسيا وأمريكا في الجاهلية المعاصرة قد يكون أكبر صراع شهدته البشرية إذا قسناه بحجم الدولتين، وقدرتهما العسكرية، وقدرتهما العلمية والتكنولوجية، ومطامعهما الشيطانية في السيطرة على ما يسمى "العالم الثالث واستغلال طاقاته وخاماته وثرواته.. ولكنه –في عالم القيم– لا يزيد على صراع أي وحشين من وحوش الغاب على فريسة مشتركة، يريد كل منهما الاستيلاء عليها وحده، أو الفوز منها بأكبر نصيب.

ما الفرق –في عالم القيم– بين أن يغلب هذا الوحش أو ذاك؟ ونتيجة الغلبة في الحالين هي افتراس الفريسة؟[1]

إنما كان هناك فارق ضخم بين انتصارات الفرس والروم وانتصار الإسلام، لأن انتصار الإسلام كان معناه تخليص الفريسة من الوحش المفترس، ومنحها الحياة.. لا مجرد الحياة.. ولكن الحياة على مستوى "الإنسان".

من أجل ذلك يحتفل التفسير الإسلامي بصراع الحق والباطل من بين الصراعات كلها القائمة في الأرض، ويعطيه المقام الأول، وإن كان –في واقعيته– لا يغفل شيئا من صراعات البشر ولا يغفر أثرها في حركة التاريخ.

يقول تعالى عن صراعات الحياة الدنيا ومنافساتها ومشاغلها –خلال صراع الحق والباطل:

([1]) كتب هذا الكلام قبل انهيار الشيوعية وانفراد أمريكا بالقوة والسيطرة ولكن وضع العالم الحالي ليس وضعا دائما ويمكن أن يتغير في أية لحظة ببروز قوى جديدة.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [سورة الحديد: 20].

ولكن يقول جل شأنه عن صراع الحق والباطل:

﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة: 251].

ويقول:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه﴾ [سورة الأنفال: 39].

ويقول:

﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. [سورة التوبة: 111].

ويقول:

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً، وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً، الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ [سورة النساء: 74-76].

إن صراع الحق والباطل من بين الصراعات كلها التي تجري في الأرض هو الذي يقرر مصير البشرية في الحياة الدنيا، فضلا عن مصير البشر في الآخرة.. وهو الذي يحدد اتجاه سير التاريخ.

إن الصراع الرئيسي في الحياة البشرية ليس هو الصراع بين طبقة وطبقة كما يزعم التفسير الجدلي. وليس هو الصراع بين شعب وشعب، أو بين قائد وقائد، أو بين إمبراطورية وإمبراطورية كما يزعم التفسير الليبرالي. فهذا وذاك –مجردين– لا يغيران شيئا حقيقيا في حياة الناس.

لا فرق في الجوهر بين عهد الرق وعهد الإقطاع وعهد الرأسمالية وعهد الشيوعية. كلها عهود عبودية لغير الله. كلها جاهليات. كلها حكم بغير ما أنزل الله. كلها تقسم المجتمع البشري إلى سادة وعبيد. سادة يشرعون، وعبيد ينفذون ما يشرعه السادة. وهناك ولا شك مئات من الفروق الجزئية الصغيرة بين بعض هذه العهود وبعض، نشأت من أحوال الإنسان المادية والعلمية، ومدى تسخيره لطاقات السماوات والأرض، ومدى طغيان السادة على العبيد في كل نظام. ولكنها كلها تجتمع في جوهر واحد هو تحكيم غير شريعة الله، ومن ثم عبودية البشر بعضهم لبعض، ووقوع الظلم لا محالة، ووقوع الاضطراب والتخبط، وهبوط الإنسان عما أراده الله له من الرفعة والتكريم.

ولا فرق في الجوهر بين هانيبال وأعدائه، ولا بين نابليون وأعدائه، ولا بين هتلر وأعدائه، سواء انتصر هذا القائد أو ذاك.

هناك ولا شك مئات من الفروق الجزئية الصغيرة بين شخصيات أولئك القادة "العظام"! وبين طريقة كل منهم في تنظيم جيشه، وتخطيط حربه، ومناورة عدوه.. إلخ.. إلخ ولكن لا يختلف الغالب منهم والمغلوب في شيء حقيقي من الخصال الجوهرية التي تتوقف عليها إنسانية الإنسان، بحيث يتغير التاريخ البشري لو انتصر المنهزم وتغلب المغلوب!

ولا فرق في الجوهر بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الإغريقية والإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية البريطانية والإمبراطورية الفرنسية والإمبراطورية الروسية القيصرية والإمبراطورية الأمريكية والإمبراطورية الروسية الشيوعية..

هناك ولا شك مئات من الفروق الجزئية الصغيرة بين كل واحدة من هذه الإمبراطوريات والأخرى، في مساحة الأرض التي احتلتها، والزمن الذي ظلت مسيطرة فيه، وطريقة إدارتها لمستعمراتها، وطريقة تسلطها على غيرها.. إلخ.. إلخ. ولكن لا تختلف تلك الجاهليات كلها في وجود دولة أم وأتباع خاضعين للسيادة، ووجود نزعة للسيطرة واستعباد الآخرين، ونزعة للبطش واستخدام القوة للتوسع لا لإحقاق الحق وإزهاق الباطل.. فضلا عن كونها كلها لا تحكم بما أنزل الله. فحين تتصارع لا يختلف الغالب منها عن المغلوب، ولا تختلف أحوال البشر في الأرض من غلبة هذا أو غلبة ذاك.

ولكن هناك فارقا جوهريا بين إنسانين، وأمتين، ودولتين، وتجمعين.. أحدهما مؤمن والآخر كافر.. فهذا هو الفارق الحقيقي الذي تختلف بحسبه نتيجة الصراع، ويتغير بحسبه واقع الأرض، وتترتب عليه –في التاريخ– أن تكون الصفحة بيضاء أو سوداء.

وحقيقة أنه لا توجد في التاريخ صفحة بيضاء خالصة البياض –إلا صفحة الأنبياء والرسل– ولا صفحة سوداء خالصة السواد إلا ما ندر من عهود الطغاة كعهد نيرون، والتتار قبل أن يسلموا، والطغاة الذين يذبحون المسلمين في العهد الحاضر.. وأن الأغلب أن يختلط السواد بالبياض في كل صفحة من صفحات التاريخ.. ولكن هذا لا يدعو إلى تمييع القضية، والتسوية بين صفحات التاريخ. ففرق كبير بين صفحة يملؤها البياض إلا خطوطا سوداء متفرقة هنا وهناك، وصفحة يملؤها السواد إلا خطوطا بيضاء متناثرة هنا وهناك.

ومهمة التاريخ أن يسجل الواقع كما يحدث بالفعل، مبينا فيه الأبيض والأسود من كل صفحة ومن كل سطر..

* * *

يحتفل التفسير الإسلامي احتفالا خاصا بصراع الحق والباطل، ويتتبعه تتبعا دقيقا خلال التاريخ، ويتتبع الآثار التي ترتبت عليه في واقع البشر، ويهتم بهذا الأمر أضعاف اهتمامه بالصراعات الأخرى التي لم تغير شيئا جوهريا في الوجود البشري، وإن كان يسجل الواقع التاريخي بالأمانة والواقعية التي يتناول بها المسلم كل شأن من شئون الحياة، فيسجل الصراعات كلها كما حدثت في الواقع، ثم يعطيها حجمها الذي تستحقه، ووزنها الذي تساويه، ولكن في ميزان القيم الحقيقية التي يقررها المنهج الرباني، لا القيم التي تمليها أهواء البشر المحجوبين عن نور الله:

(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) [سورة المؤمنون: 71].

ويؤمن التفسير الإسلامي بأن الغلبة في صراع الحق والباطل تكون للحق في نهاية المطاف:

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ، وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) [سورة الصافات: 171-173].

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [سورة الرعد: 17].

ولكن لا يغفل التفسير الإسلامي عن أمرين رئيسيين في هذه القضية.

الأمر الأول أن الباطل يمكن أن ينتفش في الأرض فترة من الوقت، ويستعلي على الحق، حسب سنة من السنن الربانية، هي الإملاء للباطل قبل تدميره:

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [سورة الرعد: 32].

وسنة أخرى هي ابتلاء أهل الحق وتمحيصهم:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة العنكبوت: 2-3].

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: 141].

فانتفاش الباطل في تلك الفترة –مع وجود الحق، وقيام جماعة من المؤمنين بخوض الصراع من أجله– ليس معناه هزيمة الحق، وليس هو النتيجة النهائية لصراع الحق والباطل.

إنما يملي الله للباطل، ليزداد طغيانا حين يرى انتصاره الموقوت على الحق، فيغريه ذلك بمزيد من الطغيان، حتى يستحق عذاب التدمير كله في الدنيا فضلا عن عذاب الآخرة.. وذلك شأنه سبحانه:

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [سورة آل عمران: 178].

﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾ [سورة النحل: 25].

ثم إن التمحيص –كما أسلفنا– أداة ضرورية من أدوات انتصار الحق.. ففترة انتفاش الباطل هي في حقيقتها فترة التحضير لانتصار الحق، كما تشير الآية الكريمة في آل عمران، إذ يجيء التمحيص أولا ثم يجيء بعده محق الكافرين. ومن ثم فإن انكماش الحق في تلك الفترة أمام صولة الباطل ليس هزيمة له في الحقيقة، إنما يكون الباطل –بيديه– يدرب الحق للانتصار في المعركة الفاصلة!

ومما تجدر الإشارة إليه أن المثل الذي ضربه الله لصراع الحق والباطل في القرآن الكريم قد احتوى لفئة ذات دلالة:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ﴾ [سورة الرعد: 17].

"ففتنة" الذهب والفضة على النار هي صهرهما لإخراج الخبث الذي يخالطهما حتى يكونا خالصين ثمينين رفيعين. وفتنة المؤمنين تتم في نار الابتلاء، التي تصهرهم، فتخرج الخبث من نفوسهم، من شهوات وأهواء، حتى يكونوا خالصين لله، متجردين له، صالحين من ثم لحمل الأمانة التي قدر الله أن يحملها الإنسان، ولا تتم فتنة الذهب والفضة إلا بتلك النار التي يوقدون عليها، ولا يتم تمحيص المؤمنين كذلك إلا بتلك النار التي يوقدها الأعداء.. مع الفارق.. فإن الناس يوقدون النار على الذهب والفضة وهم يعلمون أن هذا هو السبيل الوحيد لتنقيتهما من الخبث. أما الطغاة فيوقدون النار –نار الفتنة– على المؤمنين يحسبون أنهم بذلك يقضون عليهم، فيكون من قدر الله أن يتم بذلك تمحيص المؤمنين، ليتم قدره من محق الكافرين..

أما الأمر الثاني فهو أن التمكين في الأرض ليس هو الضورة الوحيدة لانتصار الحق على الباطل وإن كانت هي الصورة الغالبة

فانتصار الحق في موقف السحرة من فرعون هو قمة من قمم الانتصار في التاريخ البشري، وإن كانوا لم يمكنوا في الأرض بأشخاصهم. إنما كان الانتصار أنهم استعلوا على الباطل كله، وعلى الطغيان كله، وأعلنوا كلمة الحق التي يريد الطاغوت أن يطمسها ويمحوها من الأرض، كما استعلوا في داخل نفوسهم على الخوف وعلى رغبة الحياة، فأعلنوا بذلك أن الحق أثمن من الحياة! واستمع إلى قولتهم الشامخة لفرعون:

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [سورة طه: 72-73].

فأيهما الأعظم، والأرفع، والأروع في ميزان القيم "الإنسانية" النبيلة: هم؟ أم فرعون الذي قتلهم وصلبهم في جذوع النخل؟ وأيهما المنتصر الحقيقي: الذين آمنوا بالحق فرفعهم عن متاع الأرض كله، أم الذي استعبدته الحياة الدنيا فأعمته عن الحق؟!

وكذلك قصة أصحاب الأخدود:

عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كان ملك فيمن قبلكم وكان له ساحر. فلما كبر قال للملك: إني كبرت فابعث لي غلاما أعلمه السحر. فبعث إليه غلاما يعلمه، وكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه. وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر. فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس. فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل. فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس. فرماها فقتلها ومضى الناس. فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني! قد بلغ من أمرك ما أرى! وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ. وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء. فسمع جليس للملك كان قد عمى، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحدا إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك. فآمن بالله فشفاه الله. فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك: قال: ربي، قال: أو لك رب غيري؟! قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام. فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني! قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل؟ فقال: إني لا أشفي أحدا إنما يشفي الله تعالى. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب. فجيء بالراهب فقيل له ارجع عن دينك فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ثم جيء بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به إلى الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور وتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه. فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت. فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى. فقال

للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. فقال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: بسم الله رب الغلام ثم ارمني، فإن إن فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام! ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه فمات. فقال الناس: آمنا برب الغلام! فأُتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك: قد آمن الناس! فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخدت وأضرم فيها النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، أو قيل له: اقتحم. ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه! اصبري فإنك على الحق"[1]

أي روعة لانتصار الحق في نفوس المؤمنين!

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [سورة البروج: 4-11].

نعم! ذلك الفوز الكبير.. وحين تمتد الصورة حتى تشمل الدنيا والآخرة معا كما هي في حقيقتها، لا يكون التمكين في الأرض شرطا لازما لإثبات الانتصار! فإنما يحدث الانتصار في الأنفس أولا فتستعلي على الباطل، وعلى شهوات النفس، وعلى متاع الأرض.. ثم يأتي التمكين في الآخرة أو في الدنيا والآخرة سواء!

وكذلك قصة أصحاب الكهف:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً، إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً، فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً، ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً،

([1]) أخرجه مسلم

هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً، وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً) [سورة الكهف: 9-16].

هذه صور ثلاث لانتصار العقيدة في نفوس أصحابها، وانتصار الحق على الباطل دون تمكين في الحياة الدنيا.. ولكن الصورة الغالبة هي تدمير الباطل في الدنيا وتمكين المؤمنين:

(وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ، وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ) [سورة هود: 58-60].

(فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ، كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ) [سورة هود: 66-68].

(فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) [سورة هود: 82-83].

(وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ، كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ) [سورة هود: 94-95].

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) [سورة هود: 102].

(فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [سورة العنكبوت: 40].

* * *

فإذا كانت هذه في الأمم السابقة سنة غالبة فهي بالنسبة لهذه الأمة وعد:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة النور: 55].

ولكنه –كما ترى– وعد مشروط:

"الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات"

"يعبدونني لا يشركون بي شيئا"

كما أن له شرطا آخر، أو ملابسات أخرى.

فلا بد أن يكون قد تبلور وصفا، ووضح في نفوس أصحابه كما وضح في نفوس أعدائه:

﴿وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: 55].

وحين تستبين سبيل المجرمين تكون سبيل المؤمنين قد استبانت كذلك، ولم يعد هناك غبش حول الحق.. عند المؤمنين به والكافرين به سواء. وعندئذ يلتقي الحق والباطل في المعركة الفاصلة وقد تبين لكل فريقه موقفه على وجه التحديد، ووقف موقفه على بينه كاملة لا خفاء فيها:

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [سورة الأنفال: 42].

وعندئذ يكون النصر من عند الله. وعدا خاصا لهذه الأمة حين توفي بالشرط..

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة المائدة: 54].

لقد تفضل الله على هذه الأمة بأن أرسل إليها الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم، وجعل رسالته إلى البشرية كافة، ولم يجعل من بعده نبيا يرسل إلى الناس:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [سورة الأحزاب: 40].

فلزم أن تقوم أمته برسالته صلى الله عليه وسلم من بعده، فتدعو إلى الإيمان، وتنشر النور الرباني في الأرض، وتجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، وتكون شاهدة على كل البشرية:

﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾ [سورة البقرة: 143].

﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [سورة آل عمران: 104].

وإذ تفضل الله على أمة محمد صلى الله عليه وسلم بذلك، فقد تفضل عليها كذلك بوعد التمكين في الأرض.. كلما وفت لربها بالشرط..

ولا يمنع ذلك بطبيعة الحال من أن يكون مصير بعض الأفراد في فترة الابتلاء أو فترة التمحيص التي تمر قبل التمكين هو مصير سحرة فرعون، أو مصير أصحاب الأخدود، فطريق الدعوة لا يخلو من شهداء يقدمون أنفسهم رخيصة في سبيل الحق الذي يؤمنون به، ويتخذهم الله شهداء، ويكتب لهم الحياة:

﴿**وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**﴾ [سورة آل عمران: 139-141].

﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [سورة آل عمران: 169-171].

معيار الإنجاز البشري

لقد تبين لنا –فيما أحسب– من الفصول السابقة كيف يكون المعيار الصحيح الذي نقيس به الإنجاز البشري.

هناك في الحقيقة معايير كثيرة، لأن الإنجاز البشري متعدد الجوانب، متعدد المجالات. فهناك إنجاز مادي. وإنجاز روحي. وإنجاز علمي. وإنجاز حربي. وإنجاز سياسي. وإنجاز ثقافي. وإنجاز فني.. قد يكون من الأوفق –إذا اتفقنا على المصطلح– أن نسمي مجموعها "الإنجاز الحضاري" للإنسان.

ومع وجود معيار خاص لكل لون من ألوان الإنجاز المتعددة، فلا بد أن يكون هناك معيار أخير، يقوّم به الإنجاز البشري في مجموعه، ويعطي "درجة نهائية" تحدد مكانه في التاريخ.

وهذا المعيار الجامع هو الذي تختلف عليه التفسيرات المختلفة للتاريخ، وهو في الحقيقة أهم ما تقدمه دراسة التاريخ.

إنه لن يكون هناك خلاف –أو لن يكون هناك خلاف كبير– في تقويم الإنجازات "النوعية" للإنسان. فالعمارة المادية للأرض معيارها: كم مدينة أنشئت؟ وما حجمها؟ وما نوع المنشآت التي أقيمت فيها؟ وما مقدار البراعة في الإنشاء؟ وكم قرنا بقيت بعد أصحابها؟ وكم كان لها من الأثر في غيرها من الأمم؟ وكيف كانت الطرق؟ وكيف كانت "الخدمات"؟ وكيف كانت التيسيرات؟ وكم كان من "الجمال" فيها إلى جانب المتانة والرسوخ وطول الاحتمال؟.. إلخ..

والإنجاز الحربي معياره: كم معركة خاضتها تلك الأمة؟ وكم نصراً أحرزته؟ ما كان حجم جيوشها؟ ما كان سلاحهم؟ كيف كان قتالهم؟ كم كانت قوة الأعداء؟ كم قائدا بارزا خرجوا من صفوفها.. إلخ.. إلخ.

والإنجاز السياسي معياره: كم كان الاستقرار في حياة الأمة؟ كم كانت هيبة حكامها؟ كيف كانت معاملتهم لشعوبهم؟ كيف كانت علاقات الدولة بجيرانها؟ كيف حلت مشاكلها معهم؟ .. إلخ.

والإنجاز الثقافي معياره: كم مفكرا نبغ في تلك الأمة؟ ما مؤلفاتهم؟ أي المجالات اتجهوا إلى التفكير والتأليف فيها؟ ماذا بقي من آثارهم الفكرية ما ينتفع به الناس اليوم؟ وماذا اندثر في وقته لأنه وقتي ومحلي ليست له صفة الشمول ولا العمق والأصالة التي تجعله تراثا "إنسانيا" وإن اصطبغ –بالضرورة– بالصبغة المحلية للأمة.

والإنجاز العلمي.. والإنجاز الفني.. وغيره من الإنجازات.. كل له معياره النوعي الذي تتفق فيه الأحكام أو تتقارب بين الناس..

ولكن يبقى الخلاف الأكبر في إعطاء كل إنجاز من هذه الإنجازات مكانه في التقويم النهائي. أيها في المقدمة، وأيها في المؤخرة؟ أيها له القيمة الكبرى، وأيها له القيمة الأقل؟ وهل من بينها شيء لا قيمة له على الإطلاق؟

هنا يختلف تفسير عن تفسير.. وهنا يبرز التفسير الإسلامي بمعياره الخاص.

لقد كانت الأساطير اليونانية تراثا فكريا وأدبيا ضخما في نظر التفسير الليبرالي.. وما تزال.. وكانت في نظر المسلمين الذين تعلموا الإغريقية ونقلوا علومها إلى العربية عبثا جاهليا لا يستحق أن يلتفت إليها.. فأي النظرتين هي الصواب؟

وكانت الفلسفة الإغريقية في قضايا الكون والحياة والإنسان وقضية الألوهية تراثا فكريا ضخما في نظر التفسير الليبرالي، وكذلك خدع فيها المسلمون الذين نقلوا عن الإغريقية، فظنوها شيئا يستأهل النقل، فأصابت الفكر الإسلامي لوثة لم يتخلص من آثارها من قريب، وفقد صفاءه المستمد من صفاء منابعه، ودخلت به الفرق الكلامية في متاهات ما تزال آثارها قائمة حتى اللحظة تؤثر في مجرى حياتهم وتحرفهم عن الإسلام.

وكانت الأهرامات الفرعونية قمة في الإنجاز المادي والعلمي، ما يزال كثير من أسرارها خافيا حتى اليوم، يعجز العلم عن إدراك ما وراءه.. والتفسير الليبرالي بصفة خاصة يشيد إشادة ضخمة بالإنجاز الفرعوني كله، ومن بينه تلك الأهرامات.. فما التقويم النهائي لها في المعيار "الإنساني" الذي يأخذ الإنسان في مجموعه، ولا يقومه بجانب واحد من جوانبه، ولا مجال واحد من مجالاته؟

* * *

إذا نظرنا إلى التفسير الليبرالي نجده مأخوذا بالإنجاز المادي بصفة خاصة، كا أنه مأخوذ بالإنجاز السياسي والحربي إلى حد كبير وكذلك بالإنجاز الفكري.. أما الإنجاز "الروحي" فهو عنده في ذيل القائمة، إن كان له وزن عنده على الإطلاق!

وتفسير ذلك بالنسبة للتفسير الليبرالي أمر غير عسير، وقد أوضحناه من قبل، من قيام "النهضة" الأوروبية على عداء مع الدين، وامتداد هذا العداء في أوروبا إلى الوقت الحاضر، بالإضافة إلى كون أوروبا الحديثة هي وريثة "الحضارة" الرومانية الإغريقية، وقد كانت الرومانية بارعة ومزهوة بالإنجاز المادي والحربي، وكانت الإغريقية مزهوة بالإنجاز الفكري التجريدي. فإذا أضيف إلى ذلك ما تأثرته أوربا بالداروينية في العصر الحديث، وبفكرة الصراع من أجل البقاء، وكونها غاية الحياة في جميع الأحياء بما في ذلك الإنسان، فإن الصراع من أجل البقاء إن تكن وسيلته في عالم الحيوان هي القتال، فإن وسيلته في عالم الإنسان هي الحرب والسياسة!

وبذلك تجتمع لدينا كل خيوط التفسير الليبرالي للتاريخ: اهتمامه الشديد بالإنجاز المادي، وإعجابه بالإنجاز السياسي والحربي والفكري، وإهماله الشديد للإنجاز الروحي.. وتقويمه للتاريخ بهذا المعيار المختل، الذي أخلت بتوازنه ظروف أوروبا الخاصة، ثم أتاحت الظروف السياسية والعسكرية والمادي لأوروبا أن تغلب على العالم، وتنفث فيه تصوراتها الخاصة، ويتلقفها المهزومون على أنها الحق الذي لا يقبل النقاش، كما حدث للدارسين "المسلمين" من خلال الغزو الفكري!

أما التفسير الجدلي فلا معيار عنده لشيء إلا مواءمة الطور التاريخي الحتمي أو عدم مواءمته! فإنك لا تلمس في هذا التفسير إعجابا بشيء أو إشادة بشيء إلا المشاعية الأولى والشيوعية الثانية، لا بدراسة علمية حقيقية، ولكن بالهوى المذهبي وحده.

فالمشاعية الأولى —كما يصورونها بغير سند علمي حقيقي– فترة ملائكية في حياة البشرية، سبب ملائكيتها عدم وجود ملكية خاصة، ووجود الملكية الجماعية بدلا منها، سواء بالنسبة للأرض، أو بالنسبة للطعام، أو بالنسبة للجنس! فلما وجدت الملكية الفردية بدأت العبودية وبدأ الشقاء، واستمر ينتقل من طور إلى طور؛ من الرق إلى الإقطاع إلى الرأسمالية، إلى أن يدخل العالم في الشيوعية الثانية، فتتحول الملكية الصناعية والزراعية إل ملكية جماعية، وتعود الشيوعية الجنسية الكاملة، وتلغي الأسرة، فعندئذ تعود الملائكية ترفرف على البشر مرة أخرى، وينتهي الصراع إلى الأبد ويصبح القانون الذي يسير الحياة: من كل حسب طاقته، ولكل حسب حاجته.. فلا يتنازع الناس ما بقيت السموات والأرض!!

وبصرف النظر عن السذاجة غير العلمية في هذا التصور.. وبصرف النظر عن "أفيون الشيوعية" الأكبر، الذي كانت تخدر به الجماهير الكادحة لترضى بالظلم السياسي البشع الواقع عليها من "النظام" على أمل أن تسعد بتلك الملائكية المزعومة في يوم من الأيام[1].. بصرف النظر عن هذا كله فإننا نبحث هنا عن نقطة واحدة، هي المعيار الذي يقوم به الإنجاز البشري..

لا معيار!

إن التفسير الجدلي مشغول دائما بتفنيد دعاوى التفسير الليبرالي وتخطئتها، على أساس أنها تهمل الصراع الطبقي الذي هو العنصر الذي يحرك التاريخ، ولا تضع التاريخ على قاعدته الصحيحة –في نظرهم– وهي المادية الجدلية والمادية التاريخية الحتمية..

ثم يلتقط هذا التفسير بعض الخيوط العريضة من التاريخ البشري، ليطبق عليها قاعدته، ثم يصيح: انظروا! هذا هو التفسير الصحيح لهذا الحدث أو ذاك!

ولكنه يهمل "الإنجاز البشري" كله أو جله!

إنه في الحقيقة ليس معنيا بالإنسان! إنما هو معني بقوانين المادة التي تفسر –في زعمه– تاريخ الإنسان! ومن هنا فإن الإنجاز البشري –حتى الإنجاز المادي– لا يهمه بصفته إنجازاً "للإنسان" إنما يهمه فقط بوصفه انعكاساً للأوضاع المادية والاقتصادية، وباعتباره حتمية تاريخية!!

إنه يتكلم –مثلا– عن أثر اكتشاف الزراعة في إنهاء الفترة الملائكية الأولى –وهي المشاعية البدائية– ونقل الناس إلى مرحلة الرق.. وعن أثر اختراع المحراث في نقل البشرية من مرحلة الرق إلى مرحلة الإقطاع. وعن أثر اختراع الآلة في نقل الناس من مرحلة الإقطاع إلى مرحلة الرأسمالية.. فلا تلمس أنه يتكلم عن الإنسان الذي اكتشف الزراعة، أو اخترع المحراث، أو اخترع الآلة، ولا يتكلم عن الزراعة والصناعة على أنها منجزات بشرية! وكأنما هبط المحراث ذات يوم من السماء أو هبطت الآلة، فأحدثت في حياة الناس ما أحدثت من تغيير..

([1]) ناقشت هذه الدعاوى كلها في فصل "الشيوعية" من كتاب "مذاهب فكرية معاصرة".

إن التفسير الجدلي لا يتعاطف مع "الإنسان".. إنما هو يتحدث –بروح الإعجاب والتوقير والتقديس– عن ذلك الإله الجبار الذي يسير حياة الإنسان، وهو المادة وقوانيتها الحتمية.. فإذا التفت إلى الإنسان، وصراعاته، ومنجزاته، فليسجل فقط كيف تحركت تلك الدمى البشرية بين يدي ذلك الجبار القاهر، مغلوبة على أمرها، لا تملك الرفض، ولا تملك التغيير!

ولقد تلمس في بعض الأحيان تباكيا على وضع المرأة المظلومة خلال التاريخ، ووضع البروليتاريا التعيسة التي يستغلها السادة المالكون لأدوات الإنتاج، ولكنك حتى عندئذ لا تلمس تعاطفا حقيقيا مع "الإنسان". فمن معاني "التعاطف" إحساسك وإيمانك بأن الوضع كان ينبغي أن يكون أفضل من ذلك وأرحم وأعدل.. ودون ذلك تقف "الحتميات" التي تقول إن هذا مستحيل! وإن ما وقع بالفعل هو الشيء الذي تسمح به حتميات المادة وحتميات التاريخ، وإن التفكير في تغييره أو النظر إليه من زاوية خلقية، من زاوية الحق والعدل الأزليين، سذاجة علمية يقع فيها السذج الطوباويون لنقص في وعيهم التاريخي ووعيهم الجدلي!

وإذن.. فلا معيار!

لا تستطيع في أي لحظة أن تقول إن هذه الأمة أرقى وأحط من تلك الأمة، ولا أقوى ولا أضعف ولا أنشط ولا أكسل، ولا أكثر إنجازا أو أقل، ولا أجدر بالبقاء ولا أجدر بالفناء..

إنما أنت في متحف الشمع التاريخي تستطيع فقط أن تقول: هذا رجل من العصر الزراعي، وهذا من العصر الصناعي. وهذه امرأة من المشاعية الأولى أو من الشيوعية الثانية.

أنت مع مجموعة من "الأنماط".. ولست مع "الإنسان"!

* * *

في التفيسر الإسلامي للتاريخ، تعيش مع الإنسان، ومع قدر الله، ومع السنن الربانية التي يجري من خلالها قدر الله.

تعيش مع "عملية" الحياة كاملة.

وتشاهد الإنسان في جميع أحواله: مقبلا ومدبرا، مستقيما ومنحرفا، ناشطا ومتراخيا، مهتديا وضالا.. وتشاهد الشبكة الحية التي تصل الأشخاص والأشياء والأحداث، بروابطها الحقيقية، وأحجامها الطبيعية.

ومعيارك الذي تقيس به الأشخاص والأشياء والأحداث هو "الإنسان" كما ينبغي أن يكون، بحسب المهمة التي خلقه الله من أجلها، وبحسب تكوينه الذي خلقه الله به، وبحسب السنن الربانية التي تحكم حياته.

هل هناك معيار أضبط من هذا المعيار؟ أو أصدق من هذا المعيار؟!

و"الإنسان كما ينبغي أن يكون" ليس صورة مثالية معلقة في الفضاء لا ظل لها من الواقع، بل صورة واقعية تماما، محسوب فيها "بشرية الإنسان" ونقط ضعفه البشري، وعثراته وكبواته، ودوافعه وشهواته، ولكن محسوب فيها كذلك مواهبه وقدراته، والآفاق التي خلق من أجلها، والتي يستطيع بالفعل أن يصعد إليها.

هناك حد أدنى لا ينبغي للإنسان أن يهبط دونه، وحين يتجاوزه يكون مسئولا عن هبوطه، محاسبا عليه بمقتضى السنن الربانية التي تحكم حياته. وهناك حد أعلى مفتوح، يصيب كل إنسان منه بقدر ما يطيق (**لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**) [سورة البقرة: 286] ويكافأ –بمقتضى السنن الربانية كذلك– على قدر ما يجتهد ويصيب.

كما أن "الإنسان كما ينبغي أن يكون" ليس نمطا واحدا محددا كأنماط التفسير المادي.. وليس صورة مكرورة حتى في الظروف الواحدة والمكان الواحد والزمان الواحد.. فتعدد الأنماط في النوع الواحد ظاهرة ملحوظة في خلق الله، حتى في الجراثيم والنبات والحيوان، ولكنه أبرز ما يكون في عالم الإنسان. وليس اختلاف الأنماط واضحا في تقسيم الناس إلى قسميهم الرئيسيين فقط:

(**خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ**) [سورة التغابن: 2].

ولكن في كل من القسمين أنماط لا تعد ولا تحصى، حتى يوشك أن يكون كل إنسان فرد نموذجاً قائماً بذاته غير مكرور!

إنما "الإنسان كما ينبغي أن يكون" اتجاه عام معين، تندرج تحته أنماط لا تحصى، كل نمط يختلف ويتشابه في ذات الوقت مع غيره من الأنماط.

فحين يقول تعالى:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً، إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً، وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً، وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً، إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً، وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً، وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً، أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ [سورة الفرقان: 63-76].

أو يقول:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة المؤمنون: 1-11].

أو يقول:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [سورة آل عمران: 190-191].

فإنه لا يحدد قالبا معينا ذا أبعاد محددة.. إنما يحدد صفات نفسية وسلوكية معينة، يمكن أن تؤدى على أنماط متعددة، كما كان يؤديها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ومئات من الصحابة وألوف، رضوان الله عليهم جميعاً، كل منهم نمط مختلف عن صاحبه وإن اتفقوا جميعا في الاتجاه.

* * *

"الإنسان كما ينبغي أن يكون" —في نظرة الإسلام الواقعية– كائن مترابط متكامل، متوازن قدر الإمكان ما بين قبضة الطين ونفخة الروح، عابد لله على المعنى الواسع الشامل للعبادة التي تشمل —فيما تشمل– عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني[1].

وهذا هو المعيار..

معيار يقاس به الفرد، وتقاس به الجماعة، وتقاس به الأمة، ويقاس به التاريخ.

فكل فرد أو جماعة أو أمة استطاعت أن تحقق وجودها على هذا الوضع، فعبدت الله وحده وحافظت قدر الطاقة على توازنها وترابطها وتكاملها، وقامت بعمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني، فهي الفائزة في التقويم الإسلامي، التي تستحق أن يفسح لها التاريخ صفحاته، وأن يكتب تاريخها بسطور بارزة في تلك الصفحات.

وكل فرد أو جماعة أو أمة أخفقت في تحقيق هذه الصورة الوضيئة فعبدت غير الله، معه أو من دونه، وفقدت توازنها وترابطها وتكاملها ما بين قبضة الطين ونفخة الروح، فتقاعست عن عمارة الأرض، أو عمرتها بغير المنهج الرباني.. فهي متخلفة في التقويم الإسلامي، لا تستحق أن يسجلها التاريخ إلا في ذيل الصفحات!

وأول ما قد يخطر في بال "المثقفين" الذين تعودوا بحكم ثقافتهم —أو بالأحرى بحكم الغزو الفكري الذي تجرعوه– أن ينظروا بعين أوروبا، هو أن هذا المعيار "متعصب**!**" أو أنه "غير علمي" لأنه مستمد من "النظرة الدينية"**!**

أما التعصب فهو غير وارد، لأننا لا نحكم به من عند أنفسنا. إنما هو المعيار الرباني الذي يقوّم به أعمال البشر في الدنيا وفي الآخرة، والذي تجري على مقتضاه السنن الرانية التي تحكم الحياة البشرية، والتي لا تتبدل ولا تتحول، ولا تنثني عن مجراها مجاملة لأحد أو بغضا لأحد!

وهو غير وارد كذلك لأننا لا نحابي به الأمة الإسلامية حين تنحرف عن الطريق، بل نسجل عليها انحرافها[2] ونبين كيف جرت عليها السنن الربانية التي لا تجامل ولا تحابي، ونبين

([1]) راجع إن شئت فصل "مفهوم العبادة" في كتاب "مفاهيم ينبغي أن تصحح".

([2]) راجع فصل "خطر الانحراف" من كتاب "واقعنا المعاصر".

كيف أنها حين اشتد انحرافها صارت أسوأ من الأمم الجاهلية، لأنها لا هي استقامت على المنهج الرباني، ولا هي اجتهدت للدنيا كما تجتهد الأمم الجاهلية الممكنة في الأرض بحسب السنن الربانية، فأصبحت –كما هو واقعها اليوم– غثاء كغثاء السيل، تتداعى عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها[1].

فإذا كان التعصب غير وارد، لا في ابتداع المعيار –فهو ليس من صنعنا– ولا في تطبيقه، لأننا لا نحامل الأمة الإسلامية في انحرافها، فقد بقيت دعوى "العلمية" التي تقلق بال "المثقفين" إذا ذكر أمر مستمد من "الدين"!

إن أوروبا قد قالت في دينها ما قالت، وتوجست من أحكامه ما توجست، وأبعدته وأبعدت أحكامه من المجال العلمي، لا لأنه "دين" كما يفهم "المثقفون" بتأثير الغزو الفكري، ولكن لأن تجربة أوربا الدينية في عصورها الوسطى المظلمة مرت بها من خلال الكنيسة التي كان معظم رجالها كما تقول المصادر الأوربية ذاتها يتصفون بالجهالة، والتجبر في الأرض بغير الحق، والحجر على الفكر، ومعاداة العلماء والعلم، وحرفوا كثيرا مما جاء من عند الله، بينما الدين المنزل من عند الله أحكامه صحيحة من جهة، وملزمة من جهة أخرى، لأن الله لا يقول إلا الحق، سواء في التوراة أو الإنجيل أو القرآن أو ما سبقها من الكتب، ولأن ما يقوله الله –وهو الحق– لا يجوز للبشر أن يحيدوا عنه.

﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء**﴾ [سورة المائدة: 44].

﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [سورة المائدة: 46].

﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ**﴾ [سورة المائدة: 48].

﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [سورة الأحزاب: 36].

([1]) راجع فصل "آثار الانحراف" من الكتاب نفسه.

﴿**قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ**﴾ [سورة البقرة: 140].

فليست القضية أن أحكام الكنيسة مرفوضة في المجال العلمي أو ساقطة الحجية لأنها مستمدة من الدين –كما يتوهم "المثقفون"– ولكن لأن الكنيسة في أوربا نفرت الناس من الدين بطغيانها وتجبرها، فكرهوا كل ما تقول حقا كان أو باطلا وأسقطوه من حسابهم.

أما في الإسلام فالقضية مختلفة تماما..

فلا قد وقع تحريف أو تبديل في كتاب الله المنزل، الذي تكفل الله بحفظه:

﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [سورة الحجر: 9].

ولا في الإسلام كنيسة تحتكر تفسير النصوص الدينية، أو تحتكر صياغة الأفكار للناس! فهو دين مفتوح متاح فهمه لمن يدرك لغته، ومطلوب تدبره من كل الناس: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [سورة محمد: 24].

﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾ [سورة ص: 29].

ثم إن وزن الأمور بغير الميزان الرباني، إن كان مفهوما ممن لا يؤمنون بالله، فكيف يتأتى من إنسان يؤمن بالله ربا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا، وبالإسلام دينا؟!

ولو أن البشر جميعا وزنوا بغير ميزان الله، فهل يغير ذلك شيئا في الأمر؟!

هل للبشر كون غير كون الله يعيشون فيه، ويدبرون أموره، ويرتبون النتائج فيه على هواهم؟!

فإن لم يكن، فما قيمة أن يقولوا لما قال الله عنه إنه فاسد إنه صالح؟ ولمن أحبط الله عمله إن عمله راسخ البنيان؟!

* * *

وقد يقول "المثقفون" –معبرين عن موقف سادتهم، وإن ظنوا أنهم يعبرون عن موقف ذاتي– إن هذا المعيار سيسقط أكثر أهل الأرض، لأنهم لم يكونوا مؤمنين بالله ورسالاته!

فما حيلتنا نحن مع البشر؟

هل نستطيع أن نزور لهم تاريخا غير تاريخهم الحقيقي، نقول فيه إنهم لم يكونوا وثنيين؟ كما زور المزورون لإخناتون أنه كان أول موحد في التاريخ؟! بينما كان —كما يقول المزورون أنفسهم —يعبد قرص الشمس بدلا من الله؟! ويقول رب العالمين عن إبراهيم عليه السلام:

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: 78-79].

فأين قول المزورين من قول الله؟!

وكون الكثرة من أهل الأرض وثنيين ضالين، والقلة هم المؤمنين المهتدين، لا يغير شيئا في الموازين! فليس الميزان بالكثرة!

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ﴾ [سورة الأنعام: 116].

﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة المائدة: 100].

* * *

وأخيراً قد يقول "المثقفون" إن هذا معيار أخروي، ونحن نؤرخ للحياة الدنيا؛ وبين الدنيا والآخرة تختلف المعايير!

وهو قول غير صحيح!

فمعيار الدنيا —كما أسلفنا القول في الفصل الأول- هو ذاته معيار الآخرة، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ما دام الحساب والجزاء في الآخرة هو على أعمال الإنسان في الحياة الدنيا! فلا يعقل أن يكون حسنا في الآخرة ما ليس حسنا في الحياة الدنيا، أو يكون شرا في الآخرة ما هو حسن وصالح في الحياة الدنيا..

إنما تفترق الدنيا عن الآخرة لا في المعيار، ولكن في الجزاء..

فبالنسبة للأفراد قد يملي الله للظالمين منهم حياتهم كلها، فيموتون على ضلالهم وظلمهم وطغيانهم لا ينتقم الله منهم في الحياة الدنيا، ويؤجل لهم جزاءهم كله في الآخرة:

﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾ [سورة النحل: 25].

وقد يقضي المؤمن حياته كلها مبتلى، لا ينتقم الله له في الحياة الدنيا، ويؤجل له جزاءه كله في نعيم الآخرة:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة الزمر: من الآية 10].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [سورة آل عمران: 185].

أما المجتمعات فلا بد أن تنالها سنة الله في الحياة الدنيا. ولكن يبقى الفرق بين جزاء الدنيا وجزاء الآخرة أن جزاء الآخرة فوري الوقوع بمجرد انتهاء الحساب. أما جزاء الدنيا فقد لا يحيق بأصحابه إلا بعد أجيال، حسب سنة من سنن الله، هي سنة الإملاء للظالمين قبل أخذهم بالعقاب:

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [سورة الرعد: 32].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [سورة الحج: 48].

فالكافرون الضالون الوثنيون قد يمكنون في الأرض عدة قرون –إذا اجتهدوا للدنيا وبذلوا فيها جهدهم- قبل أن يلحقهم التدمير، بل قد يفتح الله لهم أبواب كل شيء برغم كفرهم وضلالهم ووثنيتهم، ثم في النهاية يدمر عليهم:

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنعام: 44-45].

والتفسير الإسلامي للتاريخ سيذكر ذلك كله..

سيذكر أن المصريين القدماء كانوا بارعين جدا في الطب والكيمياء والفلك والهندسة وغيرها من العلوم. وأنهم كانوا يقومون بعمليات في المخ (عمليات التربنة لمن يصاب بكسر في جمجمته) وكانوا يصنعون الحديد الصلب والنحاس الصلب أيضا، وكانوا يستخدمون مواد

لتلوين النقوش في معابدهم وجدرانهم مر على بعضها أكثر من خمسة آلاف عام وهي بلمعانها لا تزال كأنما تم نقشها الساعة. وكانوا يحنطون الجثث بطريقة لم يهتد أحد إلى أسرارها حتى اليوم، وكانوا يبنون الأهرام بحسابات دقيقة غاية الدقة، كما استخدموا أصلب الأحجار في تماثيلهم ومعابدهم. وسيذكر كذلك أنهم كانوا مقاتلين أشداء، وأنهم أسسوا إمبراطوريات شملت مصر والشام وبلاد النوبة. وسيذكر أنهم شعب دمث الأخلاق لين العريكة، وأنهم حافظوا على رباط الأسرة وكثير من الأخلاق الفاضلة.. ولكنه سيذكر إلى جانب ذلك أنهم كانوا يعبدون العجل أبيس! ويؤلهون الفرعون! ويتذللون إليه ويتعبدونه، ولا يحسون مهانة في أن يكونوا عبيدا له وخدماً يسخرهم في بناء مجده، ويستخفهم فيطيعونه.

هل يظلمهم التفسير الإسلامي للتاريخ حين يذكر لهم ذلك كله، بإيجابياته وسلبياته، ثم يقول عنهم في النهاية إنهم كانوا يعيشون في جاهلية على الرغم من أن الراجح أنهم أرسل إليهم رسول من عند الله؟[1].

هل يظلمهم حين يسمي عهدهم كله الذي استمر أكثر من ألفي عام "الجاهلية الفرعونية"؟

وسيذكر التفسير الإسلامي أن الرومان كانوا بارعين في بناء المدن، ومدها بالماء المحول ببراعة فوق الأسوار، كما كانوا بارعين في بناء الطرق، ومن طرقهم ما لا يزال باقيا حتى اليوم، وكانوا بارعين في القتال، وبرز من بينهم قادة حربيون ذوو قدرة فائقة في القتال وإحراز النصر وتحطيم قوة الأعداء، كما كانوا بارعين في السياسة، وأنهم أسسوا إمبراطورية من أكبر إمبراطوريات التاريخ، وأنهم احتلوا بقوتهم العسكرية والسياسية رقعة واسعة من الأرض لفترة طويلة من الزمن، وسيطروا عليها بقوة فلم تفلت من أيديهم، ولم تتمزق وتتبعثر إلا بأحداث جسام..

([1]) مما يرجح ذلك ما ورد في القرآن من معرفتهم الملائكة، إذا جاء في حديث النسوة في قصة يوسف: (**حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ**) [يوسف: 31] وجاء في كتاب الموتى الذي عثر عليه في بعض مقابرهم وصف دقيق للبعث والحساب والجزاء، لا يتجه البشر إلى التفكير فيه على هذا النحو من عند أنفسهم، وعلى أحد جدران معابدهم نقش يصور الإله يحمل عرشه ثمانية من الملائكة أولي الأجنحة. ويقول تعالى: (**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**) [الحاقة: 17] ولكنهم بعد ذلك كله عبدوا الفرعون وعبدوا الشمس، وعبدوا العجل، وأطاعوا فرعون في كفره وضلاله: (**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ**) [الزخرف: 54].

وسيذكر بجانب ذلك أنهم ظلوا وثنيين فترة طويلة من الوقت. وأنهم كانوا يمثلون الطغيان الاستعماري بأجلى صوره، وأن الدولة الأم كانت تستعبد الدول المفتوحة وتستغلها لمجدها الخاص. وأن القيصر كانوا معبودا سواء بسلطة التشريع أو بالطاعة العمياء لكل ما يأمر، وأنهم كانوا يمارسون الاسترقاق على نطاق واسع، وكانوا يعاملون الرقيق بقسوة غير إنسانية، وأنهم كانوا يعيشون فوضى جنسية في فترات متعددة من حياتهم، وكانوا يفتنون بمتاع الأرض على مستوى اللذائذ الحسية المبالغ فيها..

فهل يظلمهم التفسير الإسلامي حين يسجل لهم هذه وتلك، ويسمي عهدهم "الجاهلية الرومانية"؟

وسيذكر التفسير الإسلامي أن الإغريق كانوا بارعين في الفلسفة والعلوم العقلية، وأنهم علموا البشرية الفلسفة وعلموها التجريد العقلي واستخلاص الأحكام العامة من الجزئيات، والنظريات الكلية من النماذج الفردية، وأنهم كذلك كانوا بارعين في الفنون، وفي الخيال الشعري، وفي فن المسرحية بصفة خاصة.

وسيذكر إلى جانب ذلك وثنيتهم، وتعدد آلهتهم، وتصويرهم العلاقة بين العبد والرب علاقة صراع ومقت متبادل، الإنسان يتمرد على الآلهة ليثبت ذاته، والآلهة تصب لعنتها عليه كلما أراد أن يرفع رأسه. وأنهم اتخذوا العقل إلها يحتكمون إليه في كل شيء حتى ما لا يستطيع العقل إدراكه. كما عبدوا الجسد في صورة تماثيل تجسد الجمال.

فهل يظلمهم التفسير الإسلامي حين يسجل لهم هذا وذاك، ويسمي عهدهم "الجاهلية الإغريقية"؟

كلا! إن التفسير الإسلامي للتاريخ سيسجل التاريخ كله بأمانة كاملة لا يخفى شيئا منه، ولكنه سيعطيه وصفه الذي يستحقه، وتقديره كذلك الذي يستحقه، بغير مبالغة في السلب، ولا مبالغة في الإيجاب..

* * *

والمعيار هو المعيار..

هل حقق الإنسان غاية وجوده في الأرض؟ أم زاغ عنها، ونكل عن تحقيقها، ضلالا منه، أو اتباعا للشهوات، أو خضوعا للضغوط الواقعة عليه من أصحاب السلطان سواء

كانوا فراعنة أو قياصرة، أو كهنة أو سحرة، أو إقطاعيين أو رأسماليين.. وسواء كانت أداة القهر التي يستخدموها مادية أو روحية أو فكرية أو أيا ما كانت الأدوات.

ليس المعيار هو القوة المادية. فالقوة المادية وحدها –دون قيم مصاحبة –يمكن– بل يغلب– أن تستخدم أداة للطغيان في الأرض بغير الحق، وأداة للفساد والظلم. فكيف تكون –وحدها– أداة لتقويم "الإنسان"؟

صحيح أن فقدانها يعد نقصا يعاب على صاحبه، فمهمة الخلافة التي خلق الإنسان من أجلها تحتاج إلى قوة مادية يتمكن بها الإنسان في الأرض ليؤدي بها مهمته، وقد خلقه الله بحيث يستطيع –حين يجتهد– أن يحصل هذه القوة. فعدم تحصيلها تقصير في أمر هو مؤهل له من جهة، وهو مطلوب منه من جهة أخرى. ولكن مجرد تحصيل القوة ليس هو المطلوب حتى يكون معيارا من المعايير التي يقوّم بها إنجازه. إنما هو مطلوب من أجل شيء آخر. من أجل عمارة الأرض بمقتضى المنج الرباني. فإذا لم تؤد الأداة إلى تحقيق الهدف المطلوب من ورائها، فلا يعتبر مجرد تحصيلها معيارا للتقويم.

وليس المعيار هو العمارة المادية للأرض، فهذه العمارة وحدها –دون قيم مصاحبة– يمكن –بل يغلب– أن تؤدي إلى الترهل والترف من ناحية، وإلى الفتنة بالحياة الدنيا التي تهبط بالإنسان كلما أوغل فيها، حتى تفقده إنسانيته في النهاية.

وصحيح أن عدم القيام بالعمارة المادية نقص يعاب على صاحبه، لأن هذه العمارة جزء من مهمة الخلافة المطلوبة من الإنسان في الأرض، ولكنها وحدها لا تشكل معيارا، لأنها ليست مطلوبة لذاتها، إنما لهدف أعلى، هو حمل "الأمانة" التي أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال وحملها الإنسان، فإذا لم تكن أداة معينة لحمل الأمانة، بل كانت على العكس من ذلك أداة لشغل الإنسان عن حملها، فكيف يعتبر مجرد القيام بها معيارا للتقويم؟!

وليست القوة الحربية هي المعيار.. فهي دائما –بغير قيم مصاحبة– تؤدي إلى الطغيان والتجبر، والعدوان على الناس بغير الحق، واستلاب الأرض والأقوات من أصحابها، وإذلالهم وتحويلهم خدما لأصحاب القوة المعتدين.

صحيح أن فقدانها تقصير يؤاخذ عليه صاحبه، ويؤدي –في أغلب الأحوال إن لم يكن في كلها– إلى الهوان والذل، والتعرض للعدوان ممن يملك القوة. ولكنها –وحدها– ليست هدفا "إنسانيا"، وإنما هي أجدر أن تكون هي معيار الوجود بالنسبة للوحوش في الغاب،

فشريعة الغاب الأساسية هي هذه: الحق لصاحب القوة، والقوي يأكل الضعيف! إنما هدفها بالنسبة للإنسان أن تكون هي الأداة التي يدفع الحق بها الباطل ويزيله من الوجود ليقوم الناس بالقسط:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحديد: 25].

﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة: 251].

فإذا لم تكن أداة لإحقاق الحق، وإزهاق الباطل، بل كانت على العكس من ذلك أداة لتثبيت الباطل ومنع الحق من أن يأخذ مجراه، فكيف يعتبر مجرد الحصول عليها معياراً للتقويم؟!

وليست القوة السياسية هي المعيار.. فهي وحدها –بغير قيم مصاحبة– هي صنو القوة الحربية في العدوان على الآخرين!

لقد كانت بريطانيا "العظمى"! سيدة السياسة لمدة قرن كامل من الزمان أو أكثر فماذا فعلت؟ لقد ارتكبت من الجرائم في حق البشرية خلال هذا القرن الواحد ما لو وزع على التاريخ كله لمزجه! من كذب وخديعة ونقض للعهود وأكل لحقوق الناس وأموالهم وديارهم بالباطل، وإيقاع للخصومات بين الآمنين المتحابين على حسب سياستها الشهيرة: "فرق تسد"؛ ونال المسلمين من ذلك كله النصيب الأوفر، حيث كانت "بريطانيا العظمى!" هي في الوقت ذاته زعيمة الصليبية، القائمة –بالتحالف مع الصهيونية– على حرب الإسلام، والقضاء على دولته، وسلب أراضيه، وإذلال أهله.

ثم صارت "سيدة السياسة" هي أمريكا، التي ورثت بريطانيا وفرنسا وأجلتهما لتحل محلهما، فماذا فعلت؟ لقد ارتكبت في أقل من نصف قرن من الجرائم في حق البشرية ما فاق السيدة الأولى عدة أضعاف! بالانقلابات العسكرية التي يختار لها أشد الناس جنون عظمة وقسوة قلب وبغضا للإسلام خاصة! إذ كانت السيدة الجديدة هي التي تولت زعامة الصليبية في الوقت نفسه، وجندت نفسها أكثر من السيدة الأولى لخدمة اليهود! فصار همها الأول هو القضاء على الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي، ولا بأس عندها –من باب

"السياسة"– من استخدام الشيوعية ذاتها في وقت من الأوقات لحرب الإسلام، بشرط واحد، هو أن يظل الحبل بيدها، والسلطان لها![1].

وبريطانيا وأمريكا كلتاهما هما وريثتا الإمبراطورية الرومانية سيدة السياسة في التاريخ القديم، بل مؤسسة فن السياسة الميكيافلّي، الذي يعطي الشرعية للكذب والنفاق والغش والخديعة ونقض العهود والقتل والظلم والعدوان، بحسب المبدأ الشهير: الغاية تبرر الوسيلة! والغاية والوسيلة كلتاهما هي تحقيق حيوانية الإنسان ووحشيته! والبحث عن "الغلبة" بصرف النظر عن "الحق"! على مبدأ: افعل ما تشاء لكي تصبح قويا، فإذا أصبحت قويا فافعل ما تشاء!!

وصحيح أن القوة السياسية مطلوبة، والنقص فيها يعرض صاحبها للأخطار والمزالق، وهي جزء من "البصيرة" المطلوبة للمؤمن:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [سورة يوسف: 108].

ولكنها مطلوبة لهدف أكبر هو تثبيت الحق وحمايته، لكي لا يطمع فيه الطامعون.. فإذا انفصلت عن هدفها، وأصبحت غاية في ذاتها، فهي حينئذ سياسة الذئاب وليست سياسة "الإنسان". فكيف تعتبر –وحدها– معيارا للتقويم؟

وليس البقاء الطويل في الأرض هو المعيار.

حقيقة إنه من سنن الله أن الأمة الصالحة تمكن في الأرض زمانا طويلا، ولا يغير الله لها التمكين إلا أن تنحرف عن طريقها:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: 53].

([1]) اقرأ إن شئت فقرة "الانقلابات العسكرية واستخدام الاشتراكية لحرب الإسلام" من كتاب "واقعنا المعاصر".

﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [سورة النحل: 112].

ولكن هذه ليست السنة الوحيدة التي يجري الله بها أمور البشر في الأرض. فهناك –معها– سنة الإملاء للظالمين فترة تطول أو تقصر، مع التمكين لهم في الأرض، مما سبقت الإشارة إليه:

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [سورة الأنعام: 44].

فالبقاء في الأرض –وحده– ليس معيارا لشيء إن لم تصحبه القيم الجديرة بالإنسان. و"الزمن" في ذاته ليس شيئا يوضع في الميزان، إنما توضع القيم التي ملأت ذلك الزمن فأعطته مضمونه الإنساني.

إن فترة الخلفاء الراشدين لم تزد على ثلاثين عاما في عمر الزمن.. ولكنها في ميزان القيم أثقل من عمر إمبراطورية ظلت قائمة في الأرض عشرة قرون، بكل ما اشتملت عليه تلك الإمبراطورية من قوة مادية، وعمران مادي للأرض، وقوة حربية، وقوة سياسية، فقد كانت تلك السنوات القصيرة أعلى قمم صعدتها البشرية في تاريخها كله، بينما حفلت القرون العشرة بكل أنواع الظلم والطغيان، وإن احتوت على بعض الفضائل المتناثرة ها هنا وها هناك!

بل إن الفترة التي حكم فيها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لم تزد في عمر الزمن على عامين اثنين وبضعة أشهر.. ولكن ما أعظمها في ميزان التاريخ!

إنها الصورة المثالية للتطبيق الإسلامي بعد التمكن في الأرض، حيث قام –ربما للمرة الوحيدة في التاريخ– مجتمع ليس فيه فقراء! مجتمع تكفل الدولة فيه كل فرد من أفراده، فإذا لم تجد فقراء تجري عليهم الأرزاق من بيت المال، بحثت عن كل بكر لم يتزوج فزوجته، وعن كل غارم فأدت عنه دينه.

جاء في كتاب الأموال لأبي عبيد (ص357-358).

"كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن –وهو بالعراق– أن أخرج للناس أعطياتهم. فكتب إليه عبد الحميد: إني قد أخرجت للناس أعطياتهم وقد بقي في بيت

مال المسلمين مال. فكتب إليه: أن انظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه. فكتب إليه: إني قد زوجت كل من وجدت وقد بقي في بيت مال المسلمين مال. فكتب إليه بعد مخرج هذا: أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه مايقوي به على أرضه فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين".

وجاء فيه (ص738): "كتب عمر بن عبد العزيز: أن اقضوا عن الغارمين، فكتب إليه (الليث بن سعد): إنا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث. فكتب عمر: إنه لا بد للمرء المسلم من مسكن يسكنه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، ومن أن يكون له الأثاث في بيته! نعم! فاقضوا عنه فإنه غارم!".

فكم نساوي هذه الفترة القصيرة من عمر الجاهليات؟!

* * *

هذا إذن هو المعيار..

كم حقق الإنسان من غاية وجوده على الأرض؟

والعمارة المادية للأرض، والقوة المادية، والقوة الحربية، والقوة السياسية، والبقاء الطويل في الأرض، كلها مقومات توضع في معيار التقويم، لأنها من مقومات الوجود اليشري في الأرض، ولكنها وحدها -بدون القيم المصاحبة لها- خفيفة الوزن جدا في ميزان التاريخ! إنما تأخذ وزنها الحقيقي، وتصبح معايير ترجح الكفة حين تمتلئ بمضمونها المتناسق مع غاية الوجود البشري في الأرض. فهذا المضمون هو الثقل الحقيقي في الميزان، وهو الذي يعطي الأشياء كلها قيمتها الحقيقية ووزنها الحقيقي. بدونه تصبح الحياة الدنيا لهوا عابثا لا قيمة له، وبوجوده تصبح من الباقيات الصالحات:

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [سورة الكهف: 46].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ، أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ، كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص: 27-29].

* * *

وبهذا المعيار الرباني ينقسم التاريخ ابتداء إلى قسمين كبيرين: تاريخ الأمة المؤمنة وعلى رأسها أمة محمد صلى الله عليه وسلم، التي ناط الله بها أداء تكاليف الرسالة الخاتمة بعد الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم، وتاريخ الأمم غير المؤمنة، أي تاريخ الجاهليات.

ثم ينقسم تاريخ الأمم المؤمنة إلى فترات ثلاث: الأمم القديمة قبل موسى عليه السلام، أمة نوح عليه السلام، وأمة هود، وأمة صالح، وأمة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم، ومن يكشف البحث عنهم من تلك الأمم. ثم تاريخ اليهود والنصارى حتى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ثم تاريخ الأمة الإسلامية من مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى الوقت الحاضر.

ويبين في هذا التاريخ أن البشرية بدأت مؤمنة موحدة من لدن آدم عليه السلام، ثم طرأ عليها الانحراف بعد ذلك، كما يشار إلى وحدة العقيدة بين هذه الأمم جميعا: لا إله إلا الله. اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. وأن هذا الأصل الواحد لم يتطور ولم يتغير على مدى التاريخ الإيماني، وإنما تغيرت الشرائع بما يناسب كل قوم أرسل إليهم رسول. حتى جاءت الرسالة الخاتمة فاكتمل الدين، وأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأمم كافة.

أما تاريخ الأمة الإسلامي فيركز فيه على فترات ثلاث، ليست فترات زمنية بقدر ما هي فترات "نوعية": فترة التطبيق الفائق (فترة الذروة) وما صاحبها من تمكين فائق. وفترة التطبيق العادي، وما صاحبها من زوال السلطان وغلبة الأعداء، وجريان ذلك كله حسب السنن الربانية التي لا تتبدل ولا تتحول، ولا تحابي أحدا من البشر. ثم يركز على الصحوة الإسلامي ودلالاتها بالنسبة للحاضر والمستقبل.

أما تاريخ الجاهليات فيمكن أن يتبع فيه التقسيم الذي يتخذه التفسير الليبرالي من قديم ووسيط وحديث، أو أي تقسيم آخر يراه المختصون المسلمون من زاوية رصدهم الخاصة، على أن يكون العنوان الشامل له هو "تاريخ الجاهليات" أو "تاريخ الحضارات الجاهلية" إن صح التعبير.

ويشار في هذا التاريخ إلى تشابه الجاهليات كلها في أصل واحد، هو عبادة غير الله، معه أو من دونه، وعدم اتباع المنهج الرباني في الحياة، ثم تفترق الجاهليات بعد ذلك فيكون لكل منها سماتها الخاصة المستمدة من ظروفها الخاصة.

ويمكن أن يشار في هذا التاريخ كذلك إلى "تطور" العقائد الجاهلية، لأنها من صنع البشر، ومن ثم تتأثر بأحوال البشر، ومدى علمهم بالكون من حولهم، ومدى سيطرة الوهم والخرافة عليهم.

كما ينبغي أن تخصص مساحة مناسبة لبيان انحرافات الجاهلية المعاصرة، في السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والفكر والفن.. إلخ، وبيان مجرى السنن الربانية مع هذه الانحرافات، من فتح الله عليهم أبواب كل شيء –ما عدا البركة والطمأنينة– ومن المعيشة الضنك برغم وفرة الإنتاج المادي، ومن بوادر الدمار التي بدأت تلوح في الآفاق، مع إشارة خاصة إلى وضع اليهود المسيطر في الجاهلية المعاصرة، وأسبابه التي أدت إليه، ومن أبرز هذه الأسباب غياب الأمة الإسلامية عن الساحة.

وبهذا التقسيم وبهذا البيان، تتضح معالم التاريخ، وتتضح السنن الربانية التي يجري من خلالها قدر الله، ويصبح التاريخ كما هو في حقيقته: قدر الله في الأرض، من خلال أعمال الإنسان، مرتبطا بسنن الله في الكون والحياة والإنسان.

الفرد والمجتمع

كان من حق البحث أن ينتهي بانتهاء الفصل السابق، الذي وصلنا فيه إلى تحديد معيار للإنجاز البشري، وهو حجر الزاوية بالنسبة لتفسير التاريخ.. لولا أن هناك قضيتين تثاران حول تفسير التاريخ، يحسن مناقشتهما ليستكمل البحث خطوطه الرئيسية، هما قضية الفرد والمجتمع: أيهما الذي يكتب التاريخ، وقضية الثابت والمتطور في حياة البشرية، وقد خصصنا لهما هذا الفصل والذي يليه.

فأما قضية الفرد والمجتمع فقد وقف فيهما كل من التفسيرين الماديين موقف التناظر، فوكز التفسير الليبرالي على دور الفرد –وإن لم يهمل دور المجتمع إهمالا تاما– بينما ألغى التفسير الجدلي دور الفرد وركز على دور المجتمع.

ويبدو تركيز التفسير الليبرالي على دور الفرد واضحا في تتبعه لتواريخ الحكام واحدا إثر واحد، وتاريخ القواد العسكريين بصفة خاصة، كما يتضح من عدد التراجم، والتراجم الذاتية، التي يحفل بها ذلك التاريخ. وتبدو أحداث التاريخ في التاريخ الليبرالي كأنما هي انعكاس لإرادات الأشخاص البارزين من حكام وقواد ومفكرين، أكثر مما هي سنن عاملة في حياة البشر، وقدر رباني يجري من خلال تلك السنن، ويبدو المجتمع بصفة خاصة وكأنما دوره هو الانقياد لإرادات أولئك البارزين.

حقيقة إن كتاب التراجم يعنون بدور المجتمع والظروف المحيطة به في تكوين الأفراد البارزين فيه. ولكنك إن أنعمت النظر وجدت كأنما دراسة المجتمع وظروفه مجرد "حيلة فنية" لإبراز ميلاد "البطل".. حتى إذا وقف البطل على قدميه استعد المجتمع للتلقي والانقياد!

ولا ننسى بطبيعة الحال أن المعيار في كل ما يسجله التفسير الليبرالي هو كون الشيء قد حدث بالفعل! وربما كان مجال النقد الوحيد لتصرفات "البطل" هو أخطاؤه السياسية أو الحربية.. أما المعيار الأخلاقي فهو ساقط من الحساب!

أما التفسير الجدلي فلا يعنيه الأشخاص! إنه يضع الأشخاص جميعا في متحفه التاريخي على أنهم "أنماط" للأطوار الاقتصادية والأطوار التاريخية.. من أجل ذلك لا تجد فيه دراسة للأفراد –ملوكا كانوا أو قوادا أو مفكرين– إلا من خلال وجودهم الطبقي إن لزم الأمر، ومن خلال حركتهم في إطار الطور المادي أو الطور التاريخي، حركة حتمية لا يملكون أن يغيروا شيئا فيها أو يغيروا موقفهم منها. وبذلك تفقد الشخصية الفردية كل معنى لها وتصبح مجرد تجسيد للفكرة أو للقانون!

وفي مجال البحث النظري يلغي التفسير الجدلي دور الفرد ليبرز دور المجتمع، فيرسم حركة التاريخ من خلال "الطبقة" لا من خلال الفرد على أساس فكرته المبدئية، وهي أنه منذ ظهور الملكية الفردية توجد دائما طبقة مالكة، هي التي تملك وتحكم وتشرع لصالحها على حساب الطبقة الأخرى التي لا تملك ولا تحكم. ثم يدور الصراع بين الطبقتين. وهذا الصراع الطبقي هو الذي ينقل مراكز الثقل باستمرار، وينقل خطى التاريخ، وذلك بإبراز طبقة جديدة مالكة كلما تطورت وسائل الإنتاج، وطبقة جديدة مستغَلة يدور بينهما صراع طبقي جديد.. وهكذا دواليك حتى تصل البشرية إلى الشيوعية الثانية والأخيرة، فتستقر الدنيا، ويبطل الصراع! (ربما كذلك يتوقف التاريخ!)[1].

هذا من الوجهة النظرية.. يلغي دور الفرد ويثبت دور المجتمع. أما في الحقيقة فالتفسير الجدلي لا يلغي دور الفرد ليبرز دور المجتمع، بل يلغي دور الفرد والمجتمع جميعا، إذ يلغي دور "الإنسان" كله ليبرز دور الحتمية المادية والحتمية التاريخية، وتسييرهما للفرد والمجتمع جميعاً!

"فالإنسان" في التفسير الجدلي ليس هو الذي يعمل أو يتصرف.. إنما يملي عليه عمله ويملي عليه تصرفه، كما يقول انجلز بصراحة: "تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتي: وهو إن الإنتاج وما يصاحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعي؛ فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغييرات أو التحولات الأساسية لا يجوز البحث عنها في عقول الناس، أو في سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين، وإنما في التغيرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل".

لذلك فإنه من العبث أن تبحث عن دور "الإنسان" في ظل التفسير الجدلي. ومع ذلك فلنصدق –مؤقتا– أنهم يلغون دور الفرد ليثبتوا دور المجموع! ولننظر كيف يمكن تفسير التاريخ من خلال المجموع وحده دون الفرد!

* * *

في التفسير الإسلامي لا يوضع الفرد والمجتمع موضع التقابل الحاد، بحيث يصبحان كأنهما معسكران متضادان كل ما يرضى أحدهما يغضب الآخر، ثم يحدث الصراع بينهما لا محالة!

([1]) لا يقولون هم إن التاريخ سيتوقف! بل يقولون إن الشيوعية ستحدث تعديلات وتحويرات في داخل نفسها ولكن عن غير طريق الصراع الطبقي الذي كان هو أداة التغيير خلال ألوف لا تحصى من السنين. أما الواقع الذي شاهده الناس فهو انهيار الشيوعية بكل ما كانت تدعيه وكل ما كانت تدعو إليه!

إنما يحدث شيء من هذا في إحدى حالتين: حين يُكبّر الفرد أكبر من حجمه الحقيقي، وتوسع له دائرة "الحرية الشخصية" فيطمع في مزيد من هذه الحرية، ويحس في الوقت ذاته أن الذي يمنعه من "تحقيق ذاته" على النحو الذي يشتهيه هو "المجتمع" بتقاليده وأفكاره وروابطه، فيكره تلك الروابط وتلك التقاليد، ويسعى إلى تحطيمها لينفلت من القيود أكثر.. وتنتهي هذه الحالة –كما انتهت في المجتمع الغربي– إلى تفكيك المجتمع وحل روابطه.. ومع ذلك يوجد فيه من يسعى إلى مزيد من التفكيك –عامدا أو غير عامد– فيقول كما قال سارتر في إحدى مسرحياته "الجحيم هو الآخرون"[1]

والحالة الثانية حين يسحق كيان الفرد، وتسلب منه كل حرياته: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، ثم يقال له إن هذا يحدث من أجل المجموع! فيكره في دخيلة نفسه ذلك المجموع الذي يحرم من أجله من جميع حقوقه، وجميع حرياته. والحقيقة أنه لا يحرم من أجل المجموع! فالمجموع محروم مثله ما عدا أفراداً قليلية على رأسهم "زعيم أوحد" مقدس، هم الذين في يدهم الأمر والنهي والسلطان، وباسم المجموع يسحقون كيان كل فرد من أفراد ذلك المجموع! وبالحديد والنار والجاسوسية تحكم هذه القلة مجموع الناس، وتسحقهم تحت أقدامها، وتقول لكل واحد وهي تسحقه: إنما نسحقك من أجل المجموع!

أما في غير هاتين الحالتين المتطرفتين، فقد تقع بالفعل صراعات بين الفرد والمجتمع، ولكنها لا تصل قط إلى صورة المعسكرين المتقابلين المتعاديين، اللذين تتعارض مصالحهما دائما، ولا يلتقيان أبدا!

* * *

الفرد والمجتمع في الحقيقة بنية حية واحدة مترابطة متشابكة وإن وقع الصراع بينهما في بعض الأحيان. فمن نفس الفرد نشأ المجتمع. من رغبته في الاجتماع بالآخرين وأنسه بهم، ومن حاجته إليهم كذلك.

وأيا كانت الضرورات التي يقال إنها أدت إلى نشأة المجتمع الأول فليست العبرة بتلك الضرورات! فلو لم تكن في نفس الفرد رغبة وفرحة بلقاء الآخرين، ما كانت هذه الضرورات

(1) هذا هو عنوان المسرحية وخلاصتها أن "بطل" المسرحية يظل يتعذب من أول المسرحية إلى آخرها بلا سبب على الإطلاق إلا وجود آخرين حوله، وهم لا يؤذونه ولا يتعرضون له أدنى تعرض، ولكن وجودهم هو الذي يسبب له العذاب!

لتنشئ المجتمع، بل كان البشر يهبطون إلى حالة التوحش، ويعيشون كما تعيش الوحوش في الغاب، كل كيان قائم بذاته، وكل كيان عدو لكل كيان آخر..

بل إن من أنواع الحيوان والحشرات لما يعيش جماعات جماعات[1].. ومنها ما يعيش ممالك منظمة أدق تنظيم[2].. ومنها ما يعيش قبائل ذات مشيخات[3]..!

والإنسان، الأرقى، أولى أن يعيش كذلك.

ولكن الإنسان عجيب التركيب. فهو شعبتان ذواتا أصل واحد: شعبة فردية، وشعبة جماعية. شعبة تجد راحتها في "تحقيق الذات"، في الشعور بالفردية المتميزة، وفي الخلوة أحيانا بعيدا عن الآخرين. وشعبة تجد راحتها في الاجتماع بالآخرين، ولو مقابل التنازل عن بعض الحقوق وبعض المشاعر وبعض الأفكار، وتجد ألما في العزلة والوحدة، لا يزيله إلا الاجتماع!

وبين هاتين الشعبتين يتنقل الإنسان أبدا بمشاعره وأفكاره وسلوكه العملي. ومن هنا يبدو متناقضا أو متأرجحا في بعض الأحيان، يقف الموقف ويقف نقيضه، أو يقف الموقف ولا يؤدي مقتضياته، لأنه مشدود بمقتضيات الموقف الآخر!

ولكنه في قدر معين من هذه الحركة الدائمة قائم في وضعه الطبيعي، الذي خلقه الله عليه، ليؤدي مهمة الخلافة في الأرض، ولا يحدث الخلل إلا حين يجنح بإحدى شعبتيه على حساب الأخرى، وغالبا ما يكون الجنوح بالشعبة الفردية أكثر. وإن كان الجنوح بالشعبة الجماعية يحدث عند النفوس الضعيفة التي تجزع من احتمال التبعة، فتستسهل اتباع الآخرين.

والإسلام يربي الشعبتين معا، ويوازن بينهما ليمنع الجنوح، سواء كان الجنوح بهذه الشعبة أو تلك.

ويربي الفرد والمجتمع في آن واحد.

وكل ذلك بمفتاح واحد.. لا إله إلا الله. اعبدوا الله ما لكم من إله غيره!

([1]) كالفيلة، وقطعان الماشية.

([2]) كالنمل والنحل.

([3]) كالقردة.

فعبادة الله الواحد، التي تعني –فيما تعني– اتباع المنهج الرباني[1]، تحدث هذه الموازنة في داخل النفس بين الشعبة الفردية والشعبة الجماعية، وتحدث الموازنة كذلك بين الفرد والمجتمع، فيحدث الانسجام والطمأنينة في داخل النفس، ويحدث مثل ذلك في داخل المجتمع بالقدر الذي يطيقه البشر، وبحسب درجة التزامهم بما أنزل الله.

يعطي الإسلام الفرد حقوقه، ويوجب عليه واجباته، ويحمله تبعة عمله فردا لا يحمل أحد عنه شيئا ولو كان ذا قربى، فيرسخ بذلك كله شخصيته الفردية. يصون دمه وعرضه وماله. ويعطيه الحق في الملكية الفردية. ويعطيه قدرا من حرية التصرف في البيع والشراء والتعامل مع الآخرين. ويجعله في الوقت ذاته مسئولا عن أعماله في الدنيا والآخرة. ويصله بربه فردا، يعبده ويناجيه ويدعوه ويتضرع إليه ويتطلع إليه.. فيربيه بذلك فردا قائما بذاته.

ثم يوجهه إلى مشاعر الحب والأخوة مع الآخرين، والتعاون معهم على البر والتقوى، والأمر لهم بالمعروف والنهي لهم عن المنكر، وتقبل النصيحة منهم وهي أمر منهم بالمعروف أو نهي منهم عن المنكر.. فيربيه بذلك فردا في مجتمع.

ويوازن بذلك بين شعبتيه في داخل نفسه..

ثم يلزمه –فردا– بواجبات نحو ربه، ونحو أسرته، ونحو مجتمعه. ويلزم الجماعة مجتمعة بواجبات نحو ربها وواجبات نحو كل فرد من أفرادها، فيوازن بذلك بين الفرد والمجتمع.

ومفتاح الجميع واحد.. الإيمان بالله.. واتباع منهجه للحياة.

انظر إلى هذه التوجيهات لكل فرد بمفرده:

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: 205].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: 186].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الحشر: 18].

([1]) اقرأ إن شئت "مفهوم لا إله إلا الله" و"مفهوم العبادة من كتاب "مفاهيم ينبغي أن تصحح".

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [سورة فاطر: 18].

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ [سورة مريم: 93-95].

"لا يكن أحدكم إمعة يقول إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس وإن أساءوا ألا تظلموا"[1].

"كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته[2].

"كل المسلم على المسلم حرام. دمه، وعرضه وماله"[3].

وانظر إلى هذه التوجيهات الجماعية:

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾ [سورة النساء: 74].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [سورة الحجرات: 10].

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [سورة التوبة: 71].

"لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض"[4].

وانظر إلى التوجيهات الموجهة للجماعة وهي في الوقت ذاته مطلوبة من كل فرد بمفرده:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [سورة التحريم: 6].

([1]) أخرجه الترمذي.

([2]) متفق عليه.

([3]) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

([4]) أخرجه البخاري.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [سورة النساء: 135].

﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ [سورة آل عمران: 103].

﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [سورة الأنفال: 25].

ثم انظر حياة المجتمع الأول في عهد الذروة، لتعلم كيف خرج من مجموع هذه التوجيهات مجتمع متوازن تكوّن من أفراد متوازنين.

* * *

يعنى التفسير الإسلامي للتاريخ بالفرد والمجتمع كليهما في ذات الوقت..

إنه يرصد تاريخ "الأفراد الممتازين" وعلى رأسهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ثم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، ولكنه لا يرصدهم على اعتبار أنهم "أبطال" يوجه إليهم الإعجاب من قبل "الجماهير" كما صنع "كارليل" في كتابه "الأبطال وعبادة البطولة" ووضع في مقدمة أبطاله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم[1].

إنهم أفراد ممتازون نعم.. ولكنهم في ذات الوقت حملة "منهج" والإشادة بهم ذات شقين في آن واحد: إشادة بالمنهج الذي يحملونه إلى البشر –وهو المنهج الرباني– وإشادة بأشخاصهم باعتبار أنهم أصفى الممثلين لهذا المنهج والمترجمين عنه بصفاتهم النفسية وسلوكهم الواقعي. وفي قمتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي وصفه ربه تعالى بقوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [سورة القلم: 4]. وقالت عنه عائشة رضي الله عنها "كان خلقه القرآن"[2].

ثم إنهم بامتيازهم هذا المتمثل في المنهج الذي يحملونه، وفي تحقيقهم للمنهج في ذوات أنفسهم، كانوا ذوي أثر ضخم في حياة البشرية، هو أكبر أثر في تاريخ البشرية كله.

من أجل هذا يحتفل بهم التفسير الإسلامي للتاريخ، ويسجلهم في أوسع صفحاته.

([1]) قدمه "بطلا" لينفي عنه النبوة ومع ذلك ينخدع به كثير من الناس!

([2]) أخرجه مسلم.

ليست المسألة إذن بطولة –مجرد بطولة– ولا عبادة بطولة، كما يصفها كارليل، ممثلا في ذلك اتجاها رئيسيا للتفسير الليبرالي، إنما هي "الهداية" إلى الله، وإلى منهجه في الحياة، أثمن ما يقدم للبشر في حياتهم وأشد ما يؤثر في مصيرهم.

ولكن هنا وقفة مع التفسير الإسلامي، حتى وهو يبرز الفرد الممتاز، ويشيد بامتيازه..

إنه لا يكتفي بتقديم صورته الفذة وتسليط الأضواء عليها من أجل إثارة الإعجاب فحسب، أو الإعجاب والحب فحسب، أو الإعجاب والحب والتوقير فحسب.

إن أبرز نقطتين يحتفل بهما التفسير الإسلامي هما: روعة تحقيق النبي للمنهج في ذات نفسه، وروعة جهادة لتحقيق المنهج في مجتمع من الناس.

المنهج في الحالين نقطة ارتكاز.

والفرد الممتاز –وهو هنا النبي– والمجتمع الممتاز– الذي ينشئه النبي– هما التجسيد الحي للمنهج في واقع الحياة، وكلاهما موضع اهتمام عظيم في التفسير الإسلامي للتاريخ.

ودور المجتمع الذي يهتم به التفسير الإسلامي، ليس مجرد التأثر بشخصية الفرد الممتاز، أو التأثر بأفكاره ومبادئه، إنما هو تحويل ذلك إلى واقع. وهو عملية إيجابية ضخمة، تختلف اختلافا رئيسا عن مجرد التأثر أو الحب أو الإعجاب أو التوقير.

يشيد التفسير الإسلامي بشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ومناقبه الشريفة، وعظمة شخصيته، وجهاده الفذ. ويشيد في الوقت ذاته بالمجتمع الذي أنشأه رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه من خلال هذا المجتمع قام الإسلام بمهمته في الأرض، وكان ما كان من أثره في حياة البشرية.

وبخصوص القضية التي أنشأنا من أجلها هذا الفصل من الكتاب نقول: إن الفرد والمجتمع كليهما يكتبان التاريخ. لا الفرد الممتاز بمفرده، ولا المجتمع بمفرده. إنما هو القائد، والمجتمع بقيادة القائد، كلاهما ركن أساسي في صناعة التاريخ!

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم:

(هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) [سورة الأنفال: 62–63].

وهي إشارة ذات دلالة.. بل دلالات..

يقول تعالى في غير هذا الموضع: (**إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ**) [سورة آل عمران: 160]. فيقرر سبحانه أن من ينصره الله لا يغلب، فحين يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: (**هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ**) فهذه وحدها تكفي للدلالة على أن النصر قد كتب للنبي صلى الله عليه وسلم، فلا يغلبه أحد من الكفار، ومعنى ذلك هو التمكين له ولدينه صلى الله عليه وسلم.

ولكن الإشارة ذات الدلالة هي قوله تعالى: (**هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ**) فهنا إشارة وإشادة بالمؤمنين، الذين أيد الله بهم رسوله (صلى الله عليه وسلم) وهي في الوقت ذاته إشارة وإشادة بدور "المجتمع" في إحراز النصر والتمكين لهذا الدين، وأن هذه سنة من سنن الله: أن يكون هناك مؤمنون مجاهدون متآلفون متحابون يكونون ستارا لقدر الله، فينفذ الله بهم قدره.

ويقول تعالى عن هذا "المجتمع" الذي أصبح "أمة":

(**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ**) [سورة آل عمران: 110].

فيبرز دور الأمة وواجباتها، ويبين كيف تكتب التاريخ.

لقد كانت هذه الأمة التي أخرجها الإسلام ورباها رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينه، هي التي خلفت الرسول صلى الله عليه وسلم في رسالته، وهي التي فتحت الأرض، وفتحت القلوب للإسلام، بتحقيقها المنهج الرباني في ذات نفسها، وبدعوتها إلى الله، وبجهادها في سبيل الله.. وذلك هو نصيبها في كتابة التاريخ.

وظلت هذه الأمة تمارس المنهج الرباني —وإن تزحزحت عن بعض قيمة ومبادئه —قرونا متوالية، فكتب بذلك صفحات مجيدة في التاريخ البشري. ولما زاد انحرافها، مع قلة الأفراد الممتازين —من العلماء والدعاء والمربين والموجهين– لتذكيرها، وردها إلى الطريق، ظلت صفحتها في التاريخ تنحسر رويدا رويدا حتى كادت تخرج من التاريخ!

ولكن الصحوة الإسلامية ذات دلالة واضحة.. إن الأمة ما زال لها دور تؤديه في التاريخ، لنفسها وللبشرية كافة كما كان دورها من قبل.

وخلاصة القول أنه في الأمة المؤمنة –أمة العقيدة– يقوم الفرد والمجتمع كلاهما بنصيبه في كتابة التاريخ.

فإذا تجاوزنا الأمة المؤمنة –أمة العقيدة– ونظرنا في تاريخ الجاهليات، نجد الأمر قد اختلف نوعا من الاختلاف، سببه الأول هو سلبية "الجماهير".

وحقيقة إن "الجماهير" فيها –دائما– قدر من السلبية، حتى في أمة العقيدة. ولقد كانت هذه السلبية في أمة العقيدة هي التي تسببت في الانحراف التدريجي لهذه الأمة عن طريق الله المستقيم، حتى صارت في النهاية إلى ذلك الغثاء الذي حذرها منه رسول الله. والذي ضرب الله بني إسرائيل مثلا للأمة الإسلامية لكي تحذر الوقوع فيما وقعوا فيه، ولكنها وقعت في نهاية الأمر، فأصابتها سنة الله التي لا تتبدل ولا تحابي ولا تجامل. ومحور السنة هو تحقيق المنهج الرباني في واقع الأرض أو اتخاذه "تراثا" يدرس ولا يطبق:

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأعراف: 169].

ولكن يظل الفارق بين أمة العقيدة والأمة الجاهلية أن "الدين" تبعة، ولا يزال يذكر الإنسان بربه، وبواجبه نحو ربه، ويضبط سلوكه بنوع من الضوابط، تأخذ في المجتمع المؤمن صورة "تقاليد" أصولها مستمدة من تعاليم الدين. فيظل ذلك المجتمع متماسكاً مدة أطول، مستعصيا على الفساد والانحلال والذوبان مدة أطول.

وقد تعرض المجتمع الإسلامي –أو الأمة الإسلامية– لنكبات وكوارث وضربات وفتن، لو تعرضت لها أي أمة جاهلية –أي غير ذات عقيدة صحيحة في الله– لذابت وتلاشت إلى غير رجعة. ففي حربين اثنتين تعرضت لهما أوروبا خلال ربع قرن انحل من أخلاقها وقيمها شيء كثير، وتكونت فيها عصابات من الأطفال والمراهقين تقتل وتسرق وتنهب وتكسر قيود الآداب والأخلاق، بينما القوة المادية والحربية والسياسية والعلمية والتكنولوجية قائمة لا تزال.. فما بال لو خاضت أوروبا الظروف التي خاضتها الأمة الإسلامية خلال أربعة عشر قرنا، ووقع لها من النكبات والحروب والفتن ما وقع لها ماذا كان يتبقى منها؟ ومع ذلك كله تقوم في الأمة صحوة تبشر بالخير...!

ومهما يكن من أمر الأمة الإسلامية وأحوالها فمما لا شك فيه أن العقيدة عنصر تماسك في الأمة تفتقده الأمم الجاهلية، فيكون استسلامها للفساد أشد، ووقوع "جماهيرها" تحت ضغط الطغيان المفسد أكبر.

وهنا يختلف التفسيران الماديان في نظرتهما إلى قضية الفرد والمجتمع..

فأما التفسير الليبرالي فهو أميل –كما أسلفنا– إلى تفسير التاريخ من خلال الأفراد المتميزين، والميزة هنا لا تقتضي الأفضلية، فقد يتميز الفرد بجبروته وطغيانه كما كان لويس السادس عشر الذي قال: "أنا الدولة والدولة أنا" L Etat, c est moi. Je suis I Etat.. وكما كان نابليون، وكما كان هتلر..

وأما التفسير الجدلي فهو يفسره من خلال الطبقة، والصراع الطبقي، ولا يعترف بأثر للفرد المتميز، سواء كان متميزا في الخير –كالأنبياء والدعاة والمصلحين– أو متميزا في الشر، كالطغاة كلهم على مدار التاريخ.

بل يزعم التفسير الجدلي أن صلاح من كان صالحا من الأفراد المتميزين، وشر من كان شريرا منهم إن هو إلا انعكاس للطور الاقتصادي الذي يظهر فيه أولئك الأفراد ولمكانهم الذي يكونون فيه من الحتمية التاريخية!

وهم بطبيعة الحال لا يعترفون بالنبوات والوحي، فيسقطون أثر الأنبياء في توجيه البشرية، ويغمضون أعينهم عنهم، كأنما حين يغمضون أعينهم يمحون وجودهم من التاريخ!

ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم ودينه أصلب وأعظم وأوضح وأبقى من أن يغمضوا عيونهم عنه، فإنهم لم يجادلوا في وجوده، ولكنهم راحوا يتمحلون في محاولة تفسير الإسلام بحسب قوانين التفسير المادي للتاريخ، فتخبطوا، وسيظل ظهور الإسلام في الوقت الذي ظهر فيه، وما حواه من القيم والمبادئ أكبر تحد لذلك التفسير.

على أن الذي يهمنا في القضية في مقامنا الحاضر هو أمر الفرد والمجتمع، وأيهما الذي يكتب التاريخ.

حقيقة الأمر أن الفرد والمجتمع كليهما يشتركان في كتابة التاريخ، ولكن اشتراك المجتمع ليس إيجابيا بالضرورة في كل حالة بالنسبة للأمم الجاهلية.. إنما تظهر إيجابيته في الثورات التي قامت بها الجموع ضد الطغيان والظلم، بصرف النظر عما يردده التفسير الجدلي من أن الثورة الناجحة لا تكون إلا حين تتهيأ ظروفها المادية والاقتصادية، فتصبح حتمية تاريخية. فإنما

نتحدث هنا عن الثورة في ذاتها بصرف النظر عن نجاحها أو إخفاقها.. فلا شك أن الثورة حركة إيجابية من جانب الجماهير، ولا يغض من قيمة هذه الحقيقة أن الثورة تتجمع دائما حول فرد ممتاز أو مجموعة من الأفراد الممتازين يقودون الثورة ويوجهونها. فالعبرة بتحرك الجماهير في النهاية واستجابتهم –بإيجابية– لنداء الفرد الممتاز.

أما في غير حالات الثورة.. أي في حالات الاستكانة للاستغلال والطغيان والظلم – وهي الحالات الغالبة في حياة الأمم الجاهلية، حتى الديمقراطية[1]– فالجماهير في حالة سلبية، والذي يطغى على السطح هو الفرد الممتاز.. أو الطبقة الممتازة.. سواء!

ولا تختلف النتيجة بالنسبة للسنة الربانية.. فالجماهير السلبية مسئولة عن النتائج التي تحدث نتيجة سلبيتها، وليس كونها مظلومة معفيا لها من المسئولية في الدنيا والآخرة سواء.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً، إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً، فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً**﴾ [سورة النساء: 97-99].

والذي ورد في الآيات بشأن الهجرة هو ملابسة خاصة بالأمة المسلمة بعد قيام الدولة المسلمة في المدينة، وسقوط العذر عمن بقي في أرض الكفار ولم يهاجر إلى الأرض الإسلامية بحجة الاستضعاف. ولكن البشر كلهم مسئولون يوم القيامة –من بلغته دعوة الرسل منهم– عن سكوتهم عن الظلم الأكبر الواقع عليهم من تحكيم غير شريعة الله، بسبب عدم إيمانهم بالرسل الذين أرسلوا إليهم، وعدم جهادهم ليكون الدين لله:

﴿**بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**﴾ [سورة القيامة: 14-15].

فالاستضعاف الذي يتتبعه التفسير الجدلي ويفسر من خلاله التاريخ، هو أمر واقع في المجتمع الجاهلي الذي لا يحكّم شريعة الله، ولكنه ليس حتمية تاريخية كما يزعم ذلك التفسير فلو أنهم آمنوا واتقوا لتغير حالهم:

([1]) الديمقراطية في حقيقتها –كما بينا في كتاب "مذاهب فكرية معاصرة"– مسرحية جميلة تبدو فيها الجماهير كأنما هي التي تحكم بالفعل! ومن وراء المسرحية ومن خلالها تحكم الرأسمالية –أو يحكم اليهود– ويعبثون بآدمية الجماهير!

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) [سورة الأعراف: 96].

وفي جميع الأحوال سلبا أو إيجابا، يشترك الفرد والمجتمع في كتابة التاريخ، من خلال السنن الربانية التي يجري بها قدر الله في الأرض ويتحرك من خلالها "الإنسان"!

الثابت والمتطور

في حياة البشرية

لم تدع لوثة التطور مجالا في الفكر الغربي دون أن تصل إليه. وكان من بين تلك المجالات مجال التاريخ، وكلا التفسيرين الغربيين قد أخذ من تلك اللوثة بنصيب.

والذي يهمنا هنا –من بين القضايا الكثيرة التي تثار في هذا المجال– قضية ثبات الفطرة البشرية، وما يترتب عليها من ثبات القيم التي تحكم حياة الإنسان، وثبات المعيار الذي يقوّم به إنجازه في الأرض.

لقد كانت فكرة التطور –كما بينا في غير هذا الكتاب–[1] صدمة عنيفة للفكر الأوروبي الكنسي الذي كان يتصور الثبات في كل شيء: في الكون والحياة والإنسان.. في السياسة والاقتصاد والاجتماع... في الأخلاق والفكر والسلوك.

ثم مرت بأوروبا منذ الثورة الصناعية أحداث وتغيرات في بنية المجتمع كله، استغلها المستغلون لتوسيع فكرة التطور وإدخالها في كل مجالات الحياة، وكان الهدف الأكبر لأولئك المستغلين هو تحطيم بقايا الدين والأخلاق والتقاليد، وإنشاء مجتمع جديد مقطوع الصلة بالدين، والزعم بأن هذا هو المجتمع "المتطور" الذي هو –بحكم تطوره– أفضل من كل ما سبقه من مجتمعات التاريخ![2].

وكان لا بد من خلخلة معايير التاريخ، لكي لا يحكم على هذه اللوثة بالإدانة!

فلو بقي الدين والأخلاق من معايير الحكم على الإنجاز البشري وتقويمه، فأي حكم يمكن أن يصدر على هذا المجتمع المقطوع الصلة بالدين والأخلاق؟!

لا بد إذن من خلخلة تلك المعايير ونبذها، ووضع فكرة التطور بدلا منها، لكي يمكن الحكم على هذا المجتمع المنحل المفكك المنتكس بأنه أفضل مجتمعات التاريخ!

وقد كان!

([1]) راجع إن شئت فصل "العلمانية" في كتاب "مذاهب فكرية معاصرة".

([2]) راجع "دور اليهود في إفساد أوروبا" في الكتاب نفسه.

فالتقط كل من التفسيرين الماديين الخيط، ونسج منه تفسيرا للتاريخ يسقط "القيم" من اعتباره، أحدهما –التفسير الليبرالي– يصور الإنسان حيوانا متطورا بلا زيادة، والآخر –الجدلي– يرجع به مسافة أطول فيرده إلى الطين، إلى المادة حتى قبل أن تدب الحياة في ذلك الطين، ثم يضيف إليه قدرا من "التطور" لا يخرجه قط من قبضة الطين!

وهذان هما التفسيران اللذان تفسر بهما أوروبا التاريخ.. لا يفترقان كثيرا إلا في المسافة التي أراد كل منهما أن ينكس إليها الإنسان لكي يبعده، أو يبعد عنه الدين والأخلاق!

* * *

وما بنا هنا أن نناقش هذه اللوثة، فقد ناقشناها في غير موضع.. ولكننا ونحن نوجه الخطاب للمسلمين، ندعوهم إلى كتاب التاريخ من زاوية الرصد الإسلامية، لا بد أن نلم إلمامة سريعة[1] بقضية الثابت والمتطور في حياة البشرية، لأنها قضية يمكن بالفعل أن تثير بعض الشبهات في بعض الأذهان عند تناول التاريخ البشري.

إن الحياة البشرية تتغير باستمرار، وخاصة في العصر الأخير.. في قرن واحد من الزمان اختلفت على وجه التقريب كل وسائل الحياة، واختلفت كثير من صورها.. فما بالنا إذا وسعنا المسافة الزمنية أكثر، فاستعرضنا تاريخ البشر منذ سكناهم في الكهوف إلى دورانهم حول الأفلاك بمركبات الفضاء، المتحدى منها وغير المتحدى[2].

هل هناك –مع هذا التغير الدائم– شيء ثابت في حياة البشرية؟ وإن كان هناك في الحياة البشرية أمور ثابتة وأخرى متغيرة فما العلاقة بين الثابت والمتطور؟ أم ليست هناك علاقة، وكل منهما يسير في اتجاه؟

إن هذه القضية وثيقة الصلة بتفسير التاريخ، لأنها تتصل مباشرة بالمعيار الذي يقوّم به الإنجاز البشري خلال التاريخ.. هل لكل عصر معاييره؟ أم أن هناك معيارا واحداً يقوّم به "الإنسان" في جميع العصور؟ وإذا ثبتنا المعيار فكيف نقيس ما يتغير في حياة الناس؟ وكيف نفاضل بين قوم وقوم في الأمور المتغيرة، إذا لم تدخل المتغيرات في المعيار؟!

---

(1) تناولت الموضوع بالتفصيل في كتاب "التطور والثبات في حياة لبشرية".

(2) كان الصروخ الذي احترق بعد ثوان من إطلاقه يسمى "المتحدي! Challenger"

تلك هي القضية التي نريد أن نعرضها في هذه العجالة، وتلك هي صلتها بعلم التاريخ..

* * *

إن حياة الإنسان قد تغيرت ولا شك كثيرا منذ الإنسان الأول إلى عصرنا الحاضر، وهي عرضة لمزيد من التغيير في المستقبل حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. ولكن ما الذي تغير على وجه التحديد: الجوهر أم الصورة؟

إذا بدأنا بالقضية الأساسية الأولى وهي تكوين الإنسان من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله، وتأثير هذا الازدواج الذي كان في النشأة الأولى في كون الإنسان ذا طريقين اثنين لا طريق واحد، وكونه قادرا على التمييز بين الطريقين واختيار أحدهما.. وهي القضية التي يقوم عليها في الحقيقة تفسير التاريخ وتقويم منجزات الإنسان.. فما الذي تغير في هذه القضية، بل ما الذي يمكن أن يتغير؟!

الذي تغير في الحقيقة هو ظهور نظريات "علمية" زائفة تريد أن تلغي أثر النفخة العلوية في تكوين الإنسان، وترده إلى مرتبة الحيوانية –وإن تطور!– أو ترده إلى مرتبة المادة –وإن تطورت– وتضع– أو تحاول أن تضع– تفسيرا لحياته على هذا الأساس!

ولكن الواقع الذي نشاهده في كل لحظة أن الإنسان يتصرف بطريقة مخالفة للحيوان ومخالفة للمادة..

فإذا قلنا –جدلا– إن الحيوان المتطور، أو المادة المتطورة، يتصرفان على هذا النحو "الإنساني" فقد وجب إذن أن نخصص لهذا الحيوان المتطور –أو تلك المادة المتطورة– معايير "إنسانية" وتفسيرا "إنسانيا" منذ اللحظة التي دخل فيها مرتبة الإنسانية، بصرف النظر عن ماضيه السحيق، الذي قد يبلغ بضعة آلاف الملايين من السنين!!

ومنذ أصبح الإنسان إنسانا فقد كان هذا حاله وهذا ديدنه: له طريقان، وله القدرة على التمييز بين الطريقين واختيار أحدهما. ومن ثم كان لأعماله معيار أخلاقي ملازم، ناشئ من طبيعته الإنسانية، وليس مفروضا عليه من خارج نفسه.

وتلك من القضايا الرئيسية في تفسير التاريخ.

فإذا اتفقنا على هذا القدر فقد بقيت مشكلة أخرى هي ثبات المعايير الخلقية ذاتها وعدم تغيرها أو "تطورها" كما تزعم النظريات المادية التطورية.. وأهما ما تجادل فيه تلك النظريات هو الفوضى الجنسية المعاصرة، ومحاولة إعطائها شرعية "أخلاقية"! والقول بأن الزواج والأسرة ليسا من الفطرة..

فدوركايم يحاول أن يؤصل الفوضى لا بالنسبة للوقت الحاضر فحسب، بل تاريخيا كذلك!: "وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو (أي أنها من الفطرة) ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان"[1].

والتفسير الجدلي يربط بين الأسرة وضوابطها الخلقية وبين الملكية الفردية ومبدأ "الاستغلال" البغيض! فإذا ألغيت الملكية الفردية من جهة، واستقلت المرأة اقتصاديا من جهة أخرى فقد انحل هذا القيد البغيض، قيد الزواج والأسرة، وأصبحت علاقات الجنسين حرة بلا عوائق.. وأصبحت هذه هي "الأخلاق" المتطورة، التي تناسب "المادة المتطورة" —أي الإنسان!—في النظام الشيوعي!

وأما التفسير الليبرالي فإنه —على طريقته في إقرار الأمر الواقع ما دام قد وقع بالفعل!— لا يختلف كثيرا عن التفسير الجدلي، على الأقل في القول بأن استقلال المرأة الاقتصادي قد أدى إل تحلل علاقات الأسرة وحرية العلاقات الجنسية —كما سبق من كلام ول ديورانت — وأن هذه هي "أخلاقيات" العصر الصناعي المتطور!

نقول —بصرف النظر عن هذا الجدل كله— إن الفوضى القائمة اليوم ليست شيئا "جديدا" "متطورا" كما يصوره أصحاب الأغراض.. فقد مرت على البشرية موجات إثر موجات من الفساد الخلقي، لا تفترق عما هو قائم اليوم، إلا في سعة المساحة فحسب! وحتى "الشرعية" فقد أعلن مزدك شرعية الفساد قبل الشيوعية بقرون متطاولة، وعلى ذات الأسس "العلمية!" التي أقامتها عليها الشيوعية!!

وفي كل مرة فشا هذا الفساد كانت نتيجته واحدة.. لأن سنن الله لا تتغير ولا تتبدل.

([1]) دوركايم، قواعد في علم الاجتماع، ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوي، ص173.

والذين يكفرون بالله ورسله لا يصدقون أن لله سننا لا تتبدل! ولا يصدقون أن الله سيعاقبهم على مخالفة أوامره، لأنهم يحسبون أنهم ما داموا هم لا يؤمنون بالله فهو غير موجود حقيقة، أو غير قادر على الوصول إليهم!! وصدق الله العظيم:

﴿**قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ**﴾ [سورة يونس: 101].

فقد كانت مصيبة "الإيدز" وحدها كافية لرد الزائغين عن الطريق إلى الله، وتذكيرهم بقدرته عليهم سبحانه.. ولكنهم لا يرعوون:

﴿**وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾ [سورة الرعد من الآية: 31].

فإذا مضينا خطوة أخرى في البحث عن الثابت والمتطور في الحياة البشرية فإننا نسأل: ما الذي تغير في دوافع الإنسان، إذا كان تكوينه "الإنساني" حقيقة مقررة، بصرف النظر عن منشئه في الماضي السحيق؟

هل تغير حبه للحياة وحرصه عليها؟ هل تغير ميله إلى الجنس الآخر؟ هل تغيرت رغبته في "الملك" وفي "السيطرة" وفي "إثبات الذات"؟ وفي "الاجتماع بالآخرين"؟ وفي "الامتداد" عن طريقة الذرية؟ هل تغيرت رغبته في التعرف على الكون المادي من حوله، ومحاولة تسخير طاقاته لتحسين حياته وتزيينها والاستزادة من متاع الحياة الدنيا؟

﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...**﴾ [سورة آل عمران: 14].

ما الذي تغير في دوافع الإنسان الأصيلة التي تحركه للعمل والنشاط في الأرض ليقوم بعمارتها لتحقيق مهمة الخلافة التي خلق من أجلها؟

نعم.. تغيرت "صورة" الأداء..

وحين تغيرت صورة الأداء تغيرت مظاهر الحياة..

ولكن هل تقوّم النفوس بدوافعها الأصية أم بصورة الأداء لهذه الدوافع؟

نضرب مثلا أو أمثلة..

دافع القتال من الدوافع الأصيلة في النفس البشرية، خلقه الله ليتم من خلاله التدافع الذي يحفظ الأرض من الفساد.. وهو يأخذ اتجاهين اثنين حسب "عقيدة" صاحبه:

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [سورة الساء: 76].

وكان القتال في القديم يدور بالسهم والرمح والسيف وما أشبه.. وصار اليوم بالمدافع والدبابات والمصفحات والقنابل الذرية والنووية، وما يمكن أن يجد في المستقبل من أدوات الدمار..

فما الذي تغير؟!

وهل تغيرت دوافع القتال حين تغيرت أدواته؟ أم لا يزال الموقف كما كان منذ أول لحظة: إما قتال في سبيل الله وإما قتال في سبيل الطاغوت يتخذ صورا شتى من الاستعباد والظلم والعدوان والاستغلال؟!

وكانت معلومات الناس عن الكون المادي ضئيلة للغاية، وسيطرتهم على البيئة ضئيلة للغاية.. ولكن في قلوبهم شوقا دائما لمزيد من المعرفة بذلك الكون، ومزيد من السيطرة على البيئة.. وظل هذا الشوق يدفع الإنسان حتى فجّر الذرة، واستخلص محتوياتها، وصارت البيئة طيعة بين يديه لتحقيق رغباته.

فما الذي تغير؟!

هل اكتفى الإنسان بما حقق من علم، وبما حقق من سيطرة على البيئة؟ أم لا يزال ذلك الشوق الكامن في قلبه يدفعه إلى المزيد؟

حقيقة إن العلم الذي حصل عليه حقق له قدرا من السيطرة لم يكن يحكم به.. فصارت ضغطة زر تدير له آله تقوم بجهد مئات من العمال، أو تنقل إليه أنباء العالم وهو جالس في مقعده، أو تحمله إلى الفضاء..

ولكن هذا كله كان "أحلاما" بشرية فتحقق في عالم الواقع.. ولا شك أن تحققه قد حفزه إلى أحلام جديدة يحاول تحقيقها. ولكن هل خرج عن كيانه وعن دوافعه؟ هل تحول إلى خلق آخر؟

قد يخيل للإنسان في الجاهلية المعاصرة أن تغيرا جذريا قد حل به، هو الاستغناء عن الله، شعورا منه بأنه قد بلغ أقصى الغاية في تحقيق ذاته، أو كما يقولون هم: لقد شب الإنسان عن الطوق، ولم يعد في حاجة إلى وصاية الله!

فهل هذا الأمر جديدا حقاً! أم أنه قديم قدم الإنسان؟ تأمل قوله تعالى:

﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾ [سورة العلق: 6-7].

وكان الإنسان الجاهلي القديم يسترق أخاه الإنسان بقوة عضلاته. فيستعبده ليزرع له الأرض وهو مستريح، وهو فوق ذلك مسيطر، فيحقق نزعتين خبيثتين في آن واحد: نزعة السيطرة ونزعة الاستيلاء على جهد الآخرين بأقل من المقابل المستحق لذلك الجهد..

و"تطور" الإنسان تطورا هائلا خلال عشرين قرنا من الزمان أو أكثر..

ثم استحدث نوعا جديدا من الرق يسمونه الاستعمار الاقتصادي أحيانا، ويسمونه أحيانا بأسماء أخرى، خلاصته أن الدول القوية تسيطر على اقتصاديات الدول الضعيفة، فتجعلها تنتج لها الخامات التي تحتاج إليها بأرخص الأسعار، وتأخذها هي لتصنعها ثم تبيعها بأغلى الأسعار، وتفرض على الدول الضعيفة بشتى الوسائل أن تشتريها بتلك الأسعار..

فما الذي تغير؟!

حقيقة إن الصورة الساذجة القديمة للاسترقاق قد اختفت، ولم تعد العضلات هي وسيلة الاسترقاق.. ولكن هل تغيرت في الإنسان الجاهلي الحديث هاتان النزعتان الخبيثتان: نزعة السيطرة، ونزعة الاستيلاء على جهد الآخرين، بأقل من المقابل المستحق للك الجهد؟

* * *

تلك قصة الإنسان في الأرض..

تغيرت صورة حياته مئات المرات خلال التاريخ.. ولكن نفسه من الداخل لم تتغير..

وحين زعمت الشيوعية أن نزعة الملكية الفردية ليست نزعة فطرية وأنها قد استحدثت في نفس الإنسان نتيجة اكتشاف الزراعة، وتملك الأرض لاستغلالها في الزراعة، وأن الشيوعية قد "غيرت" تلك النزعة فردتها إلى أصلها الجماعي الذي كانت عليه في المشاعية البدائية قبل ظهور الملكية الفردية.. حين زعمت ذلك ردت عليها حقائق الواقع، إذ تدهور الإنتاج الزراعي في روسيا في ظل الملكية الجماعية حتى أصبحت روسيا تشتري القمح –بانتظام– من أمريكا!!

كلا! لم يتغير شيء في البناء الداخلي للإنسان، مع كل التغير الضخم الذي حدث في مظاهر الحياة!

يقول رينيه دوبو في كتابه "إنسانية الإنسان":

"عاش رجل "كروما غنون" في أكثر أنحاء أوروبا قبل حوالي ثلاثين ألف سنة، قبل قيام الزراعة وحياة القرية بفترة طويلة، ومع أنه كان صيادا بصورة رئيسية كان –على ما يظهر– مشابها لنا جسما وعقلا. فأدواته وأسلحته تناسب حجم أيدينا الآن. وفنه في كهوفه يثير مشاعرنا. والعناية التي كان يوليها لدفن موتاه تكشف أنه شاركنا بشكل ما بالاهتمام بنهاية الإنسان وآخرته. وكل أثر مدون من آثار إنسان ما قبل التاريخ يوفر شواهد أخرى للفكرة القائلة إن الخواص الأساسية للجنس البشري لم تتغير منذ العصر الحجري[1].

لذلك لا تتغير القيم الثابتة التي تحكم الجانب الثابت من كيان الإنسان!

* * *

ولكن هل معنى هذا أن نسقط كل ما تغير من مظاهر الحياة الإنسانية من معيار التقويم الذي نقوم به إنجازات الإنسان، بحجة أن بناءه الداخلي لم يتغير، ومن ثم لا بد أن يكون التقويم بالقيم الثابتة التي تتوقف عليها "إنسانية الإنسان" لا بمظاهر حياته المتغيرة؟

كلا! لا نقصد ذلك!

([1]) رينيه دوبو، إنسانية الإنسان، ترجمة د. نبيل صبحي الطويل، طبع مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى سنة 1979، ص71.

فلو عثرنا اليوم على إنسان ما زال يعيش في الكهف، يصطاد الحيوان لطعامه بالرمح أو السهم، ويطهوه في موقد بدائي، أو لا يعرف كيف يطهوه.. ويلبس قطعة من الجلد حول منطقته.. فسنقول على الفور إنه متأخر.

ذلك أنه قد تخلف في جانب من الإنجاز المطلوب منه في مجال الخلافة وعمارة الأرض، استطاع أقرانه من البشر أن يقوموا به، فأصبح هو متخلفا عنهم، لوجود نقص في جانب من كيانه، جعله يقصر في اللحاق بأولئك الأقران.

ولكننا لو اكتشفنا من معايشتنا لذلك الإنسان أنه يعرف إلهه الحق، ويعبده عبادة صادقة، ويلتزم بالفضائل الإنسانية فلا يظلم ولا يعتدي، ويعامل الناس باللطف والمودة، وإذا عرض موجب للتعاون قام يتعاون معهم ويبذل جهده لا يريد من الناس جزاء ولا شكورا، ورأيناه لا يستأثر وحده بالطعام بل يبحث عن إنسان محتاج فيشركه في طعامه، ثم يقوم فيشكر الله على أن مكنه من أداء خدمة لإنسان آخر.

هل تظل نظرتنا إليه كما كانت عندما رأيناه للوهلة الأولى قبل أن نعرف أفكاره ومشاعره وطريقة سلوكه؟!

أم يتغير الميزان؟

وحين يتغير الميزان فهل نغض الطرف تماما عن النقص الذي لمسناه أول مرة؟ أم نقول: إنه رجل فاضل كريم عاقل متزن نبيل المشاعر، ولكن يلزمه أن يغير ما فيه من التخلف، ليصبح على مستوى العصر الذي يعيش فيه؟!

وهذا مثال جدلي متخيل بطبيعة الحال، مبالغ فيه من طرفيه للتوضيح. ولكن القضية التي يعرضها قضية حقيقية، تحتاج إلى حسم من كاتب التاريخ: أيهما الأثقل في الميزان: جانب القيم الثابتة؟ أم جانب المظاهر المتغيرة، مع التسليم بأن كلا منهما مطلوب، وكلا منهما له وزنه في التقويم الأخير..

ولكي تتضح الصورة، ويسهل الحسم في القضية، سنأخذ المثال المقابل تماما من الجاهلية المعاصرة.

هذا إنسان قد هبط لتوه من الصاروخ العائد من الفضاء.. لقد حقق مجدا عظيما للإنسان يغزو الفضاء، و"تحدى" كل العوائق التي كانت تمنع الإنسان من الانطلاق[1].

وحين هبط إلى الأرض كانت "صديقته" في انتظاره لتهنئه بالنصر العظيم الذي تحقق على يديه.. إنهما لم يتزوجا لأنهما لا يعترفان بالزواج، ويعتبرانه قيدا سخيفا على حريتهما لا معنى له. هي تعمل. مستقلة اقتصاديا. ليست في حاجة إلى من يعولها.. لذلك فهي تمنح صديقها صداقة حرة. بمحض إرادتها. صحيح أنه ليس أول صديق لها.. وقد لا يكون آخر صديق.. ولكنه –الآن– هو صديقها المختار.. وهو من جانبه كذلك.. ليست هذه أول صديقة له.. وقد لا تكون آخر صديقة.. ولكنها –الآن– صديقته المختارة.

عنده مبلغ من المال، أودعه في البنك ليحصل على فوائده.. لم يقف ليسأل نفسه يوما: هل الربا طريق مشروع لاستثمار المال؟ صحيح أن البنك الذي يعطيه الفائدة قد ربح أكثر منها من إقراض مبلغه ومبلغ غيره إلى المحتاجين لاستثماره.. ولكن من يملك البنك؟ ما نتائج تراكم المال في يد الفئة القليلة التي تملك معظم أسهمه؟ ما تأثير هذا المال المتراكم في السوق الاقتصادية؟ سوق العملات العالمية مثلا؟ ما تأثيره في توجيه وسائل الإعلام؟ وهذه الصور العارية في الصحافة أو التليفزيون، وهذه الأغاني التافهة، والمسرحيات الهابطة والأفلام المثيرة؟ أي هدف يقصد منها؟ ومن الذي يدير السياسة حين تغرق "الجماهير" في هذا اللهو العابث الذي تبثه وسائل الإعلام؟ ولمصلحة من في النهاية؟

ثم.. إذا بحرب قد أعلنت.. ولقد جندته الدولة ليذهب إلى ميدان القتال بعد أن شحنت وسائل الإعلام مشاعر الناس ضد "العدو" الذي يستحق الإبادة والتأديب.. لم يقف ليسأل نفسه، هل هذه الحرب حق أم باطل؟ لحساب من تدار؟ هذه الأرواح التي ذهب لإزهاقها.. هل تستحق الإزهاق بالفعل؟.. أم إنها قامت لحقها المغتصب، فذهب هو "لتأديبها" جزاء تمسكها بحقها المشروع؟

انتهت الحرب وعاد منتصرا.. لقد أثبتت بلاده قوتها وانتصرت على عدوها بما تملك من وسائل التدمير الوحشي، وهو مسرور بطبيعة الحال، بنجاته من الموت أولا، وبنصر بلاده ثانيا، لم يهتز ضميره لحظة واحدة للقتلى الذين قتلتهم بلاده، ولا المشردين الذين شردتهم، فالقومية التي يعتنقها –التي غذتها في نفسه مناهج التعليم ووسائل الإعلام– قد علمته أن "مصلحة" بلاده فوق مصالح البلاد كلها، وهي التي لها الاعتبار كله، ومصالح الأمم الأخرى

([1]) أشرنا من قبل إلى الصاروخ الذي انفجر بعد ثوان من إطلاقه وكان يحمل اسم "المتحدي" ولا ندري بالضبط من أو ماذا كان يتحدى؟!

لا وزن لها ولا اعتبار.. لقد قام النزاع فانتصر الأقوى، والأقوى هو الأصلح، وهو صاحب الحق في البقاء..

لم يجد صديقته.. لقد تعرفت في أثناء غيابه على صديق آخر.. تركت له رسالة تعلنه فيها بانتهاء ما كان بينهما من علاقة.. أحزنته الصدمة.. ذهب إلى "علب الليل" ليغرق أحزانه.. واحتاج إلى قدر أكبر من الخمر لينسى.. ليهرب من نفسه.. إنه ينسى بالفعل، ولكنه يفيق أكثر كآبة، وأكثر حاجة إلى الهروب من الظلام الذي يملأ جنبيه.. يريد أن يغرق في مرح مجنون.. لا يريد أن يفكر.. لا يطيق أن يفكر.. وفي أي شيء يفكر؟ ما أتفه الحياة! إنها ليست ذات معنى.. إنها عبث مفض إلى الفناء!

هل هناك شيء بعد الفناء؟..

لأي شيء يعيش الإنسان؟

أوه.. دعنا من التفكير! فلنعمل بجد لنكسب أكبر قدر من النقود.. ثم لننفق ما حصلناه من النقود.. ولنحاول أن نستمتع إلى أقصى حد.. Enjoy yourself[1] وليكن بعد ذلك ما يكون!

تلك قصة متخيلة بطبيعة الحال، ولكن وقائعها –متفرقة أو متجمعة– تحدث لملايين من البشر في الغرب.. يعيشون "التطور"! كل مظاهر حياتهم قد تطورت مع تطور العلم، والتكنولوجيا، وتطور "المفاهيم" المتعلقة بالإنسان، وغاية وجوده.. يعملون بدأب وجلد لإنتاج أكبر قدر من الإنتاج المادي "المتطور".. وأفئدتهم هواء! خاوية من كل القيم الحقيقية التي تتحقق بها "إنسانية" الإنسان، والتي اختص بها منذ أخذ صورته الإنسانية المتميزة.

وما وزنهم في التاريخ؟... بل قبل أن نسأل عن وزنهم نسأل عن حالهم.. ما حصيلة "التطور" الذي يعيشونه أو يعيشون فيه؟

فأما عدد غير قليل منهم فسل عنه مصحات الأمراض العقلية، والعيادات النفسية، وسجلات المجرمين، بنسب تقول إحصائياتهم ذاتها إنها آخذة في الازدياد.

([1]) أي متع نفسك! وهي كلمة شديدة الجريان على ألسنة الأولاد والبنات في أمريكا خاصة!

وعدد آخر فسل عنه في مكان غريب جدا ولكن له دلالته في قياس درجة "السعادة" التي يعانيها المتطورون.. هو "مكاتب" البحث عن الشاردين من أهلهم وأصدقائهم والشاردات، تلك المكاتب التي تأخذ "المواصفات" وتقوم بالبحث لقاء أجر معلوم..

وأرقب الباقين –أو غالبيتهم– يعملون كالآلات بالنهار، وينطلقون كالحيوانات في الليل، في المراقص والحانات وعلب الليل ونوادي التفاهة أو نوادي المجون.

والآن ما وزنهم في التاريخ؟

لا نقول إنهم أصفار في ميزان التاريخ.. فهذا الجهد الدائب الذي يبذلونه في التعرف على الكون المادي، واستغلال طاقاته في تيسير الحياة للإنسان، هو جزء من مهمة الخلافة التي خلق لها الإنسان. ولهذا لا يمكن إسقاطه من الحساب.

وهذا التنظيم العبقري للحياة، الذي ييسر بدوره استغلال طاقات الكون المادي للإنسان، هو جزء من مهمة الخلافة فلا يمكن إسقاطه من الحساب.

والتكنولوجيا المتطورة وأثرها "في السيطرة على البيئة" جزء من مهمة الخلافة لا يمكن إسقاطه من الحساب..

وتلك هي "المتغيرات" النافعة في حياة الإنسان المعاصر.

ولكننا نقول –كما قلنا من قبل– إن هذه الأمور كلها، بغير القيم التي ينبغي أن تصاحبها، خفيفة الوزن جدا في الميزان الذي يقوم به إنجاز "الإنسان"!

ثم إنها وحدها –بغير القيم التي ينبغي أن تصاحبها– عرضة لأن تدمر الإنسان في النهاية، بعد أن تقدم له النفع فترة من الزمن. هي الفترة التي يقدرها الله في الإملاء للظالمين قبل أن يدمر عليهم.

ويجيء التدمير بقدر من الله، ولكن يجري قدر الله من خلال أعمال البشر كما بينا من قبل:

﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [سورة الروم: 41].

فمن هذه الأدوات النافعة ذاتها يحدث الفساد في الأرض، حين تقوم وحدها بغير القيم التي ينبغي أن تصاحبها. لأنها تؤدي إلى الترف، وتؤدي إلى الترهل، وتؤدي إلى الفتنة بمتاع الحياة الدنيا والتكالب عليه، فيحدث الصراع المدمر في حياة الناس..

من أجل ذلك فإن القيم الثابتة هي الأثقل وزنا في ميزان التاريخ، وهي التي ترجح الكفة أو تجعلها تطيش.. أما المتغيرات فمع أنها ذات وزن، ومع أنها مطلوبة، ومع أنها من المقومات المحسوبة في التقويم، فإنها ليست هي التي ترجح الكفة أو تجعلها تطيش.

وفي لحظة معينة، حين يجيء التدمير بقدر من الله يكون وجودها وعدمها سواء!

﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون، فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ، فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ**﴾ (غافر: 82-85).

كلمة في الختام

هذه الكلمة موجهة إلى المؤرخ المسلم الذي يتصدى لكتابة التاريخ البشري من زاوية الرصد الإسلامية.

إن كثيرا من "المثقفين" سينكرون هذا العمل من أساسه..

سينكرونه بادئ ذي بدء لأنهم لم يتعودوه!

وسينكرونه لأن أوروبا –التي تثقفوا على فكرها، وصارت مرجعهم في كل أمر– لم تذكره في مراجعها، ولن توافق عليه في المستقبل! فهي لا توافق على تأريخ يضع تاريخها في "الجاهليات"، ولا تأريخ يضع أمجادها التي تعتز بها في ذيل القائمة، ولا تأريخ لا يجعل أوروبا محور التاريخ!

وإذا انتظر المؤرخ المسلم حتى يعترف بعمله أولئك "المثقفون" أو تعترف بعمله أوروبا، فينتظر كثيرا.. وقد ينتظر دون جدوى!

إنما على المؤرخ المسلم أن يعمل باقتناعه، لا برأي الناس فيه، ولو كان الناس هم المثقفين.. أو هم الغربيين!

واقتناع المسلم –مؤرخا أو غير مؤرخ– مستمد من منهجه الرباني، المبين في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وحين يكتب المؤرخ المسلم تاريخ البشرية من زاوية الرصد الإسلامية فلن تتغير على يديه وقائع التاريخ –كما أشرنا أكثر من مرة في البحث– إنما الذي سيتغير هو تفسير التاريخ، وتقويم الإنجاز البشري، وهما العبرة الحقيقية من دراسة التاريخ.

* * *

سيقول "المثقفون" إن هذا التفسير رجعي لأنه يستمد معاييره من الدين والأخلاق، وقد رفضت أوروبا كلا المعيارين ووسمتهما بالرجعية!

وسيقولون إنه تفسير غير موضوعي وغير علمي لأنه خاضع لتوجيه الدين!

وسيقولون إنه متعصب ضيق الأفق، لأنه لا يزن البشرية بميزان واحد، ويفرق بين الناس على أساس عقيدتهم، وقد ألغت "الديمقراطية" الفوارق بين البشر بما في ذلك فارق الدين، ورفضت "الشيوعية" أن تقوم التفرقة بين البشر على أساس الدين!

وسيقولون إن هذا التفسير سيعزلنا عن العالم، لأنه سيجعل لنا عملة خاصة غير التي يتعامل بها الآخرون!

* * *

فأما أوروبا، ورفضها معيار الدين والأخلاق، فهي حرة فيما تصنع بنفسها. ولكن المسلم لا يملك أن يتخذ معيارا غير المعيار الرباني، ثم يزعم بعد ذلك أنه ما زال محافظا على إسلامه.

إنها مسألة من صميم عقيدته: هل كلام الله صادق، سبحانه، أم يحتمل غير الصدق؟ وهل كلامه ملزم، سبحانه، أم مجرد "رأي" أو "وجهة نظر" يملك المسلم أن يتخذ رأيا غيره أو وجهة نظر غيره!

والتفسير الإسلامي للتاريخ –كما قلنا– هو في ذاته اجتهاد بشري يمكن أن يخطئ ويصيب، كاجتهاد الفقهاء في استنباط الأحكام من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويمكن أن تختلف فيه وجهات النظر كما تختلف وجهات النظر بين الفقهاء، أما "المعيار" فليس بشريا. ولا يملك البشر –بعلمهم المحدود، وقصور نظرتهم، وتأثرهم بأهوائهم– أن يضعوا هم المعيار من عند أنفسهم. إنما يضعه الخالق المدبر، اللطيف الخبير، صاحب الأمر في الدنيا والآخرة:

(أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) [سورة الأعراف من آية: 54].

(وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) [سورة البقرة من آية: 216].

فإذا قال الله إن هذا هو الخير وذاك هو الشر، فلا يملك البشر من عند أنفسهم أن يقولوا إن لنا رأيا آخر في الأمر. وحين يقولون ذلك –وهم يقولونه – فهم يتحملون وزرهم، أما المسلم فشأنه أنه يلتزم بما قضى الله ورسوله:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: 36].

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة النور: 51].

* * *

أما قضية "الموضوعية" و"العلمية" فقد سبق أن أشرنا إليها في فصل "معيار الإنجاز البشري"، وقلنا إن أوروبا تنزع العلمية والموضوعية عن دينها —وهي حرة في ذلك.

إن المسلم لا يعرف شيئا أكثر موضوعية ولا أكثر علمية من دينه المنزل من عند الله.

وهو يتعامل مع دينه بهذا اليقين في كل أمر من أمور العقيدة، وأمور الحياة، وأمور الفكر.

ويقينه هذا ليس تسليما أعمى، فإنما نهى عن التسليم الأعمى، ودعى إلى التفكير، والاقتناع بعد التفكير:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سورة سبأ: 46].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ [سورة الفرقان: 73].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [سورة محمد: 24].

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [سورة النساء: 82].

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص:29].

وهو يجد من مصداق الموضوعية والعلمية في آيات الأحكام —التي يدور حولها الفقه الإسلامي— ما يدهش العقل البشري من دقته وإحكامه وإحاطته وشموله. ويجد من مصداق الموضوعية والعلمية في الإشارات إلى الآيات الكونية ما يكشف عنه علم البشر جيلا بعد

جيل، وقد كشف علم الأجنة في السنوات الأخيرة عن أمور واردة في كتاب الله أذهلت العلماء الذين اطلعوا عليها فآمن منهم من فتح الله بصيرته، وقالوا إن هذه المعلومات لم تكن معلومة للبشر قبل عشر سنوات فقط فكيف بأربعة عشر قرنا؟!

كذلك يجد المسلم مصداق الموضوعية والعلمية في الآيات التي تتحدث عن سنن الله في الحياة البشرية، وهي هي محور التفسير الإسلامي للتاريخ.

فإذا قالت أوروبا عن دينها إنه غير موضوعي وغير علمي.. فلتقل، أما المسلم فقد تعلم الموضوعية وتعلم العلمية من هذا الدين! ويشهد التاريخ أن الحركة العلمية الكبرى —التي تعلمت منها أوروبا المنهج التجريبي في البحث العلمي– كانت من منجزات هذا الدين، ولم تكن الأمة الإسلامية —قبل إسلامها– أمة علم، ولا أمة موضوعية، فصارت كذلك حين اعتنقت الإسلام ومارسته بشموله وموضوعيته وعلميته في كل جوانب الحياة.

* * *

كذلك أشرنا إلى دعوى التعصب في فصل "معيار الإنجاز البشري"..

إننا لسنا واضعي المعيار الذي يفرق بين البشر على أساس العقيدة، ويفرق بين تاريخ البشر في الحياة الدنيا وفي الآخرة على الأساس ذاته. إن واضع المعيار هو الله سبحانه وتعالى:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة التغابن: 2].

والذي قال إن تاريخ المؤمنين يختلف عن تاريخ الكفار في الدنيا والآخرة هو الله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأعراف: 96].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [سورة طه: 124].

(فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [سورة البقرة: 38-39].

أما الديمقراطية التي تزعم أنها ألغت فوارق الدين، وأما الشيوعية التي ترفض أن يقوم التفريق بين البشر على أساس الدين، فلتصنع هذه وتلك ما شاءت.. إنها لا تملك شيئا من أمر الناس في الدنيا ولا الآخرة! إنما الذي يملك أمر الناس كله في الدنيا والآخرة فهو الذي صنفهم هذا التصنيف.. والذي قرر وجود التفرقة —ووجوب التفرقة- بين المؤمنين وبين الكافرين.

والتفرقة قائمة بالفعل في ظل الديمقراطية والشيوعية فلا تخدعنا اللافتات!

كيف تعامل أوروبا الديمقراطية —الصليبية- المسلمين في كل الأرض؟ فكيف تخدعنا اللافتات؟

وكيف يشوه المستشرقون —الذي تنتجهم الديمقراطية- التاريخ الإسلامي؟! فكيف تخدعنا اللافتات؟!

وغير المستشرقين من كتاب التاريخ: فيشر، وويلز، وتوينبي وغيرهم.. أي يضعون التاريخ الإسلامي في كتاباتهم عن تاريخ العالم؟ فكيف تخدعنا اللافتات؟!

إن واقع الديمقراطية غير مزاعمها.. وإن تعامل تلك الديمقراطية المزعومة مع الإسلام والمسلمين في كل الأرض لهو الشاهد على أن دعوى عدم التفرقة على أساس العقيدة هي مجرد دعوى لا ظل لها من الحقيقة.

ومع ذلك فإن وضع الجاهلية الأوروبية في مكانها في التفسير الإسلامي للتاريخ، ليس ثأرا منهم! وليس معاملة بالمثل! فقد أمرنا الله بالعدل معهم، وألا يجرمنا شنآنهم على عدم العدل:

(وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ) [سورة الشورى: 15].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) [سورة المائدة: 8].

إنما هو الالتزام بأمر الله دون تعصب ودون شنآن.

فحين يقول تعالى في كتابه المنزل:

﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [سورة المائدة: 50].

لا يدع لنا خيارا في الأمر. فكل حكم غير حكم الله فهو حكم الجاهلية. وكل قوم في الأرض لا يحكمون بما أنزل الله فهم في الجاهلية حتى يخرجوا منها بتحكيم شريعة الله.

وحين نضع تاريخ أي أمة –في القديم أو الحديث– لا تحكم شريعة الله في مكانها في تاريخ الجاهليات، فليس من عندنا نصنع ذلك، ولا نملك أن نصنع غيره حين نلتزم يالمنهج الرباني، ونسمي الأشياء بما سماها به الله.

وأما الشيوعية التي تزعم أنها ترفض تمييز الناس بحسب عقائدهم، فلنذكر لها أمرين يفسران حقيقة موقفها:

الأمر الأول كتاب ألفه لينين بعنوان "حل المشكلة اليهودية" قال فيه: إنه طالما كان هناك دين ومتدينون، فسيظل يشير الناس إلى اليهود على أنهم يهود، ويظل يقع تمييز مجحف عليهم، والحل الوحيد للمشكلة اليهودية هو إلغاء الدين كله، وعدم التمييز بين البشر على أساس الدين. وعندئذ تستطيع الأقلية اليهودية أن تعيش بسلام دون أن يقع عليهم تمييز مجحف!

فلينظر "المسلمون" لحساب من يلغي الشيوعيون الدين! ولينظروا في الوقت ذاته إلى حقيقة تاريخية هي إبادة أربعة ملايين مسلم على يد ستالين... لأنهم مسلمون!

أما الأمر الثاني فهو حقيقة تاريخية أخرى وقعت عام 1948م، حين أنشئت الدولة اليهودية القائمة على أساس ديني واضح لا لبس فيه، فقد اعترفت بها أمريكا في منتصف الليل بتوقيتنا المحلي، وبعد عشر دقائق من اعتراف أمريكا كانت روسيا ثاني دولة في العالم تعترف بالدولة القائمة على أساس الدين.

فلينظر "المسلمون" لحساب من توضع المبادئ والشعارات في الشيوعية، ولحساب من تنقض المبادئ والشعارات وقت اللزوم!

والمسلم لا يستمد معاييره من موقف هؤلاء القوم أو أولئك القوم.. إنما يستمد معاييره من الإسلام.

* * *

بقيت قضية العزلة عن العالم بسبب التعامل بعملة خاصة غير العملة التي يتعامل بها بقية الناس.

وجزء من هذه القضية صحيح بلا شك. فالعملة الإسلامية عملة خاصة من صنع الله سبحانه وتعالى، بينما بقية العملات من صنع البشر:

(صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ) [سورة البقرة: 138].

أما العزلة –إن حدثت، وهي صعبة الحدوث في عالمنا المعاصر– فمن الذي يفرضها؟

لماذا يفرض علينا أن نترك عملتنا الخاصة، ونتعامل بعملة القوم، ولا يقبل القوم منا أن تكون لنا عملتنا الخاصة كما لهم هم عملتهم الخاصة؟

من المتعصب إذن؟

ولا شك أن وضع المسلمين هو الذي يحكم القضية..

فيوم كانت للمسلمين قوة سياسية وقوة حربية وقوة مادية.. ويوم كانت لهم دولة مسموعة الكلمة ممكنة في الأرض.. كان للمسلمين عملتهم الخاصة، يعترف بها العالم كله راضيا أو كارها، وتجري في الأرض أمرا واقعا، ويشتريها من يشتريها، ويدعها من يدعها، ولكن لا يجرؤ أحد على عدم الاعتراف بها..

فلما حادوا عن طريق الله، وجرت عليهم السنن الربانية التي لا تتبدل ولا تحابي أحداً من البشر، زال التمكين الرباني عنهم، وصاروا غثاء كغثاء السيل.. ثم فرض الأعداء عليهم عملتهم، فتعاملوا بها كأنها عملتهم الخاصة!

والله لم يخرج هذه الأمة لتكون ذيلا للبشرية، وإنما لتكون في موضع القيادة والريادة والشهادة:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) [سورة البقرة: 143].

ولقد أثرت الهزيمة الضخمة في نفوس المسلمين حين هزمهم أعداؤهم وهم غثاء كغثاء السيل لا جذور له تمسكه في الدوامة، فنسوا مهمتهم التي أخرجهم الله لها، وصاروا ذيلا للأمم، بل صاروا يلهثون وراء الذيل، يطلبون من العالم أن يتعطف عليهم بقبول لهاثهم وراءه حتى يلحقوا بالركب!

ولكن الله يقول للمؤمنين، حتى في هزيمتهم:

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: 139].

ونحن في هذا البحث لا نخاطب المنهزمين الذين فقدوا ذاتيتهم، والذين يحسبون أن أقصى ما يغنمونه من غنم في الحياة الدنيا أن تعترف بهم الجاهلية المعاصرة، وتسمح لهم باللهاث خلفها، ولا تطردهم من محيطها..

إنما نخاطب الذين استردوا ذاتيتهم بالفعل، وعرفوا مكانهم الذي أخرجهم الله ليكونوا فيه.. وعرفوا أن هذا الدين هو الحق، وما خلاه باطل فاستمسكوا بالحق، ولم تفتنهم كثرة الخبيث:

﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة المائدة: 100].

* * *

كتابة التاريخ البشري من زاوية الرصد الإسلامي ضرورة لازمة للأمة الإسلامية، وليست نافلة يمكن إسقاطها أو الاستغناء عنها، وليست كذلك عملا هامشيا يقوم به بعض الناس لتزجية أوقات الفراغ.. فراغ الأمة الإسلامية!

إنه ضرورة لتوحيد الشخصية المسلمة، وعدم تمزيقها بين دراسة ودراسة، وبين منهج ومنهج، وبين اتجاه واتجاه..

إننا نعيش اليوم بشخصية مزدوجة، لا بين درس الدين ودرس التاريخ فقط.. بل بين إسلامنا ومناهجنا التعليمية في عمومها. ثم نعجب في النهاية لماذا يخرج أبناءنا —الذين نقوم بتعليمهم في مدارسنا —باهتي الشخصية، غير متميزي الملامح، تتقاذفهم الأهواء وتتقاذفهم المذاهب وتتقاذفهم الاتجاهات؟

إننا نحن الذين نصنع فيهم ذلك!

ولا بد أن نأخذ الأمر بالجدية اللازمة له.. لا بد أن نعيد النظر في مناهجنا كلها، فنعيد بناءها على أسس إسلامية.

ومنهج التاريخ في مقدمة المناهج التي تحتاج إلى إعادة البناء، سواء منها ما يختص بالتاريخ الإسلامي[1] وما يتعلق بالتاريخ البشري كله.. لأن درس التاريخ –كما قلنا في المقدمة– هو درس في التربية في ذات الوقت.

والصحوة الإسلامية عليها واجب ضخم تجاه المناهج التعليمية عامة، ومناهج التاريخ بصفة خاصة.. تعيد صياغتها صياغة إسلامية.. باعتبار هذا جزءا لا ينفصل عن مهمة التربية اللازمة لإعداد الجيل المسلم.

والمؤرخون المسلمون مدعوون للقيام بنصيبهم من هذا الجهد الشاق.. وقد لا يعترف بجهدهم أحد في الوقت الحاضر.. بل قد يرميهم المثقفون بالأحجار!

ولكنهم –بجهدهم– يبنون الطريق للمستقبل..

والمستقبل للإسلام!

﴿**وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [سورة الروم: 6].

﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً**﴾ [سورة الفتح: 28].

(1) انظر إن شئت كتاب "كيف نكتب التاريخ الإسلامي".